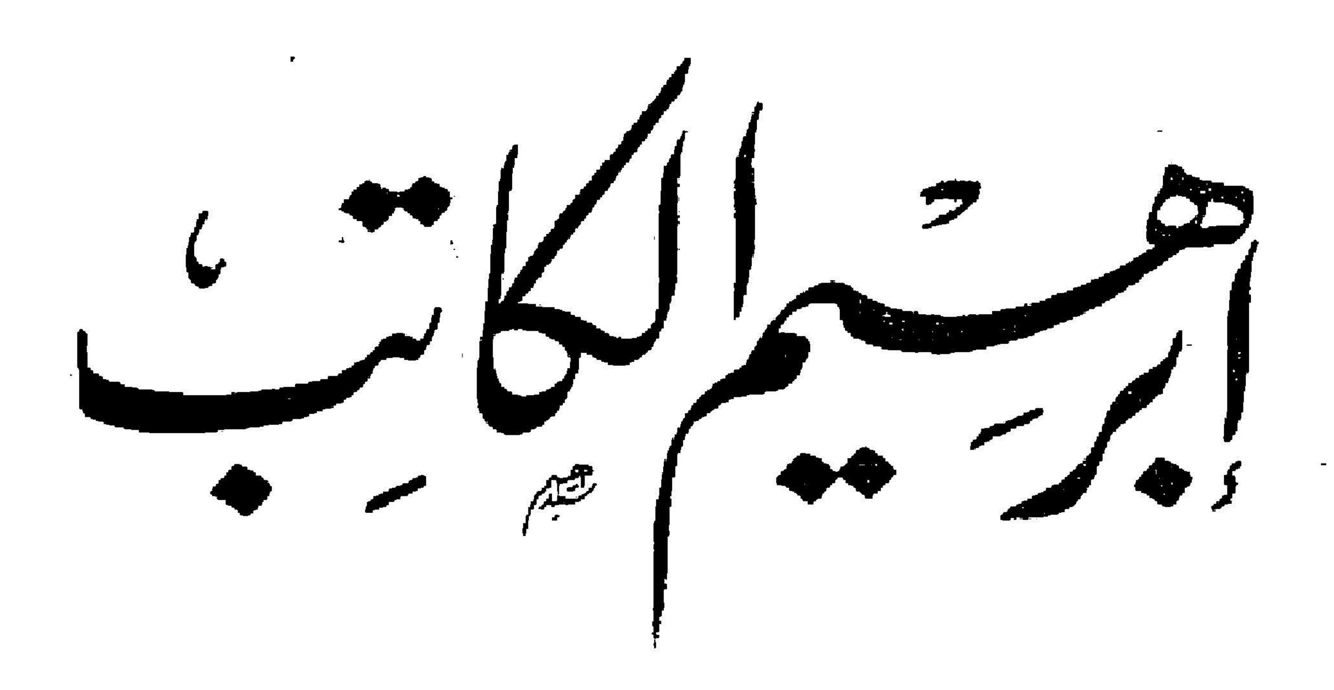
لجنة النشر للجامعيين



ابرهيم عبد القادر المازني

لجنة النشر للجامعيين



تأليف

ابراهيم عبد القادر المازني

مكتبة مصر ومطبعتها

مطبعة مكتبة مصر

لجنة النشر للجامعيين (لجنة الإنتاج الفني)

أحمس	عبد الحميد جوده السحار	مايو	سنة ١٩٤٣
رادوبيس	نجيب محفوظ عبد العزيز	يولية	سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري	عبد الحميد جوده السحار	سبتمبر	سنة ١٩٤٣
قنابل	محمود تيمور بك	نوفمبر	سنة ١٩٤٣
أخناتون ونفرتيتي	على أحمد باكثير	ديسمبر	سنة ١٩٤٣
ثلاثة رجال وامرأة	ابرهيم عبد القادر المازنى	يناير	سنة ١٩٤٤
أقاصيص	لنخبة من الأساتذة	فبراير	سنة ١٩٤٤
سلامة القس	على أحمد باكثير	مارس	سنة ١٩٤٤
ويك عنتر	عادل كامل	ابريل	سنة ١٩٤٤
بلال مؤذن الرسول	عبد الحميد جوده السحار	مايو	سنة ١٩٤٤
ع الماشى	ابرهيم عبد القادر المازنى	يونية	سنة ١٩٤٤
حديقة أبى العلاء	كامل كيلانى	يولية	سنة ١٩٤٤
كفاح طيبة	نجيب محفوظ عبد العزيز	أغسطس	سنة ١٩٤٤
خريف إمرأة	إبراهيم المصرى	سبتمبر	سنة ١٩٤٤
قصر الهودج	على أحمد باكثير	«	سنة ١٩٤٤
عشاق العرب	كامل محمد عجلان	أكتوبر	سنة ١٩٤٤
مليم الأكبر	عادل كامل	نوفمبر	سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	عبد الحميد جوده السحار	ديسمبر	سنة ١٩٤٤
محمد رسول الله	مولاى محمد على	يناير	سنة ١٩٤٥
عطر ودخان	محمود تيمور بك	فبراير	سنة ١٩٤٥
وا إسلاماه	على أحمد باكثير	مارس	سنة ١٩٤٥
الأطياف الأربعة	للإخوة الأربعة	ابريل	سنة ١٩٤٥
مرايا الناس	السيدة وداد سكاكينى	مايو	سنة ١٩٤٥
الشيء الصغير	الفونس دودية	مايو	سنة ١٩٤٥

ملك من شعاع	عادل كامل	يونية سنة ١٩٤٥
الفرعون الموعود	على أحمد باكثير	يونيه سنة ١٩٤٥
إبرهيم الكاتب	ابرهيم عبد القادر المازنى	يوليه سنة ١٩٤٥
هتاف الجماهير	أمين يوسف غراب	يوليه سنة ١٩٤٥
مسرحية الأب	أوجست ستر ندبرج	أغسطس سنة ١٩٤٥

تحت الطبع :

الكأس السابعة	صلاح ذهنى
علم النفس التحليلى	محمود محمود
الدهاة الثلاثة	عمر أبو النصر
خان الخليلى	نجيب محفوظ
سعد بن أبى وقاص	عبد الحميد جوده السحار
سر الحاكم بأمر الله	على أحمد باكثير

الإهداء

إلى التى لها أحيا ، وفى سبيلها أسعى
وبها وحدها أعنى طائعاً أو كارهاً .

إلى نفسى ...

ابرهيم عبد القادر المازنى

مقدمة الطبعة الأولى

بدأت هذه الرواية فى سنة ١٩٢٥، ثم عدلت عن إتمامها والمضى فيها وبها إلى غايتها، ونسيتها إلى شتاء ١٩٢٦، فاتفق فى ذلك الوقت أن عرفت سيدة نمسوية تزاول الصحافه والتعليم فى آن معاً، وتوثقت بيننا الصداقة على الأيام — فقد طال مقامها هنا — فأطلعتنى على صفحة من حياتها حافلة بالكروب والمتاعب، ولما كنت لا أعرف لى، مع الأسف، تاريخاً يستحق الذكر، أو حياة جديرة بأن يصغى اليها، أو يطلع عليها السامع أو القارىء، ولما كنت معها فى موقف يتقاضانى أن أجازيها بثاً ببث، وأن أقول بشجوى كما قالت بشجوها، فقد ركبنى عفريتى الذى استراح إلى كتفى واطمأن إلى استسلامى لقضاء الله فى معه، فقصصت عليها حكاية الرواية — كما كنت أنوى أن أكتبها — وزعمت أن هذه قصة حياتى! ولما كانت حياتى مستمرة فقد احتجت — وأنا أسرد عليها هذا التاريخ المبتدع — أن أجعل الختام باباً مفتوحاً.

ومن هنا كانت تسمية الرواية «ابرهيم الكاتب» ومن هنا أيضاً جاء ختامها — كما يرى القارىء — ختاماً يصح أن يتخذ بداية جديدة.

ولست أحتاج أن أقول إنى لست «بإبرهيم» الذى تصفه الرواية، وإن هذا المخلوق ما كان قط، ولا فتح عينيه على الحياة إلا فى روايتى، .. ثم إنى لست أرضى أن أكونه، فما تعجبنى سيرته ولا مزاجه ولا التفاتات ذهنه، وقد ندمت على خلقه بعد أن سويته فلو كان دمية لحطمتها وطحنتها، ولو كان صديقاً لجفوته ونبوت به، ذلك أنه يتناول الحياة باحتفال، وأنا أتلقاها بغير احتفال، وهو يعبس للدنيا، وأنا أفتر لها عن أعذب ابتساماتى،

وأحس السرور بها يقطر من أطراف أصابعي — كالعرق — وهو مغرى بالتفلسف ، وأنا أعد الواحد من هذا الطراز مرزوءاً يستحق المرثية ؛ وهو وعر متكبر وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد وأنا ريض سلس ، وهو نفور وأنا عطوف ، وفى نفسه مرارة وأنا مغتبط بالحياة راض عنها قانع بها ؛ وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه ، ولذلك تراه قليل التسامح ضيق الصدر ، وأنا لا أرى فى الإمكان أبدع مما كان ، ولست مثله أؤمن بالتثليث فى الحب أو الكره ، ولم أمرض قط بالبنيمونيا الخ الخ . . . فليس بيننا ، كما ترى ، من تشابه سوى أن كلينا قصير قمىء ، وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج فليته كان هو المصاب به وأنا الناجى المعافى !

ولطول ما مر على الرواية وهى ملقاة فى مكتبى ، مللتها وكرهتها وزهدت فى نشرها ، فاقتطعت منها فصولا نشرتها مستقلة ، فالآن رُدت هذه الفصول إلى الأصل الذى انتزعت منه .

ولما شرعنا فى إخراجها ضاع بينى وبين المطبعة كثير من ورقاتها ، وأنا امرؤ رأسه كالغربال الواسع الخروق ، أعنى أن ذاكرتى خوانة فلم أدر ماذا أصنع ، وحرت كيف أسد هذه الثغرات فى رواية كتبتها منذ سنوات ثم نسيت موضوعها وأشخاصها وحوادثها جملة وتفصيلا ، وكان لا مفر من إتمامها بعد أن طبعنا أكثر من نصفها ، فعالجتها حتى أكملتها وكأنى أتم كتاباً بدأه سواى .

وقد تحريت فى الحوار أن أتقى العامية ما استطعت ، ماخلا مواضع قليله رأيت أن العربية تجىء فيها نابية قلقة . وقد حملنى على ذلك أن العامية هى لغة الحوار عندنا جميعاً يستوى فى ذلك المتعلم والأمى ، وإن كانت لغة المتعلم بالعربية أشبه وإليها أقرب ، فإذا تحرينا الواقع كان لابد أن يكون كل حوار باللغة العامية ، مع تفاوت ضئيل تبعاً لمراكز المتكلمين ، وحظوظهم

من التعليم أو الجهل ، والحوار يشغل جانباً ليس بالقليل ، فكأن العامية ستتخذ أداة للكتابة ، وهى فى رأيى لا تصلح لهذا لكثرة ما ينقصها من عناصر التعبير ، ولحاجتها الشديدة إلى الضبط والإحكام ، ولأنها لم تستوف بعد أوضاعها ، والملاحظ ـ والطبيعى أيضاً ـ أن لغة الكلام ترقى مع انتشار التعليم ، وتقترب شيئاً فشيئاً من اللغة العربية ، فاتخاذ العامية أداة للحوار عكس للآية ، ثم أن العربية أداة ثابتة على كثرة ما يطرأ عليها من التطور ، وهى تتسع وتلين ، وتزداد صقلا على الأيام ، والعاميه لا ثبات لها ، وهى تندمج فى العربية بعد أن اشتقت منها وانفصلت عنها ، ثم إن محاكاة الواقع بالمعنى الحرفى ، لامعنى لها ، لأن الأدب فن ، وليس مجرد نقل ومحاكاة ، ولا يصح القياس على الروايات الغربية فى هذا الباب ، لأن المتعلمين من أهل اللغات الغربية يتكلمون اللغة الصحيحه على العموم ، على خلاف العامة ، فللتمييز هناك بين لغات الحوار محل ومسوغ معقول ، وليس الحال عندنا كذلك ، ثم إن الروايات التى تنقل من لغه إلى أخرى يستغنى فيها عن تقليد اللهجات العامية ، لأن التقيد بالأصل فى سوق الحوار يكون تعسفاً وتعملا لاموجب له ، ومن هنا آثرت للحوار أن يكون باللغة العربية فى حيثما بدا لى أن إيثارها لا يستكره فى السماع ، وقصرت العامية على مواقف قليلة رأيتها تكون فيها أقوى فى التصوير ، وأضوأ فى التعبير .

وليس هذا مقالا ، ولكنما هو مقدمة أو تصدير ، ومع ذلك لا أرى بدأ من أن أعلن هنا مخالفتى لزملاء وإخوان أجلهم ، يذهبون إلى أن الحياة المصرية لاتعين على نشوء الرواية المصرية وترقيتها ، بحيث يسعها أن تتخذ لها مكاناً إلى جانب الرواية الغربية ، فإن هذا الرأى مرجعه فى الحقيقة إلى الظن بأن الرواية ينبغى أن تكون على نسق الرواية الغربية ، وهذا خطأ ،

فإن لكل أمة خصائص حياتها ، والرواية الغربية ليست نسقاً واحداً حتى فى الأمة الواحدة ، ولكل أمة فنها الذى ينشأ فيها بالتطور الطبيعى . والفن الروسى غير الانجليزى ، وهذا غير الفرنسى أو الألمانى أو الأمريكى ، وليس ثم مايمنع أن ينشأ فن مصرى فى هذا الباب من أبواب الأدب ، يكون قائماً بذاته ، ومستقلا عما يقابله أو يشاكله عند الأمم الأخرى ، وبديهى أنه ليس من الضرورى أن تقع حوادث الرواية فى الطرقات أو المنتديات أو المحافل العامة ، حتى يصح القول بأن الحجاب الذى لا يزال ـ إلى حد ما ـ مضروباً على المرأة المصرية ، عقبة فى سبيل التأليف الروائى، وعلى أن الحجاب يفنى ويزول ، وهو فى طبقات دون أخرى ، وفى المدن دون الريف على الأغلب ، ولا يعيى باستمداد عناصر التأليف الروائى من الحياة المصرية إلا من لا يصلح لذلك ، وإلا من يريد أن يزيف ما يقتبس من الغرب . وصحيح أن الحب الذى تنتجه الحياة المصرية الحافلة بالتقاليد المختلطة ، ضرب آخر يختلف عند التحليل عن الحب الذى تؤدى إليه الحياة الغربية ، ولكن من الذى قال إن الرواية إما أن تكون على النسق الغربى أو لا تكون ؟ ثم من الذى زعم أن كل رواية يجب أن تدور على هذه العاطفة وحدها ، وأن يكون الحب قوامها وقطب الرحى فيها ؟ أليس للناس فى هذه الدنيا من عمل غير الحب ، أو مسعى غير فوز امرأة برجل أو رجل بامرأة ؟ إن هذا القصر هستريا لا أكثر ولا أقل .

وفى وسعى أن أقول ، وفى وسع القارىء أن يصدق : إن « إبرهيم الكاتب » ليس له آخر أو انتهاء ، لأنه لم يكن له أول أو ابتداء ، وهذا كلام أحسبه يحتاج إلى بيان ؛ فلنحاول إيضاحه :

لما خطر لى أن أجود على القراء بهذه الرواية ، لم أبدأ من حيث يبدأون

هم الآن، أعنى أن الموضع الذى افتتحت منه القصة لم يكن هو مستهلها الأخير، وهذا - فيما أظن - بيان كاف ، فإذا لم يكن كذلك فلنحاول مرة أخرى.

أول ما كتبت من هذه الحكاية، ماصار فيما بعد الفصل الأول من القسم الثالث، وبعد أن قطعت مرحلة غير قصيرة، كففت وانقطعت، ثم عدت فتناولت الحكاية ولكن من ذيلها، أعنى أنى كتبت الفصل الأخير، وثنيت بالذى قبله، فالذى هو أسبق، وهكذا ظللت أكتب راجعاً، أو من الشمال إلى اليمين، حتى اتصل القديم بالجديد، ثم بدا لى أن فاتحة الكلام ينبغى أن ترد إلى الوراء قليلا، فبدأت مايعد الآن القسم الأول، ورحت أكتب فى أوقات متباعدة حتى لاسبيل إلى تذكر الترتيب الذى كتبت به هذه الفصول، وقد أثبتت لى هذه الطريقة فى التأليف ، أن من الميسور أن يكون تأليف الكتاب متقطعاً، ولكن الكاتب لابد له أن يعيش فى خلال ذلك، وأظن أن معنى هذا واضح ، ولو حاولت أن أضع كتاباً آخر على هذه الطريقة الفذة لكان الأرجح أن لا أفرغ منه أبداً، وأحسب أن هذا هو السبب فى أن روايتى هذه بدئت فى سنة ١٩٢٥، وأنها تنشر لأول مرة فى منتصف ١٩٣١.

ومن يدرى ؟ لعلى لو لم أورد هذه الحقائق لقال بعض النقاد إن هذه الرواية أحدث ما كتبت وإنها لذلك أنضج ما أخرجت !! على أنى أتوقع أن لا أعدم واحداً يقول ذلك !.

ابرهيم عبد القادر المازنى

يوليو سنة ١٩٣١

مقدمة الطبعة الثانية

أجزت هذه الطبعة الثانية لرواية « إبرهيم الكاتب » بغير تغيير في الأصل الذي نشر في الطبعة الأولى ، لأن الرواية أصبحت فيما أرى من الآثار الأدبية المعتمدة ، حتى ليخيل إلىّ أنه لا يحق لى أن أتناولها بشيء من التعديل : فهى الآن فى أيدى القراء من الجيل الجديد الذى لم يدركها فى حداثته على الصورة التى تلقاها الجيل السابق ، والتى سيتلقاها الجيل التالى إذا كتب لها طول البقاء ، وكانت أهلا له .

ابرهيم عبد القادر المازنى

القسم الأول

« كل الأنهــار تجرى إلى البحر
والبحر ليس بملآن ... »

الفصل الأول

« وكان مساء . . . »

— ١ —

شوشو فتاة يقول لك جسمها إنها ناهزت التاسعة عشرة ، ويشهد حديثها وحركاتها أنها لم تجاوز السابعة عشرة . وهى ذات قامة معتدلة وجسم غض ووجه صبيح متألق ، ترتاح العين إلى النظر إلى معارفه جملة ، وتشغل بوقعها مجتمعة عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا الشطر الأول من عمرها فى عزلة قلما أتيح لها فيها أن تخالط الرجال إلا أن يكونوا من ذوى قرابتها الأدنين ، فلم تألف أذنها عبارات الإعجاب بحسنها ، وبقيت نفسها مرسلة على سجيتها ، وخلا كل ما فيها ولها من ذلك التعمل الذى يدرب الفتاة عليه تنبه الشعور بنفسها وتوقعها من الجليس أن تأخذها عينه من فرعها إلى قدمها وأن تجس محاسنها وتنقدها . وقد انفردت عيناها بمزية : هى أن من يراهما لا يحتاج أن يعدوهما أو ينقل لحظه إلى سواهما ، ففيهما يجتلى نفسها وروحها وطبيعتها وجمالها ، مركزاً . وهما سوداوان غير أنه سواد فيه من العمق أكثر مما فيه من الالتماع . تحدق « فيه » تحديقك « فى » بئر ، ولا ترنو « إليه » كما ترنو « إلى » رسم .

ومن الفتيات من لا يفطن المرء إليها على فرط حسنها ، لأول وهلة ، ولكن صاحبتنا هذه كانت من قوة الجذب بحيث لا يسعك إلا أن تحس وجودها وتشعر بما تفيضه حولها ، ولا تكاد تجلس إليها خمس دقائق حتى تلم بما فطرت عليه من جرأة الجنان الذى لا يدرى أن فى الدنيا ما يتقى ،

ومن حرارة النفس الغريرة التى لم يصدمها من التجاريب ما يطفئها ، ومن خفة الروح التى لا يثقلها إلحاح اللحم . ويعرف من يعرفها أن لها أحياناً تبدو فيها كالظمأى إلى مجهول ، أو كالتى تعتلج فى صدرها خواطر وإحساسات هى أغمض من أن تتولى الكشف عنها عبارة أو أوجع من أن ترفه عنها دمعة . ولم تكن كذلك الآن فى هذه الفترة التى زخرت فيها تيارات حياتها ، والتى نخصها بالذكر .

— ٢ —

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق ولفت الحقول فى شملة من الظلام لا رقيقة ولا شفافة ، وكان اثنان يدلفان فى الطريق بين المزارع على حمارين ، أحدهما مسرج ملجم، يعانى الفتى الحضرى الذى يمتطيه أشد البرح من تخطره ونزاعه إلى الانطلاق فى العدو ، وهو لا يكاد يمسك نفسه فوقه من فرط التقلقل ، وثانيهما — أى ثانى الحمارين — يخطو وادعا ، ورأسه مدلى وأذناه مسترخيتان، وليس على ظهره سوى لبدة عتيقة استقر عليها الراكب ولصق بها حتى لا تكاد رجلاه تتحركان ، كأنما هما خشبتان مشدودتان إلى جانبى الحمار ، وكان الفتى فى شاغل من متاعبه فقطعا أكثر الطريق فى صمت إلى أن التفت الفتى إلى رفيقه وقال :

— لم أعرف اسمك الى الآن فهل تسمح لى به ؟

— اسمى ؟ آه ! أحمد الميت .

— الميت ؟ ولماذا يدعونك الميت ؟

فقال القروى وهو مطرق كما كان ، وعيناه إلى أذنى حماره :

— لأنى مت .

فابتسم فتانا ساخراً وقال :

— سبحان من يحيي العظام وهي رميم ! ولكنى أحسب يوم النشور لايزال بعيداً ، فكيف عدت إلى الحياة قبل الأوان ؟

فرفع القروى رأسه فجأة والتفت إلى الفتى التفاتة المغضب وقال :

— لقد قلت لك إنى مت وانتهى الأمر .

فاسترسل فتانا فى سخره وقال ولم تزايله ابتسامته :

— إذن من الراكب على حمارك يا رفيق ؟ أهو عفريتك ؟

فقهقه القروى وقال يطمئنه :

— عفريتى ؟ لالا ! لا تخف ! أنا أحمد الميت .

— ولكن ألا تحدثنى كيف حييت كرة أخرى ؟ أو من الذى ردك إلى الحياة ؟

— لم يردنى إلى الحياة أحد . لقد مت وانتهى الأمر .

فحملق الفتى فى وجهه وهو مبهوت وكف عن الكلام، وقد دار فى نفسه خاطر لم يرتح معه إلى صحبة هذا الرفيق .

وبعد قليل قال أحمد الميت :

— ليست هذه أول مرة جئتنا فيها ؟

— بل هى الأولى . . . (ثم بعد قليل) لوددت أنى ماجئت !

وسكتا برهة ثم عاد القروى يصل ماانقطع :

— لقد حسبتك عرفت الدار من طول تحديقك إلى ناحيتها .

— وأنى لى برؤيتها وهذا الظلام أكثف من جلد الفيل ؟

فضحك القروى ضحكة حفلت بالقرقعة ثم أمسك فجأة وقال :

— إنكم يا أبناء المدن لم تألفوا النظر فى الظلام .

فقال الفتى وفى صوته مرارة تنم على ما يكاتم من الألم الذى جره عليه نشاط دابته :

— كلا ! لم يرزقنا الله مثلكم عيون القطط .

ثم ساد السكوت لحظة أخرى قال القروى بعدها :

— أحسبك تعرف قصة الباشا المرحوم مع أفندينا ؟

— كلا !

— إنها قصة ممتعة . لقد شرف أفندينا يومئذ . . .

— من تعنى بأفندينا هذا ؟

— أفندينا إسماعيل ! لقد شرف يومئذ بلدتنا ولم يكن الباشا قد نال هذه الرتبة ، ففرش له الطريق كله بالرمل، ونصب على جانبيه الزينات التى لم نرها لا قبلها ولا بعدها إلى الآن، وأقام الأفراح أربعين يوما فسر أفندينا جداً وقال له ساعه هم بالركوب عائداً : إنى جعلتك من بيكواتى ويمكنك بعد أن أرجع إلى مصر أن تزورنى فى أى وقت تشاء لأكافئك على كرم ضيافتك وسخائك فى استقبالنا . ومضت سنون بعد ذلك لا أذكر عدها ، وفى يوم من الأيام تذكر البيك كلمه أفندينا فنهض وقال : إنى ذاهب إليه من توى . فلما صار فى مصر مضى إلى سراى أفندينا وقرع الباب ، فقال الخادم : ماذا تبغى ؟ » فحكى له ما كان ، فقال له : إن إسماعيل مضى وجاء غيره ، فعاد وأخبر القرية أن إسماعيل الثانى . . . »

— إسماعيل الثانى ؟ أظن ياصاحبى أن فى تاريخك خطأ .

— كلا ! لاخطأ على الإطلاق ! إنها حكاية مشهورة ! وليس مثلى من يخطىء فى الرواية ؛ أمن أجل أن كتبكم لاتحوى هذه القصة تكون خطأ ؟ وأنا بعد لم أتممها لك ولم أخبرك بما وقع له مع إسماعيل الثالث . . .

— إن هذا لا يطاق . كلا ! لن أحتمل إسماعيل الثالث . ووثب إلى الأرض عن ظهر الدابة وتركها وسط الطريق ، ومال إلى حافته اليمنى كأنما أراد أن يجعل بينه وبين رفيقه أطول بعد ممكن . ورأى القروى ذلك

فكف عن محادثته ، وجعل يقول لنفسه : « ماأغرب هؤلاء الأفندية الذين يجيئون من الأمصار ! أما والله لولا أنه يمت بالقرابة إلى الباشا رحمه الله » .

وبلغا البيت ، فهرتهما الكلاب ، وأفزع الفتى نباحها وهيئتها الوحشية ، فدنا من رفيقه بكرهه ، حتى كاد يدخل فى ثيابه ، فزجرها القروى عنه ، وصعد به السلم .

— ٣ —

قالت شوشو لقريبها بعد أن أصاب حظاً من الراحة :

— تعال بنا إلى بهو السلم ، فإن الجو بديع فى هذه الليلة .

— ولكن السلم يؤدى إلى الغيط مباشرة بلا حاجز ، و ... والكلاب ...

— آه . الكلاب ! أتخافها ؟ إنها لن تؤذيك ... تعال ... أيصح أن تكون أضعف منى قلباً ؟

فمضيا إلى البهو وجلسا ، ثم شرعت فتاتنا تنادى : « مرجان . بخيت . مرزوق » فعجب الفتى وقال : « وما تصنعين بهؤلاء كلهم ؟ لاتتعبى الخدم ياشوشو بلا داع » .

والتفت فإذا ثلاثة كلاب تصعد مسرعة على السلم وتقبل عليها وتتوثب حولها وتتمسح بثوبها وتحرك أذنابها وتلعق حذاءها ، فأشارت إليها فربض واحد إلى يمين الفتى ، وثان أمامه ، والثالث إلى يساره ، وعادت هى تحادث قريبها حتى عرضت مناسبة . فنهضت وأخبرته أنها ستغيب عنه برهة قصيرة ، ولم تنتظر أن تسمع ماهم أن يقوله إذا صح أنه فتح فمه ليتكلم ! وتركته .

فأسلم أمره لحظه ولهاتيك الكلاب ، وجعل يلاحظها خلسة . وشاءت بعوضة أن تلذعه فى جبينه ، فرفع يده ليذبها ، فرفعت الكلاب الثلاثة رءوسها وزامت ! .

لحظ ذراعه .

وأراد الحظ أن تألم ساقه الوضع الذى كانت فيه ، فهم بتحريكها فعادت الكلاب ترفع رءوسها وتزوم ، فتركها مكانها .

وكثر البعوض فجأة ، وتوالى الإحساس باللذع فى الوجه واليدين والرجلين ، وهو يتجلد إشفاقاً من هذه الكلاب الضارية ، حتى جاوز الأمر الطاقة ، وكاد يذهب رشده فصاح — وهو مسمر فى مكانه ، ومن غير أن تتحرك شعرة فى جسمه : « أبعدوا عنى هذه الكلاب ، وإلا قمت وتركتها تمزقنى » .

وفى هذه اللحظة فتحت نافذة مطلة على البهو ، وظهرت منها شوشو مستغرقة فى الضحك .

الفصل الثاني

(. . . وكان صباح . يوماً واحداً)

قضى فتانا إبرهيم — فهذا اسمه — ليلة هادئة عميقة النوم إذا استثنينا حلماً قصيراً ركب فيه جواداً بلا لجام جمح به في طريق وعر ، ينحدر على أحد جانبيه نهر جائش ، وتعترضه في بعض المواضع أقنيـة تختلف ضيقاً وسعة : عليها ألواح من الخشب ، وقف الجواد الخبيث فجأة ، فوق واحدة منها وأهوى برأسه وقادمتيه إلى المـاء ليشرب ! .

وبدأ الصـبح بأصوات العصافير ، فنهض ثم لبس حذاءه ومعطفـه وطربوشه ، وخرج متسللا كاللص . وكانت السماء غائمة ، والجو مطلولا لاتخلص معه الأنفاس . وكان هو يكره الرطوبة ويتقيها ويشفق من عواقب التعرض لها ، وكثيراً ما ثنته عما يقصد إليه ، ولكن منظر الحقول في هذه الساعة قبل طلوع الشمس ، والضباب يسترها على مسافة متر ، ويشف شيئاً فشيئاً عنها — وهو منظر لاعهد له به — أغراه بالمضيّ فانطلق على غير هدى ، حتى وقف على ترعة صغيرة نزرة الماء تكسو الحشائش جانبي مجراها ، ويفترش المـاء في قاعها بساطاً سندسياً ليناً . وجعل ينظر إليها تارة ، ويدير عينه في الحقول المستوية تارة أخرى . وكان المنظر من حوله مؤلفاً من عناصر إذا اجتمعت ، كما هي الآن ، أحالت الحب في النفس الحساسة قلقاً ، وهوت بالأمل إلى الشك ، وهبطت باليقين إلى مرتبة الرجاء ، ومنعت الذكرى أن تحرك الأسف على فائت ، أو الرغبة أن تدفع إلى سعي . ذلك أنه كان أمامه — على قدر ماوسعه أن يرى — هذه الترعة السوداء ، ومن

ورائها مثل الجدار القائم . ومن خلفه هو أرض بعضها مرعى فيما يعلم ، وبعضها زرع لايدرى أىّ شىء هو . ثم فضاء غير مستو يقوم من بعده البيت الذى زايله منذ لحظة . وكل ماحوله أشكال ليس لهامعارف — كالدرهم المسيح — توحى إلى النفس أىّ شىء ، ولا تنطق بشىء ، إذ كان الضباب لايزال يكسوها ثوباً يزيدها فى رأى العين والقلب عرياً وتجرداً . وكانت السماء دانية مسفة يحس المرء أنها تهم بالانطباق على الأرض . ثم بدأت الشمس تطلع حمراء قانية كبيرة القرص ، وأخذت تطلق أشعتها الطويلة المتوهجة من الشرق فتتلقاها فى الغرب السحب ، فأطراف المنازل ، فالأكواخ والنوافذ ورءوس الأشجار ، فالأغيصان النابتة على وجه الأرض . فصارت الأنفاس كأنها خارجة من فوهة مدخنة ، لامن فم آدمى .

وأحس لطول ماوقف ، بالبرد يسرى من قدميه إلى سائر بدنه ، فثنى خطواته إلى الدار ، وما كاد يفتح الباب المؤدى إلى الجناح الذى أفرد له ، حتى طالعته زنجية لامعة الجلد ، منتفخة الأوداج ، كأنما حشيت أشداقها قطناً ، براقة الأسنان ، واسعة العينين حمراؤهما ، قد غرز رأسها المعصوب بين كتفيها غرزاً ، واتصل بهما بلا واسطة . أما صدرها فعريض جداً ، وأما خصرها ـ إذا جاز أن يسمى هذا خصراً ـ فهضيم جداً ، حتى كأن مانقص من هذا زيد فى ذاك ، ويلى الخصر ردفان ثقيلان تحتهما ساقان قصيرتان كالقمعين ، فكأنها زير عليه إبريق مقلوب فوقه كرة ذات ثقوب . والمرء بأيسر مجهود من الخيال يستطيع أن يتصورها مفككة .

فابتدرته الزنجية بقولها :

« أين كنت ياسيدى ؟ »

فلم يرتح إبرهيم إلى هذه المفاجأة ، ولم يسره لونها الأسود البراق بعد

ذلك الضباب الذى لبث فيه . وكان من أثقل الأشياء على نفسه أن يسئل عن روحاته وغدواته ، فقال لها :

« أين كنت ؟ وكيف يعنيك هذا ؟ » .

— لقد أزعجتنا جداً ياسيدى ، ولم يخطر لنا قط أنك قد تخرج فى مثل هذه البكرة المطلولة ، فحرت ماذا أصنع و . . .

— لعلك لم تقلق أحداً من أجلى ؟

— نعم ، أيقظتهم جميعاً .

— أيقظتهم جميعاً ؟ ولماذا بالله ؟ أترينى طفلا أم أنا هنا سجين ؟

ولم تكن المسكينة تتوقع أن يغضبه سؤالها وإشفاقها عليه ، وأفزعتها نظرته أكثر مما أفزعتها لهجته ، فرمت بعينيها إلى الأرض وأخذت تتمتم :

« لا . . لا ياسيدى . عفوك ! إن هذا بيتك . . . »

— من قال لك إنى فى بيتى يضرب علىّ نطاق من الخدم ؟

— أنا . . . أنا . . . لاذنب لى . لقد أمرتنى سيدتى شوشو قبل أن تنام أن أخبرها . . .

فلم يمهلها حتى تتم كلامها ، وصاح بها وقد تملكه غضب شر مافيه أنه يعلم أن لا داعى له :

« إذا كانت سيدتك هى التى شاءت أن تسد فى وجهى الأبواب ، فسأرحل هذا النهار . نعم لابد من السفر ، فلست أنوى أن أعصب رأسى وأسدل على وجهى قناعاً ! »

ودفع باب غرفته بعنف ، ودخل وهو يتمتم بصوت يزيده تهدجاً شعوره بأنه مخطىء فى غضبه ، وأنه تهور بلا مسوغ . وشرع يعد حقيبته ويفكر فى القيود التى تحيط بالمرء فى الريف ، ونسى أن للمدن أيضاً قيودها .

ولم يكن صاحبنا إبرهيم قد بلغ سن الفلسفة ، أو إن شئت فقل سن التبلد أو الحزم أو ما تحب غيرهما ، وإن كان بطبعه لا طياشاً ولا قليل التؤدة . وكان من ذلك الطـراز الذى نستطيع أن نقول إن الله وهبه كل شيء ، إلا القدرة على الانتفاع بالحياة والتوفيق فى الدنيا ، وإن يكن أشبه بالنساء فى المرونة وسرعة التكيف . وكان عظيم الاعتداد بنفسه شديد الاعتماد عليها ولكن من غير أن يشوب ذلك الكبرياء والتقحم على الناس . وفيه أنفة كثيراً ما كانت تبلغ درجة البلاهة . وقد غلب عليه «الكاتب» وصار لقباً له وعلماً عليه كما حدث لعبد الحميد من قبله بقرون طويلات المدد . ولم تكن مزيته الابتكار أو العمق بل أنه ما من فكرة يتناولها إلا وسعه أن يجلوها فى أحسن معرض، وإلا استطاع — إذا لم تكن مما ابتكر — أن يضيف إليها ويزيد عليها ما ليس دونها . على أن أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية الحساسة المتوقدة . وكان دأبه أن يدور بعينه فى نفسه ليطلع على كل ما فيها ، وأن يجيلها فيما هو خارج عنها ليحيط بكل ماوراءها، ولكنه قلما رأى شيئاً خارجها إلا من خلالها . وكان على قوة طبعه شديد الحياء كثير الحذر ولاسيما مع النساء اللواتى لم يألف من مجالسهن إلا العائلية ، ولم يكن احترامه لهن كبيراً وإن كان على ذلك لا يحتقرهن . وعنده أن المرأة أداة لبقاء النوع ، وأن جمالها ليس إلا شركا تنصبه الحياة ويحسن كثيراً أن يجتنب ؛ وأن الرجل أجمل من المرأة على العموم ، لأن جمال الرجل الجميل لا يستمد أكثر فتنته — كجمال المرأة — من الغريزة النوعية : وكان سلوكه إزاء المرأة مظهراً لرأيه فيها — ونعنى أنه كان يعدها مخلوقا جديراً بالعطف والمداعبة فى غير ضعف وبدون أن يمنع ذلك أن تحكمها دائماً وتلزمها طاعتك .

ومن سخر الأقدار أن هذه الطبيعة القوية المتمردة إلى حد كبير تكون

فى جسم ضئيل هزيل لايحتمل شيئاً ! فقد كان صاحبنا قصيراً ضامر الجسم دقيق العظام واهى التركيب، وليس فيه شيء ينم على هذه القوة التى انطوى عليها إلا وجهه ، أو بعبارة أدق جبهته الواسعة العريضة المتألقة ، وعيناه الواسعتان الحادتان ، وهامته المستطيلة القوية ، وأنفه الكبير الأقنى ، وشفته المقوسة الغليظة بعض الغلظ . على أن قوته تنحصر على الأكثر فى جبهته وعينيه . ولم يكن يخفى عليه هذا السر ، فكان يبلغ بنظرة يسددها مالا يبلغه الرجل الضخم بالعصى فى يده . ولكنه كان على ذلك رضىّ الطباع ، دمث الأخلاق ، سريع الفىء إلى الرضى .

ودخلت عليه شوشو وهو لا يحسها ، ووقفت خلفه وهو مشتغل بنزع غطاء حقيبته ، ووضعت كفيها على عينيه ، فأمسك بهما ونزعهما عنه برفق وقال :

— آه . شوشو ! .

— نعم أنا شوشو . من كنت تحسبنى ؟

فاحمرّ وجهه الأسمر قليلا وابتسم .

وكانت لآخر عهده بها قبل عام طفلة فألفاها فى هذه اللقية امرأة بارعة الشكل ممشوقة القد ، تغترف العين بشارتها وترتاح النفس إلى نضارتها : سوداء العينين عميقتهما ، ذهبية الشعر ترسله أمواجاً على كتفيها ، بيضاء مشرقة ، حمراء الخدين قرمزية الشفتين لينتهما : عينها نار ، ولحظها حب ، وصوتها تغريد ، وقوامها أتم ما يكون استواء وصحة وعزماً ونشاطاً ، وحركتها مملوءة ظرفاً ورشاقة ، رقيقة كأنها النسيم ، جليلة كأنها ملكة ، ذائبة حيناً ، متدللة متجبرة أحياناً ، ساخرة طوراً ، وطوراً ساذجة غريرة ، جميلة فى كل حال . وقالت وهى تتعمد أن تتجاهل معنى ما يفعل :

— دعنى أخرج لك ما تريد من الثياب . إن هذا عمل النساء لا الرجال .

اصعد أنت إلى فوق فإنهم ينتظرونك ليفطروا معك وسأعد لك كل شيء »

— ولكنك لا تعرفين ماذا أبغي ؟.

— أعرف كل شيء ! وماذا تستطيع أنت أن تعرف أكثر مني ؟ إنك كالطفل الصغير يحتاج حتى إلى من يلبسه الجورب !.

فلم يدر أعرفت وتجاهلت أم هي لا تعلم شيئاً مما حدث ، وكانت نفسه قد سكنت فآثر أن يطوي الأمر ، وبدا له أن هذا خير ما يمكن أن يصنع ، وقال مغالطاً : « ولكني لا أعرف من أين أصعد » .

— إذن لنبدأ بالصعود وبعد ذلك نعود إلى هذه الحقيبة .. أليس كذلك ؟

— نعم .

— هيّا إذن .

ووضعت كفها على كتفه اليمنى وجعلت تطفر إلى جانبه وتتواثب كالفرشة .

الفصل الثالث

(كل لتكون فيك قوة إذ تسير فى الطريق...)

صعد إبرهيم وشوشو — أم ترى ينبغى أن نقول شوشو وإبرهيم ؟ — إلى غرفة الطعام فألفياحول المائدة «نجية» كبرى أخوات شوشو، وابنيها. وهى سيدة جميلة الوجه ، ولكنها ضخمة الجسم مترهلة اللحم ، ذات معدة — وما لنا لانقول «كرشاً ؟» — تمشى أمامها ، ولها إيمان راسخ بالمشائين فى الظلام ، ونعنى بهم الشياطين والعفاريت والأرواح ، وبأولياء الله الصالحين ، غير أن إيمانها بأولئك أقوى وأعمق منه بهؤلاء. وأكثرماتدور أحاديثها وقصصها بالليل عليهم ، وما أقل من لم تقل له «لاشك أنك رأيت عفريتاً . لقد رأيتهم أنا بعينى هذه مرات عديدة فى البيت وحوله. ولكنهم لايؤذونك إلا إذا كلمتهم أو تعرضت لهم».

وللعفاريت معها حادثة لاتكف عن ذكرها كلما عرضت مناسبة. وتلك أنها فيما مضى من الزمن ، وفى مفتتح حياتها مع زوجها ، قامت بالليل إلى حاجتها واستصحبت معها خادمتها فاطمة الزنجية التى عرفتها فى الفصل السابق، فلم تكد تبلغ الحمام حتى سمعت مثل وقع حوافر المعيز صاعدة ونازلة على السلم، وعاثثة فى المطبخ ، فصرخت وعادت تعدو إلى غرفتها . ولكن زوجها أبى أن يصدق أو يلتفت إلى سبب فزعها «فلما أصبحنا وجدنا كل الأطباق التى كانت فى المطبخ مكسرة ، ووجدنا ثلاثة من الغنم ميتة . فهل كسرت الأطباق نفسها ؟ ومع ذلك يأبى ابن عمى (تعنى زوجها) أن يصدق!»

وتضرب بطن يسراها على ظهر يمناها فوق كرشها الكروية ! ومن أجل هذا تعنى قبل الذهاب إلى مخدعها بأن تمر بغرفة بنيها ، ومن تكون فى ضيافتها من أخواتها، وأن تمسح رءوسهم وتتلو آية الكرسى ثم تستودعهم الله وتمضى .

وهى من الطراز المحافظ الذى يستنكر كل جديد ويعده بدعة يجب أن يستغفر الله منها ويعاذ به من شرها . ولزوجها بيت فى رمل الأسكندرية مد إليه أسلاك الكهرباء فاعترضت وقاومت ما استطاعت ، فلما أعياها الأمر وأصر زوجها على الكهرباء أبت كل الإباء أن تدخلها غرفة نومها ! فرأى زوجها أن يرضيها بهذه التضحية الصغيرة . ولايزال البيت تضيئه الكهرباء إلا هذه الغرفة التى بقيت كأنها قطعة متلكئة من الزمن الغابر . وجهز زوجها الحمام بالأدوات الحديثة فأغضبها منه هذا ، وأصرت على الاستحمام فى « الطشت » وإهمال الحوض !.

أما التليفون فله فى بيتها بالرمل عشر سنوات ومع ذلك لاتعرف كيف تستعمله، وتقول شوشو عنها إنها تطلب الرقم هكذا « ٩ الرمل١٥ » بدلا من الرمل ١٥٩ مثلا !

ومقياس الصحة عندها مقدار مايصيبه المرء من الطعام، فأصح الناس من يلتهمه التهاماً ويأتى على ما أمامه كأنه لن يصيب رزقه غداً . بل قيمة المرء رهن بذلك ، فأحق الناس بالإكبار الأكول البطين . أما من يأكل بقدر أو لايأكل حتى يجوع فهو طفل لم يكبر ولم يشب عن الطوق ولو جلله الشيب وقوست قناته السنون أو الحادثات . وأثمن ماتهديه من النصائح إلى المريض أو الضعيف أو الحزين أن « كل ثم كل ثم كل ! » هذا عندها الدواء من الحمى والمغص والصداع الخ . ولاتصدق الأطباء فإنهم يميتون الناس قبل أن تفرغ آجالهم ! وما بعجيب بعد ذلك أن يصغر فى عينها صاحبنا إبرهيم

وإن كان قد ناهز الثامنة والعشرين وماتت له زوجة وبنون لم يعش منهم إلا واحد.

وجعلت تسأله على الطعام عن صحته، وعن العملية الجراحية التي أجريت له وكيف احتمل الكلوروفورم — أو البنج كما تعرفه — وعن المستشفى الذي أقام به حتى شفي وتقول: ياابن خالتي! كيف رضيت بالبنج؟.

فيقول: «وهل كان من الممكن أن أحتمل العملية بغير ذلك؟»

فتهز رأسها غير مصدقة، وتسأل: «وهل كانت هذه العملية ضرورية؟ لقد لبثت لا أنام مذ علمت بخبرها، حتى طمأنني ابن عمي وأنبأني أنك خرجت من المستشفى، ومع ذلك لم أطمئن تماماً إلا بعد أن علمت أنك آت إلينا. وكيف صحتك الآن؟»

— كما ترين، حسنة.

— لقد كان دخولك المستشفى حماقة! فكر! إن المستشفى كالمجزرة، ولا بد أنه مملوء بالعفاريت.

— لا. لا. لا عفاريت ولا...

— كيف يمكن؟ الدم... والذين يموتون فيه. إن بيتنا هذا جديد، ومع ذلك فيه عفاريت. ولو كان زوجي هنا لقص عليك كيف تطلع وتنزل كالمعيز على السلم الخشبي...

فقاطعتها شوشو قائلة:

— إن ابن خالتي ينام وحده في ذلك الجناح، ولا يحسن أن يعرف هذه الحكاية التي سمعناها مائة مرة.

فقال إبرهيم: «دعيها ياشوشو تقصها، فإن سير العفاريت لا تفزعني، ولكم تمنيت أن يظهر لي عفريت! ولكم سرت عمداً بين المقابر في الظلام الحالك، آملا أن أرى واحداً»

فصاحت به نجية : « ماذا تقول ؟ أمجنون أنت ؟ »

فلم يغضب إبرهيم لأنه كان أعرف بها من أن يثيره كلامها ، ولم يزد على أن قال لها :

— وما الضرر ؟

— الضرر ؟ احذر أن تصنع هذا هنا ! لقد كان أحمد خادمنا عائداً على حماره من المحطة فى بعض الليالى ، فلما دنا من البيت وقف الحمار بغتة ، ونشر أذنيه وأدار رأسه ، ونظر أحمد فإذا الطريق قد سده مارد ، ولكن الله ألهمه أن يتلو آيات من كتاب الله ، وأن يستحث الحمار فنجا ولم يكد . فحاذر أن تخرج فى الليل وحدك ! إنك لست فى مصر ، ولا آمن عليك إن خرجت ، وسآمر الخدم أن يخبرونى كلما هممت بذلك ! يجب أن تعود سليما إلى بيتك .

* * *

وكانوا قد فرغوا من الطعام ، فمضت به شوشو إلى غرفة أخرى ، وجلست إلى جانبه تستخبره عن المستشفى ، وكيف كان يقضى لياليه فيها ؟ ومن كان يؤنسه فى وحدته ؟ وكان يوجز ما استطاع فى أجوبته ، وتأبى هى إلا الإطناب وتلح فيه :

— قل لى . قل بالله (وأحاطت عنقه بذراعها اليمنى) أكنت تقضى الليل كله وحدك ؟

— نعم .

— ألا يجالسك أحد ؟

— الزوار .

— وإذا لم يزرك أحد ؟

— أنا أحب الوحدة .

— ولكن هبني كنت مكانك . فأنا لا أحب الوحدة ولا أطيقها .
— هناك الممرضات .
— آه . أهن شابات أم عجائز ؟
— لا أعرف إلا المستشفى الذى كنت فيه .
— حدثني عنه إذن ! لماذا لاتتكلم ! إن هذه ليست عادتك ؟ أهناك شيء لايصح أن أعرفه !
— كلا .
— إذن لماذا تأبى الكلام عن المستشفى ؟
— لأنها ذكرى . . . تؤلمنى .
— هذا صحيح ! ولكنك جدير بأن تحمد الله على شفائك مع ذلك ؟
فصمت قليلا وقال وهو مطرق : « لا أدرى ! »

فاعتدلت ونظرت إليه بعينيها السوداوين العميقتين ، ووضعت يمناها على جبينه ، ورفعت رأسه وسألته : « كيف لاتدرى ؟ لست أفهم ! »

فقال وجفنه مرخى ، ونظرته إلى الأرض ، وأصبعه ينفض السيجارة .
— شوشو ! اسمعى ! إنك لاتزالين صغيرة .
— كلا ! لست صغيرة ! أنا أطول منك . أما ترى .

ونهضت ورفعت أطراف كفيها إلى كتفيها ، وعيناها إلى صدرها ، ثم هوت بيديها إلى ركبتيها ووضعتهما عليهما ، وانحنت إليه ، وحدقت فى وجهه باسمة ، وهمت بالكلام ، ولكن هيئته صدتها ، فأسرعت إلى مكانها بجانبه وجذبته من كتفه وقالت :

— مالك ؟ قل لى!
فقال وهو منحن إلى الأرض :
— لاشيء ! اطمئنى ! كل شيء . . .

— كل ماذا ؟

فنهض ومضى إلى النافذة ويداه فى جيبى معطفه، وجعل ينظر من خلال الزجاج دون أن يرى شيئاً ، ولحقت به ووقفت إلى يساره هنيهة ، فلما لم يلتفت إليها طوقته بذراعيها وقالت وهى تجذبه إليها جذبة بعد كل كلمة :

— إبرهيم ! ابن خالتى ! مالك ! تكلم ! لست أفهم !

— ربما كان خيراً لك ألا تفهمى .

فأدارت إليه وجهها وقالت :

— ولكنى لا أستطيع أن أراك هكذا ! ألست بنت خالتك ؟ أم أنت تستصغرنى ؟

— كلا ياشوشو .

— قل لى إذن ولا تدعنى أتألم من أجلك هكذا بسبب جهلى مايؤلمك .

— ماذا أقول ؟ لقد دخلت المستشفى لأتداوى من مرض فشفيت . ولكنى خرجت بمرض جديد شر مافيه أنه لاطبيب له . إلا . . .

— إلا من ؟ قل أسرع !

— لا أقوى على أكثر من هذا ياشوشو . بل أقول إنى ما أتيت إلى هنا إلا لأتداوى ولكن بلا جدوى على ما يظهر .

فجرى ببال شوشو خاطر لمحت إليه ومنعها الحياء والأدب والمحافظة على كرامة ابن خالتها أن تفصح عنه وجعلت تتمتم :

— أ . أ سامحنى ولكن ألأنت فى حاجة إلى . . ما . . .

فالتفت إليها بسرعة وقد أدرك غرضها ولم يدعها تتم الكلمة وصاح وقد فاضت نفسه بالإحساس المكتوم .

— يا بلهاء ! —

وانطلق هاربا من الغرفة . وخلفها واقفة مبهوتة واجمة تحملق فى أثره وفمها مفتوح من الدهشة حتى كأنما أحالها بصيحته هذه تمثالا للبلاهة .

الفصل الرابع

« إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال
اذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان ... »

قبل أن نتقدم خطوة أخرى فى هذا التاريخ — أو فى هذه الفترة من حياة صاحبنا إبرهيم — نكر راجعين بالقارىء بضعة أسابيع لنجلو ماعساه يكون مشكلا مما أسلفنا قصه فى الفصل السابق. وهى أوبة تردنا إلى أيام عشرة قضاها فى مستشفى لاحاجة بنا إلى اسمه إذ كنا لن نعود إليه مرة ثانية، وكانت طلبتنا عنده قد زايلته. وكان كبير الأطباء صديقاً لإبرهيم فأوصى به الخدم والممرضات، وأطلق له الحرية فى استقبال الزوار، وأمرهم أن يتوخوا فى ذلك مرضاته. وكان هذا شرط إبرهيم لما ألح عليه الطبيب أن يجرى له العملية، فقبله واكتفى بأن ينبهه إلى وجوب الإقلال من تقبل الزيارات فى الأيام الأولى على الأقل.

وفى صباح اليوم المضروب للعملية ذهب إبرهيم وحده إلى المستشفى دون أن يخبر أمه أو ابنه... وهما كل أهل بيته إذا أسقطنا الخدم — كأنه ماض إلى عمله، وتقدم إلى غرفة الجراحة بجأش رابط ونفس — لا نقول مطمئنة لكنا نقول غير مكترثة لما عساه أن يكون. ومع أن الطبيب احتاج أن ينشقه مقداراً كبيراً من الكلوروفورم، فإنه لم يكد يغسل يديه حتى كان إبرهيم قد فتح عينيه وأفاق إلى حد كبير، فحملوه وهو متنبه ووضعوه فى سريره وتركوا إلى جانبه ممرضة تعنى به، فلبث نحو ساعة لا يتحرك ولا يتكلم ولا يصنع أكثر من أن يدير عينيه فى السقف والجدران أو يرفع

يديه من حين إلى حين ويمسح جبينه لغرض واحد هو أن يثبت لمرضته أنه مفيق . وهى تحدجه بنظرها ولا تكاد تحول لحظها عنه كأنما تعجب لجلده . ثم لفت وجهه فجأة وقال : « ما اسمك ؟ » ولم يكن ذلك منه التفات سائل عادى بل كان أشبه بحركة متوجع .

ويظهر أن هذا آخر ما كانت تنتظر أن يسألها عنه ، فلم تجد الجواب حاضراً وتلعثمت وهى تخبره أن اسمها « مارى » وحول وجهه عنها قبل أن تنطق وعاد إلى صمته . وكأنما توهمت أنه لم يسمع وخشيت أن يسوءه حسبانه أنها لم تجب أو كأنما ملت طول الصمت الذى ألزمها إياه — والصمت أشق على النساء منه على الرجال — فمالت إليه وحنت عليه وكفاها على السرير لتعتمد عليه وقالت :

— أقول إن اسمى مارى .

فتصلبت عضلات وجهه وانزوى ما بين عينيه وتضاغطت شفتاه هنيهة قبل أن يقول لها : « نعم سمعت . . . أرجو ألا تضعى يدك على الفراش فيتحرك . . . مؤقتاً على الأقل . . . »

فرفعت يديها بسرعة عن السرير وقد أدركت أن صمته تجلد وأنه يكابد من الألم ما يود أن يكتمه لسبب ما ، ونهضت وقد حدثتها نفسها أن خير ما تحسن به اليه هو أن تدعه وحده . وفطن هو أيضاً إلى ما خطر لها فأومأ إليها بعينيه فعادت إلى كرسيها فقال :

— هل تعلمين أن أهلى يجهلون أنى هنا ؟ .

— كلا !

وبدا عليها شىء من الدهشة فلم تدر ماذا تقول أكثر من « كلا » ومضى هو فى كلامه فقال :

— أرجو أن تغتفرى لى ما أنا قائل . إن وجودك معى الآن على الأقل

لا يكاد يجدينى . وأنت فى الخارج أنفع لى منك هنا . كم الساعة الآن ؟
— التاسعة والربع .
— لا يزال إذن فى الوقت فسحة . إن أخى على موعد معى هنا . وهو لا يعرف شيئاً مما حدث ولا يتوقعه . وكل ما أطلعته عليه هو أنى سأعرض نفسى على الدكتور . . . وأنى أحب أن يكون معى . وسيحضر بعد قليل . والآن افتحى الدولاب وناولينى الورقة التى فى الجيب الأيمن من سترتى ... أشكرك ... متى جاء أخى فأطلعيه على الحقيقة وهونى عليه الأمر مااستطعت، وإذا طلب أن يرانى فقولى له إنى نائم — فإنى أخشى أن يكثر من الأسئلة الفارغة البلهاء . وأكدى له أنى كتبت هذه الورقة بعد أن أفقت من العملية وزال عنى ألمها وذلك ليطمئن قلبه — إنها كذبة ولكن الكذب يكون فى بعض الأوقات ضرورياً واطلبى منه أن يعمل بما فى الورقة حرفياً . . أحسبنى تكلمت أكثر مما يلزم فهل أستطيع أن اعتمد على ذكائك وحسن تصرفك ؟

فطمأنته وأكدت له أنها ستؤدى الرسالة كما يجب أن تؤدى وسألته قبل أن تنصرف أله حاجة أخرى :

— نعم أن تعودى قبل خروجه وتخبرينى بما فعلت . ويمكنك أن تقولى له إنك آتية لترى أنائم أنا أم مستيقظ . وهذا من قبيل الاحتياط حتى أستطيع أن أصلح ما عساه يقع من الخطأ وحتى أتوقى مالا أود حدوثه .

— ٢ —

وجرى كل شىء على مارسم : زيارات قليلة قصيرة يؤديها له أهله وخاصة خلصائه ، ووحدة طويلة تتخللها فترات جعلت تطول شيئاً فشيئاً تؤنسه فيها مارى بمحضرها وحديثها . فنشأت بينهما ألفة وعلم منها أنها سورية الأصل وأنها تعلمت فى إحدى مدارس الراهبات فى سورية ثم تزوجت

شاباً إيطالياً جاء بها الأسكندرية، ولبثت معه ثلاث سنين قضى نحبه بعدها وخلف لها طفلا، فزاولت الحياكة أولا ثم التمريض وها هي ذي إلى جانبه .

ومن العسير أن يصف المرء « ماري » هذه وصفاً دقيقاً . ولعل من المستحيل أن يستطيع المرء وصف إنسان ما على وجه الدقة . ولكن من الممكن أن نقول ـ ومن الممكن أن يصدق القارىء ـ إن « ماري » كانت تبدو فى بعض الأحيان جميلة ، وفى البعض غير جميلة ، تبعاً لحالتها الصحية والنفسية . وندع هذا مع ذلك ونقول عن مظهرها الجثمانى إنها ذات وجه ناطق دقيق المعارف ، وإن لونها أقرب إلى الشحوب ، وإنها ضامرة الجسم ، وإن من يراها يخيل اليه أنها ظمأى كالعود من الزهر انقطع عنه الماء ، وإنها لو سقيت هذا الشراب ، الذى تقرأ فى عينيها ولونها التياحها إليه لربت واهتزت . والمرء يستشف فى وجهها النزوع إلى انتظار رأيك قبل أن تفضى إليك برأيها ـ وإلى انتظار عملك أيضاً على الأرجح قبل أن تقدم هى على عمل . ومما أكد هذه النزعة فيها ، مزاولتها مهنة التمريض . والمستشفى ـ كما يسهل أن يدرك القارىء ـ أشبه ببقعة معزولة عن العالم ، أو منتزعة من أحشائه ، يكون فيه التفكير أكثر من العمل ، والقلق والملال أكثر من التفكير ، ولا يجرى التفكير فيه ، حين يجرى ، إلا فى دائرة ضيقة ، وقلما يؤدى إلا إلى نتائج خيالية . ولكنه على ذلك مسرح تمثل عليه روايات تدانى فى جلالها واتساقها ووحدتها أحياناً ، خارجيات سفوكليس وشكسبير ، ويساعد على إكسابها هذه المزايا ، تركز العواطف وشدة توقف بعض الحيوات على بعض .

وقد خلق إبرهيم عطوفاً أليفاً ، سريع الإحساس بالجمال ، ليس أقوى فى نفسه من عواطف الأدب والحب ، وخلقت ماري سمحة النفس ريضة الطباع ، حساسة كالوتر المشدود ، وشاءت المقادير أن يتشابها فيما وقع لهما :

فهو فقد زوجته وهي فقدت بعلها . وكل من الفقيدين خلف وراءه طفلا ، وفى كلتا النفسين ذلك الحنين المخنوق الذى خلفه موت الفقيد ، ولم تجد الحياة بما يطفئه أو يسكن لاعجه . وكان إبرهيم ، على حياته ، لايكاد يألف إنساناً حتى يفتح له قلبه ، ويرسل معه نفسه على سجيتها ، وقل أن يتبسط لأول وهلة ولكنه كان صاحب فكاهة وعبث ، وما عرفته امرأة إلا أعجبها منه مافيه من الدعابة ، والفكاهة من أقصر الطرق إلى قلوب النساء ، فلم تمض إلا خمسة أيام حتى كان إبرهيم قد علق مارى ، ومارى قد شغفت بإبرهيم ، وحتى صارت غرفة المستشفى فردوس عاشقين ، ـ إذا صدقت الظواهر ـ وما أكثر ما تلاقت شفاههما فى قبلات فرحة فى ذلك الفردوس المزوى ، الذى يحسبه الناس مستشفى فحسب !

واستمرت العلاقة بينهما بعد أن بارح المستشفى إلى بيته ، وكثرت المحادثات بينهما بالتليفون والمقابلات . غير أن الإرادة التى وهنت مع المرض ، عادت مع الصحة ، ففطن إبرهيم إلى مافى علاقتهما من الحرج ، وأدرك أن الأمر يوشك أن ينقلب مشكلا . ورأى أنه لايستطيع أن يرضاها زوجة ، وإنها تطمع فيما هو أسمى من مرتبة الخليلة ، وهبها لم تطمع فإن ذلك لا يحل مشكل حياته ، ولا ينيله مأربه ، ولا يبلغه مايتمنى من السكون إلى الحب المنزلى الذى لايعدل به شيئاً . فخطر له أن ينأى عن القاهرة زمناً عسى أن تطيب نفسه عنها ، وأن تروض هى نفسها على بعده . ولما لم يهده التفكير إلى خير من ذلك ، صمم عليه وشرع فى إمضاء هذا العزم من توه .

والتقيا ليلة سفره وتنزها قليلا ولما آن أن يفترقا سألته : «متى نلتقى غداً ؟»

— ليس غداً .

فقالت وهى تبتسم ولا تدرى ماعقد النية عليه : «ماذا يشغلك عنى غداً

يابرامينو ؟» وكان برامينو» اسمه عندها تناديه به حين تداعبه . فأجابها وهو يتكلف الابتسام :

— يشغلنى أنى مسافر .

— مسافر ؟ ؟ كيفَ هذا ؟ وإلى أين ؟

— أوه ! لا إلى مكان معين . سأتنقل من بلدة إلى بلدة . ومن قرية إلى أخرى ثم أعود فيما أرجو .

— وماداعى ذلك ؟ متى عزمت عليه ؟

— لاداعى له إلا أن دكتورك أمرنى به وألح على فيه .

فزاد لونها شحوبا وأظلم وجهها وأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها وحدقت فى عينيه وقالت :

— إنها أرادتك أنت لا مشورة الدكتور ! لا تمار ! إنى أعرفك !

فلم يزد على أن ابتسم ابتسامة من يستنكف أن يكابر ولا يكترث لما تظن به ، فسال ماتجمد فى نظرها ولانت عضلات وجهها وبدا فيه الضعف ، وأمسكت بكتفه وقالت وهى تهزه ولا تعبأ بمن عسى أن يراهما من الناس :

— لا لا ! لا تذهب ! قل إنك باق !

فرفع كفيها عنه فى رفق وقال بلهجة من يريد أن يطمئنها وإن لم يكن فى كلامه مايعين على ذلك :

— ولكن هذا مستحيل ياماري ! لقد أبرقت إلى بعض أقاربى أنبئهم باعتزامى السفر غداً وأطلب أن يرسلوا من ينتظرنى .

— أبرق إليهم مرة أخرى بعكس ذلك .

فهز كتفيه وقال :

— وما الفائدة ؟ سأسافر بعد غد إن لم أسافر غداً ! فالرحلة لا بد منها على كل حال .

وهم أن يدعوها إلى التمشي قليلا ليسرى ، عنها غير أنه عاد فرأى أن الأحزم والأجدى أن ينتهى الوداع حيث هما . فاكتفى بأن يهون الأمر عليها — وعلى نفسه أيضاً — ببضع كلمات ، ثم ربت لها ذقنها بأطراف أصابعه وسلم ، فقالت بعد أن تلفتت يميناً ويساراً كأنما كانت تحدثها نفسها باختلاس ضمة : «ياله من حلم قصير !»

وكان قد خلى يدها ونأى خطوة فقال :

«لا لا ! لاتقولى هذا ياماري ! لو كنت ممن يتشاءمون لما حسن وقع ذلك فى نفسى قبيل سفرى !»

فنبهها ذلك فدنت منه وأقبلت عليه تؤكد له أنهما سيلتقيان .

أما هو فسلم مرة أخرى وشور لها بيده وهو يبتسم ولم يجب !

الفصل الخامس

« قلت أكون حكيما أما هى فبعيدة عنى »

رجع بنا الحديث إلى الريف . . .

بعد أن انطلق إبرهيم من الغرفة التى كان فيها مع شوشو وخرج منها مارقا كالسهم ، انحدر مسرعا إلى غرفة نومه واستلق برهة على « كنبة » فيها وأغمض عينيه كالذى يريد أن ينام ، وما به نوم ، فكر أمام مخيلته كل ماوقع له مع « مارى » مما قصصناه وما لم نقصصه فى الفصل السابق ، فعاوده الحنين إليها والأسف على فراقها والألم لما خلفه لها ، ولم يكن إبرهيم ممن يحبون أن يخدعوا نفوسهم وينحلوها من المزايا ما عطلت منه ، وكان يؤثر أن يغمط نفسه وأن يعدها مجردة من كل ما يجعله حبيباً إلى النساء موموقاً منهن ، ولعل سبب ذلك أنه كان أحس بالجمال ، وأحسن تقديراً له ، وأشد شعوراً بمواطن الضعف فى نفسه ، وأفطن لعيوبه من أن يتأتى له أن يغضى عن هذه العيوب وألا يكترث لها ، أو أن ينحيها عن عينيه ولا يدعها تبرز وتحجب مزاياه . ولذلك لم يلبث أن راح يتصور « مارى » متلهية عنه بكل ما يعدها صباها وجمالها له . ومن هو إبرهيم حتى تشغل نفسها به وتشيح بوجهها عن الدنيا من أجله ؟ ؟ إن صباها الذى ألقت بها حرارته بين ذراعيه خليق أن يلقى بها بين ذراعى سواه ، ولن تعدم رجلا يكون أفتن منه وأوفى أيضاً ! وأى حق له عليها بعد أن آثر أن يطرحها ويفر منها على هذه الصورة ولا يترك لها حتى عنوانه ؟ ؟ وهكذا ظل يحمل على نفسه حتى آلمها فنهض وقد ضاق صدره وفتح النافذة لتتخلص أنفاسه قليلا ، وكانت نافذته تطل

على فناء خلفى رحيب، بعضه — وأكثره — بستان زهر وشجر باسق، وبعضه بيوت للدجاج والأوز والحمام والأرانب وغيرها، وحوله سور أسفله مبنى بالآجر وأعلاه مصنوع من قوائم من الحديد مغطاة من الداخل بالحصير، ليحجب من يكون فى الداخل عن عيون المارة. وفى الجنوب باب للخدم وقد يدخل منه الزوار من النساء أحياناً إذا شئن، وكذلك من الرجال الذين يمتون إلى أهل هذا البيت بصلة من قرابة أو مصاهرة. ورأى إبرهيم الخدم يدخلون ويخرجون، وحديد الباب يلمع فى ضوء الشمس فأدرك أن دهانه جديد، وراقه أن يراقب الداخلين والخارجين وما يصنعون إذ يفتحون الباب أو يغلقونه، ومبلغ التفاتهم إلى الدهان، وعنايتهم باتقاء تلويثه لأيديهم أو ثيابهم. فلم يجد الرجال — وكانوا قليلين على كل حال — يتفاوتون تفاوتاً يذكر، وكان كل منهم يدفع الباب برجله فيفتحه ويدخل ثم يعود فيدفعه من الداخل أيضاً. أما النساء فكن أكثر اختلافاً: جاءت أولاهن — أو أولى من أبصر منهن — فى ثوبها الأسود الذى يكنس الأرض وراءها وذراعاها مثنيتان إلى صدرها وعموديتان عليه، وكفاها مفتوحتان كأنما تريد أن تتقى بهما شيئاً، فلما بلغت الباب دفعته براحتيها ودخلت وكأنما أحست أن شيئاً لصق بهما فنظرت إليهما وصاحت «يوه» ووقفت مكانها حائرة، ثم كأنها لم تدر ماذا تصنع فجعلت تتلفت يمنة ويسرة ومضت إلى أقرب رجل أخذته عينها لتستشيره على الأرجح ولم تصوب نظرها مرة واحدة إلى ثوبها لترى ماذا أصابه! وبعد قليل جاءت أخرى وعلى رأسها سلة مغطاة فلما بلغت الباب منحته جنبها ودفعته بكتفها، ودخلت مطمئنة غافلة عن الخطوط وأنصاف الدوائر التى ارتسمت على ذراعها مما يلى الكتف! فرفهت هذه المناظر وأمثالها عن نفس إبرهيم، وانبسطت أسارير وجهه ولمعت فى عينيه ابتسامة خفيفة. وإنه لمشرف على هذه الصور وإذا بصوت من ورائه يقول: «خالى! شوشو تسأل عنك!» وكان المتكلم محمد بن نجية. وهو وأخته يدعوانه خالها

اختصاراً ، فالتفت إليه كالمفيق من حلم أو كأنما كان قد توهم وهو مطل من النافذة أنه مشرف من السحاب ، فلما سمع الصوت الذى يناديه أحس كأنما هبط إلى الأرض . ولكنه إحساس لم يطل، فتناول الصبى ورفعه إليه وطبع على فمه قبلة أبوية وسأله : «أين هى ؟» فقال الغلام : « فى غرفة الاستقبال » ويظهر أن إبرهيم استغرب هذا فصمت قليلا كأنه يفكر ثم قال : « حسن قل لها إنى هنا لا أصنع شيئاً . فلتأت إذا شاءت » .

فخرج الغلام يعدو ، ومشى إبرهيم إلى السرير ووقف معتمداً بظهره عليه . وكان دقيق الملاحظة كثير التفكير فى كل ما يرى أو يسمع ، ومن عادته إذا خلا بنفسه ولم يرغب فى المطالعة أن يدع خياله يرسم له مناظر ومواقف وينشىء محاورات وأحاديث . فجعل يفكر فى قول الصبى إن شوشو فى غرفة الاستقبال : فى غرفة الاستقبال ؟ لقد تركها هناك ! فهل تراها لم تبارحها . وكم دقيقة أو ساعة مضت عليها مذ غادرها ؟ وامتدت يده إلى جيبه مدفوعة بحركة لدنية وأخرجت الساعة ، وتأملها ولكنه لم يقرأ فيها شيئاً بل ابتسم إذ تذكر أنه لم ينظر إلى الساعة حين غادر شوشو فلا يستطيع أن يعرف كم لبثت فى هذه الغرفة . ولكن لماذا تبقى فى الغرفة وحدها ولا تزايلها ؟ ما أغرب أمر هذه الفتاة ! أتراها ساءها ما بدر منه ؟ ربما ! بل لا شك فى ذلك فإنها فتاة متعلمة مهذبة ولا بد أن يكون قوله لها « يا بلهاء » قد حز فى نفسها ، وانطلق يلوم نفسه ويعنفها ويستهجن شكاسة طبعه .

ودخلت شوشو تنساب كالماء فتقدم إليها باسطاً كلتا يديه وقال :

— أعتذر اليك يا شوشو ! سامحينى ! لقد أسأت إليك وكان ذلك سوء أدب منى بلا ريب . فهلا تغفرين ؟ .

فتناولت كفيه فى كفيها وجذبتهما إليها وفى عينيها نور البشر ، وحول

وجهها كالهالة ، وقالت وأمالت رأسها إلى كتفها اليسرى : « تعتذر إلى ؟مم بالله ؟ هيه ؟ تعال هنا ، ومضت به إلى الكنبة : «قل لى ماذا كنت تصنع وحدك هنا ! أتراك جئت لتقضى الوقت كله فى هذه الغرفة ؟ اسمع ! سأغلقها بيدى بعد أن تستيقظ من النوم وأحفظ مفتاحها معى ولا أسمح لك بدخولها إلا وقت النوم ، أفهمت ؟ »

فأعداه بشرها وقال وقد شاع فى كيانه السرور : « فهمت وسمعت وأطعت ! والآن ماذا كنت تصنعين أنت فى غرفة الاستقبال وحدك ؟ »

فدفعت رأسها إلى الوراء قليلا وهزتها كما يفعل العصفور بعد أن يشرب وقالت : « أنا ؟ أوه ! لا شىء ! وماذا عسانى أفعل وأختى تأبى إلا أن تعدنى ضيفة ولو أقمت معها العمر كله ! »

وفى هذه اللحظة سمعا صوت عجلات ووقع حوافر خيل،فأصغى إبرهيم أما شوشو فنهضت إلى النافذة وأطلت منها ثم التفتت إلى إبرهيم وهى تقول : « الدكتور ! »

فوقف إبرهيم وقد غاض البشر من وجهه وسألها بلهفة وهو لا يفهم : « دكتور ؟ هل مرض أحد ؟ »

فبادرت إليه وقالت : « لا لا ! إنه الدكتور محمود ... ، قريب ابن عمى (زوج أختها) ألا تعرفه ؟ له عيادة فى البندر ويزورنا من حين إلى حين ، وكلما جاء قريتنا يعود مريضاً . . . والآن سأذهب لأستقبله وأجىء به »

— ليس إلى هنا ؟ وأنا فى هذه الثياب أيضاً ؟

فضحكت وقالت : « لا تخف ! بل فى الغرفة التى أمام غرفتك . . . هذه (وأشارت إليها) أما ثيابك فما لها ؟ انك فى قرية ولا حاجة بك إلى تغييرها » ومضت تعدو . . .

الفصل السادس

— ارجعى ، ارجعى ، ياشولميت ! ارجعى ارجعى . فننظر إليك —

لم يسع إبرهيم إلا أن يطل من النافذة . ولم يكن يعرف هذا الدكتور ولا سمع به ، أو على الأصح لايذكر أنه سمع به ، فقد كانت ذاكرته أشبه بالغربال الواسع الخروق ، وكانت الأسماء أول ماينسى إذا طال غياب أصحابها عنه ، وكثيراً ماكان ذلك يخجله ، وكان ربما التقى باثنين من معارفه لا يعرف أحدهما الآخر فيمنعه نسيان اسم أحدهما ، أو اسميهما جميعاً ، أن يقوم بواجب التعريف ، وكان إذا تحرج الموقف ولم يجد بداً من أداء هذا الواجب ، يلجأ إلى المداعبة ويقول لهما : « إذا شئتما أن تتعارفا فلا اعتراض لى ولكن لاتنتظرا منى معونة ! » . فيتقدم كل منهما للآخر باسمه فى حياء واضطراب ، ويخرج هو بذكر ماكان ناسياً !

ولم يفارقه الوجوم مذ سمع كلمة « الدكتور » تند عن شفتى شوشو ، إما لما تركه توهمه حين نطقت باسمه أن أحداً قد مرض فجأة ، وإن كانت شوشو قد بادرت إلى نفى ذلك وطمأنته ، وإما لأنه لم يرتح على العموم لما ظهر له من أن شوشو تقابل هذا الدكتور وإن كان قريب ابن عمها ، وكان هو — إبرهيم — ليس من دعاة الحجاب ، أو لأنه لم يجد فى الساعات القليلة التى أقامها فى الريف ما كان يتوقع من الإيناس والشواغل ، أو لعله كان لكل من ذلك تأثيره . ومهما يكن من تعليل سهومه فإن الذى حدث هو أنه لم يكد يخرج وجهه من النافذة حتى تراجع وأغلق مصراعيها الزجاجيين كأنما كان هذا ماقصد إليه ، ثم عاد إلى الكنبة ووضع رجلا فوق رجل وأشعل سيجارة .

وفى أثناء ذلك كان الدكتور قد ترجل وترك المركبة فى حراسة أحد الخدم ودخل البيت ، فاستقبلته شوشو فى وسط السلم وصعدت به إلى الغرفه المواجهة لغرفه إبرهيم .

وبعد هنيهة دخلت على إبرهيم فاطمة الزنجية التى كره وجهها وكلامها فى الصباح ، وقالت وهى مطرقة وبها شيء من الوجل :

— تفضل ياسيدى —

فنحى السيجارة عن فمه وأرسل نفخة من دخانها ، وأمال رأسه إلى ناحية السيجارة — وكانت فى يمناه — وقال لها بلهجة مبطنة بالمرارة :

— إلى أين ياستى إن شاء الله ؟

فأحست المسكينة أن حادثة الصباح ستتكرر ، فقالت وهى مضطربة :

— عند ستى شوشو والدكتور .

— ماأسرع مانسيتنى ستك شوشو بدكتورها : أنا أيضاً ضيف كالدكتور ولم أسبقه إلا بساعات .

قال هذا بصوت خفيض وعينه إلى الأرض كأنما كان يحدث نفسه . ثم رفع رأسه إلى الخادمة التى كانت تخالسه النظر وقال :

— ألم تجد ستك شوشو من ترسله غيرك ؟ لماذا لم تحضر بنفسها ؟

— أنا . . . أنا . . . ياسيدى . . .

— أنت تخرجين من هنا . . . (بصوت عال) .

فخرجت المسكينة تتعثر وبودها لو استطاعت أن تحلف ألا تريه وجهها .

أما هو فكان يود أن ينهض ويتمشى فى الغرفة ، ولكن الباب مفتوح وفى وسع من يكون فى الغرفة المقابلة أن يراه ، فظل قاعداً وجعل يتمتم « قبح الله الريف وساكنيه ! . . . لو أنها كانت فتاة من أجلاف الريف لعذرتها . . . ولكنها تعلمت . . . وفى المدارس الفرنسية أيضاً . . . وليست

بالصغيرة على كل حال حتى يغتفر لها ذلك . . . الواقع أن مجيئى إلى هنا كان خطأ . . يجب أن أعود أدراجى أو أن أرحل إلى الأسكندرية فهى من هنا قريبة . . إن أعصابى ضعيفة ولا قبل لى باحتمال هذه الفصول البـاردة . . وأنا بعد لم أحتك بأهل الريف الحقيقيين بل لم أر منهم غير رفيقى من المحطة إلى هنا ، ذاك الميت الحى الذى لم يكفه إسماعيل واحد ولم يرض بأقل من ثلاثة !! وهو مع ذلك وكيل مضيق ! كيف يمكن أن أطيق كل هذا الجهل والجلافة ؟؟ »

وكر به الفكر إلى مارى . . . مارى السمحة المؤدبة الوديعة ، التى كانت تقرأ فى وجهه كل مايدور فى نفسه ، وتسبقه إلى مايطلب ، قبل أن يتحرك لسانه ، مارى التى فر منها بلا سبب ، وحرم نفسه متعة حديثها ، وأنس محضرها ولذاذة حبها ، مارى التى كان إذا خلا بها يجلس على ركبتيها كالطفل ويسند رأسه إلى صدرها ، ويمسح لها وجهها براحته ، وهى تحنو عليه وتقبله ، وهو مغمض العينين ! فنهض فجأة وقال وهو يشير بأصبعه : « كلا ! لابد أن أكتب إليها لتلحق بى فى الأسكندرية . . . »

— من هى ؟

فالتفت فإذا شوشو واقفة فى مدخل الباب ، وذراعاها ممدودتان وكفاها على المصراعين ، وقدها الممشوق بادية معالمه كلها بفضل وقفتها ، وثوبها الصوفى المحبوك . فبهت إبرهيم كما بهت الذى كفر فيما حدثنا الكتاب الكريم ، ولم يدر ماذا يقول أو يفعل . ولم يكن أسهل من التخلص ، ولكن خياله النشيط جسم له الأمر فارتبك ، وبدا ذلك كأجلى ما يكون فى جموده مكانه ، وفى ثبات حملاقه ، وذهول نظرته ، وانفراج شفتيه ، وتصلب يمناه المثنية على صدره .

فزايلت شوشو ابتسامتها وتقدمت إليه وردت مصراعى الباب وراءها

حتى تلامسا ، ووقفت إلى جانبه تحدجه بنظـــرها ، ثم قالت له وتكلفت الابتسام ، وإن كان لونها ممتقعاً :

— ستحرق السيجارة أصابعك إذا لم تنتبه !

وكأنما رد صوتها بعض رشده إليه ، فحنى رأسه وصوب عينيه إلى يده وقال : « نعم أشكرك » وبدا منه مثل حركة من يهم بالقعود ، وإن لم يكن وراءه شيء ؛ فسندته شوشو بذراعيها فأفاق تماماً والتفت وراءه ثم رفع إليها وجهه الشاحب المتهضم وقال : « أشكرك ثانية » فقالت وهي تقسر نفسها على الابتسام ولا تدرى ماذا تهدى إليه :

— من حسن الحظ أن الدكتور هنا ، وأنى أستطيع أن أكون ممرضة عند الحاجة !

فندت عن صدره « آه » قصيرة مثقلة ، كأنها خارجة من صدر رجل طعن وهو نائم .

— يجب أن تجلس . إنك مريض .

وتناولت يده تجسها .

— كلا ! كلا ! لست مريضاً . دعيني .

ولكنه أطاعها وجلس وهو يتأفف ، ويمر يده على وجهه .

— إن الدكتور وحده . . .

— اذهبي إليه . . حقيقة لا يليق أن تدعيه وحده .

— لا أستطيع أن أتركك وحدك . ولكن انتظر . . .

وخرجت مسرعة .

وبعد دقائق عادت وأخبرته أنها صعدت بالدكتور إلى أختها .

ثم قالت :

— والآن أراك أحسن مما كنتُ حين تركتك . ألست كذلك ؟

— نعم أحسن كثيراً .

— إذن قم والبس بذلتك ، فقد كلفتنى حيلتى كذبة . فعليك أن تبيض وجهى .

— أى كذبة ؟

— لقد قلت لها إنك مصر على عدم مقابلة الدكتور إلا فى بذلتك ، كذبة قلتها كسباً للوقت لأنى خفت أن تطول هذه الحالة التى رأيتك عليها . وكلفتنى غير الكذبة شيئاً آخر ، ولكنى سأحاسبك فيما بعد . أما الآن فالبس ثيابك وسأسبقك .

الفصل السابع

« أيتها الجالسة فى الجنات . الأصحاب يسمعون صوتك فأسمعينى » ...

— ١ —

صعد إبرهيم إلى غرفة الاستقبال العائلية التى جلس فيها بعد الإفطار مع شوشو برهة ، فألفى الأسرة مجتمعة فيها : محمد الصغير بن نجية يبكى - أو على الأصح تبكى حنجرته الجديدة دون عينيه - لسبب لاشك أنه يدعو إلى بكاء مثله ، وفى كفه مرآة صغيرة ينظر فيها ، ويظهر أن الغرض من ذلك أن يرى فى صقالها كيف يبدو الوجه الإنسانى حين يبكى حامله ! وكان يكف عن النشيج كلما استوقفه المنظر العام أو لفته منه شىء خاص ، ثم يستأنف الإعوال ! وكانت زينب أخته - أو زوزو كما ألفوا أن يسموها على عادة هذه الأسرة - معتمدة بذراعيها على ظهر كرسى ، ومنحنية عليه وناظرة إلى مقعده ، ومشتغلة بتحريكه إلى الأمام وإلى الوراء ، وأمها نجية تلتفت إليها من حين إلى حين وتزجرها عن هذه الحركة ، خوفاً على الكرسى ، بمثل هذه الأصوات « تؤ . . . تؤ . . . تؤ . . . » ثم تعود وتحول وجهها إلى الدكتور إلى جانبها ولا تنتظر نتيجة زجرها . أما شوشو فلم تكن فى الغرفة ساعة دخلها إبرهيم .

ووقف الدكتور وتقدم خطوات ، ومد يده إلى إبرهيم وتصافحا ، ورفع محمد عينه عن المرآة ونظر بمؤخرها إلى القادم فى سكوت ، ثم أكب عليها ومضى فى عويله الذى يظهر أنه كان يجد فيه نوعا من الإمتاع ، ولكنه لأمر ما هبط بطبق هذه النغمات الى أوطإ مايستطيع . وتخلت زوزو عن الكرسى

وخفت إلى إبرهيم وتمسحت به وهو يسلم على الدكتور ، كما تتمسح القطط بأصحابها . فاحتملها وجلس وأجلسها على ركبته ، فأهوت على عنقه تطوقه وتقبله فى صمت تام وابتسام لم تكد تفوز بمثله من موضع عطفها وحبها حتى انقلب ضحكا عاليا .

ودخلت شوشو فى إثر إبرهيم - كأنما كانت مختبئة تنتظره - فأتأرها الدكتور بنظره وتعلقت عينه بمرونة حركتها إذ تبدو كأن أوصالها ساكنة وهى تنساب كالجدول الرقراق ، وكان قوسا حاجبيها الدقيقين الحادين يختلجان ، وعينها تومض فيها نظرة عجيبة جمعت بين عدم الاكتراث والخبث والدلال والسذاجة ، وكانت شفتاها الرقيقتان تقلدان حاجبيها وتختلجان مثلهما ، وكذلك جانبا أنفها الجميل . وإذا قلنا أنفها الجميل فقد قلنا كثيراً فما أندر الأنوف الجميلة وإن كثرت العيون الفاتنة والشفاه المغرية . وإذا أضفت إلى هذا وذاك خصلا متموجة من الشعر الأصفر ، وثوبا من الصوف داكن الحمرة منسجما على قوامها ، أمكنك أن تكون لنفسك فكرة ولو ضئيلة عن هذه الفتاة التى صارت فى هذه الغرفة كالزهرة بين الخضر !

وتخلى لها الدكتور عن مقعده ، ومضى إلى آخر الغرفة ليأتى بكرسى لنفسه ، فابتسم إبرهيم الذى تظاهر بالتشاغل بمداعبة زوزو — إذ رآه يمشى وأحد كتفيه إلى الامام ورأسه مائل إلى اليسار وذراعاه تضطربان فى الهواء كأنما خلتا من الأعصاب أو كأنهما كان فارغان .

وبعد تبادل التحيات وما هو منها بسبيل ، قالت شوشو وهى تنظر عن عرض إلى إبرهيم ، وكان مطرقا يهمس فى أذن زوزو ، وإن لم يفت عينه ولا أذنه شىء ،

— ماقولك يا دكتور ! اليوم الجمعة وهو يوم راحتك . فاقضه معناهنا

فإن ابن خالتى يمل مجالستنا ويهرب منا دائما إلى غرفته .

فلم يبد على الدكتور كأن هذا يضايقه جداً وقال :

— ولكن . . .

— قل إنك موافق . . . أسرع .

قالتها بلهجة لم يسع الدكتور معها أن يظل لسانه معترضاً على مايوافق عليه قلبه فقال :

— إذا كان الأستاذ (فرفع إبرهيم وجهه ونظر إليه نظرة بلهاء جوفاء) لا يرى فى وجودى مايزيد ميله إلى الهرب فإنى على أتم الاستعداد . . .

— معذرة ياسيدى الدكتور إذا قاطعتك . يظهر أنك لا تعرف أساليب شوشو المحرجة (ضحك مكتوم من شوشو) أؤكد لك أنها لاتعنى ما تقول . . أنا أعرف بها منك .

— بل أعنى كل حرف .

— نعم تعنين أنك تطلبين إلى الدكتور أن يقضى اليوم معنا — أعنى هنا — ولكن الباقى الذى يخصنى ليس سوى عبث منك بى وحدى .

— سله يادكتور بذمته أليس فى عزمه أن يطير إلى الأسكندرية حالا لو أنه يستطيع ؟

فمالت نجية إلى الأمام وحملقت فى وجهه ثم فى وجوههم وقالت :

— يسافر ؟ كيف ؟ وهل أقام شيئاً حتى يفكر فى السفر ؟ —

— سليه يا أختى ! (بخبث) .

فقالت نجية بلهجة من كاد يهتدى إلى السر : « أتراك رأيت . . . »

ولكن شوشو قاطعتها ضاحكة .

« لا لا : إنك لا تنسين عفاريتك قط ! أنا أعرف السبب ! » ، ورمت إلى إبرهيم نظرة .

فقال إبرهيم بصوت اليائس : « ربما » واضطجع فى كرسيه وأطبق شفتيه إطباق من لا ينوى أن يفتحهما مرة ثانية .

وفتر الحديث لأن الدكتور لم يسعه أن يشترك فى هذه المناقشة العائلية ، ولمح أن إبرهيم لا يحب أن يتوسع فيها . ورأت شوشو أن إشارتها إلى ما سمعته عفواً من إبرهيم وهو يحدث نفسه فى غرفته قد أعادت اليه الاكتئاب ، فندمت وصار الكلام متكلفاً متقطعاً .

* ٥ *

— ٢ —

وكان الأفق قد غام وانتشرت سحابة كثيفة واحدة فى مجاليه ، وبدأت تهمى وترسل صفحات متموجة من المطر ترق حيناً وتكثف حيناً آخر . وجعلت الأشجار المغروسة وراء البيت تتوجع كالبؤساء من الرياح التى تعصف بها وتصفر بينها ، ثم طغت الرياح حتى صارت الجذوع الوطيدة تهتز وتروع الناظر إليها بهذه الحركة التى لم تعهد منها ، كما يروعك الرجل القوى حين يبكى ، وراحت الغصون المتدلية تتصعد وتتصوب ، والفروع العالية المستقيمة تتلوى وترنح وتبدو كأنها توشك أن تتقصف ، واضطربت مهاب الرياح وتعددت تياراتها وتعارضت ، حتى صارت الأغصان المتقاربة فى الشجرة الواحدة من هذه الأشجار تميل كل مميل وتتضارب وقد تشتبك ، وجعلت الأوراق ما بين خضراء وصفراء تتطاير عن أعوادها وتتقاذف ثم تسقط فوق الزروع . وأظلمت الدنيا وصار وقع الماء على زجاج النافذة كنقر العصى ، وكانت روعة هذه الثورة قد تركت القوم صامتين برهة ثم قالت شوشو وفى وجهها أمارات الفوز وفى صوتها نبرات السرور .

— الآن يا دكتور لم يبق لك مفر من البقاء !

ونظرت إلى إبرهيم تبتغى تأييده . ولم ينتظر الدكتور هذا التأييد ، فأرسلها ضحكة عالية لم يفهم إبرهيم لها معنى ، ولم يعرف لها داعياً ! وبدا له أن من سوء التقدير أن يضحك المرء وهو محبوس من جراء هذا الجو العاصف ، فأخذ يراقب الدكتور ويحصى عليه حركاته وأنفاسه ، فخيل له ـ ولعله غير مخطىء ـ أن الدكتور يتغفله ويلاحظ شوشو باسماً حتى وهو يكلم غيرها ، ولم يزل حتى أقنع نفسه بذلك ، ثم صارت المسألة التى تتطلب الجواب : هل وجه شوشو يزداد احمراراً أو يشحب أو يثبت ولا يتغير على كثرة هذا اللحظان وتكرره ؟ وهل هى ترامقه أيضاً ، أم هذه الاختلاجات التى يراها فى جفونها عفو لاعمد فيه ؟ وعلى كثرة مافكر فى ذلك وطول ماشغل به نفسه لم يستطع أن يطمئن إلى جواب يسكن به إليه .

ولما أعياه جواب هذه الأسئلة وأمثالها نفض يده من معالجتها كالسأمان واعتاض منها سؤالا آخر عنّى به نفسه برهه أخرى فى خلال هذه الجلسة التى طالت بفعل الجو الفاسد : ماله يتعب نفسه بالتفكير فى ذلك ؟ ليترامقا ماشاءا ! وهل يعنيه من أمرهما شيء ؟ وكان الجواب الذى لم يسترح إليه أنه حب الاستطلاع المركوز فى طبيعته ، وأنه مفطور على دقة الملاحظة ، وليس يسعه إلا ذلك ، ولا حيلة له فيه ، وليس من الضرورى دائماً أن يكون وراء هذا سبب آخر ، أو علة خفية . وأى شيء هناك يمكن أن يكون خفياً ؟ لاشيء على التحقيق ! فهز كتفيه ومط شفتيه واعتدل فوق كرسيه ووطن نفسه على الضرب فى زحمة الحديث . وإذا به يرى شوشو تكاد تسقط عن كرسيها من شدة الضحك ، والدكتور يبتسم ـ ابتساماً هو أقرب إلى الضحك المكتوم فيما يرى ـ ويسألها مالها ؟ ونجية مرتجة الأنحاء مما أصابها من عدوى الضحك ، وكفها على ذلك الجانب من فمها الذى يواجه إبرهيم . فلم يفهم ، وهم ـ تنفيذاً لعزمه ـ أن يضحك مثلهم ، ولكنه أطبق شفتيه بعد أن فتحهما ، لما لمح من حركات شوشو ونظراتها وإشاراتها أن

شيئاً فيه هو الذى يضحكها . فأسرع فأدار عينيه فى ثيابه ، فلم تأخذ شيئاً غريباً ، فعاد فرفعهما إليها وهز رأسه هزة خفيفة كالمستفسر ، فلم يلق جواباً سوى هذا الضحك ، فشعر بالدم يصعد إلى رأسه ويتجمع فيما وراء عينيه ولكنه ضبط نفسه وردها بجهد ، ونجية تضحك قليلا ثم تسألها : «مالك ؟» والدكتور يتلفت متظاهراً بالاستغراب ، ويضرب كفاً بكف ، ومحمد وزوزو يقهقهان وينحنيان وتخذلها أرجلهما فيقعان على البساط ، وأخيراً خرجت شوشو تعدو منحنية وكفها على شفتيها وفمها يقول « بف بف ! » .

— ٣ —

ومضت دقائق خيلت أطول مما هى . ولم تعد شوشو فنهض الدكتور ، وكان أظهر الجميع قلقاً وتلفتاً ، ومشى إلى النافذة حيث وقف هنيهة يتأمل السماء المربدة والمطر المنهمر ولا يكاد يرى شيئاً ، ثم عاد ويسراه فى جيبه ويمناه تعبث بسلسلة الساعة الذهبية وقال : « سأنظر أين ذهبت شوشو » وخرج فألفاها أخيراً واقفة على رأس السلم مستظلة من المطر بدورته المؤدية إلى السطوح ، ومتكئة على حاجزه ، وسمعها وهو يدنو منها تغنى بصوت خفيض فاقترب منها على أطراف أصابعه ووقف على مسافة متر منها معلقاً أنفاسه ، مخافة أن تنتبه إلى وجوده فتحرمه المنظر والمسمع جميعاً . والقارىء لابد يعلم أن الرجل إذا وقعت من نفسه امرأة فهو يحضرها إلى ذهنه فى صورة هى أحب إليه مما عداها . لأن هذه الصورة تكون أعلق بذاكرته وتكون هى المظهر الذى تبدو فيه لخياله حين يتمثلها . وقد اختارت صورة شوشو هذه الهيئة التى رآها الدكتور عليها فى ذلك المكان ، وصارت تزوره فيها فى كلا نومه ويقظته . والمنظر عبارة عن فتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، فى ثوب من الصوف ، قرمزى لاصق بالبدن بحيث لا يفلت شىء

بينهما ، وهى منحنية بجنبها الأيمن على حاجز السلم، ومعتمدة بخدها الأيمن - على كفها ، وبكوعها على هذا الحاجز . أما راحتها اليسرى فمطبقة فى خصرها الذى يبرز من تحته ردفاها مرتفعين مائلين إلى اليسار قليلا ، وجيدها الأتلع النضير قد انثنى عليه القرط تحت شعرها الذهبى المقصوص . وهذا ما كان بادياً منها لعين الدكتور حيث وقف يرجو أن تظل كما هى لا تشعر به ولا تتحرك ولا تكف عن الغناء .

ولكنها تحركت ! إما لأنها أحست به وإما لأن الوقفة أتعبتها أو أملتها. فرأته فصبغ الدم وجهها وارتدت ، ولكنها لم تتجهم له وقالت وفى عينها نظرة عتب ورضى فى آن :

— آه ! ألك هنا كثير ؟ .

فدنا منها خطوة : « لا ! مع الأسف ! » .

فلم ترده عن الدنو ولم تحاول أن تتحول عن مكانها لتحفظ المسافة الأولى بينها وبينه ، وقالت وكلتا يديها وراءها على الحاجز وصدرها بثدييه المستديرين بارز :

— أكنت تتسمع ؟ .

فقال برقة ، ومد رجله لخطوة أخرى لم يخطها :

— ربما كنت أشد التفاتا الى مصدر الصوت .

فقالت بلهجة من يستزيده مما يحرم عليه :

— لا تقل هذا يا دكتور ! .

— ولماذا ؟ إنك تعرفين إعجابى بك .

فلم يبد عليها مايدل على الارتياح إلى إعرابه عن هذا « الإعجاب » وودت لو أنه استخدم فى وصف شعوره لفظاً أقوى من « الإعجاب » وقالت بلهجة أقسى مما كان ينتظر إذا اعتبرنا مامر إلى الآن :

— كلا ! هذا لا يليق . وأنت تعلم أنى محقة ! »

فدهش ـ وهل كان يا ترى من حقه أن يدهش ؟ ـ ولم يدر ماذا أغضبها فجأة وقال :

— ولكن يا عزيزتى . . .

فقاطعته بلهجة أشد قسوة :

— لست عزيزة أحد من فضلك !

وكأنما آلمها ألا تكون « عزيزة أحد » وإن كانت هى التى حرمت نفسها هذه المزية ، فحل الاكتئاب محل الغضب فى أسارير وجهها الذى بدا كأنه طال فجأة ، واحمرت عيناها أيضاً حتى ليظن من يراها أنها حديثة عهد بالبكاء ، أو أنها مشفية عليه . فلم يسعه إلا أن ينقل رجله الأخرى ويخطو الخطوة التى كان هم بها وصده عنها مالا نعلم ، وتقدم منها وكاد يلصق بها فنحت عنه وجهها ومنحته كتفها ، فتناول يسراها بين راحتيه فلم تسحبها وقال وفى صوته نبرات الأسف والألم الصادقين :

— ولكنى لا أفهم ! بأى شىء أسأت إليك يا عزيزتى ؟ .

— قلت لك لست عزيزة . . . عزيزتك !

فلم يفهم أيضاً ! وأنى له أن يطلع على ماتطوى عليه أضلاعها وهو لم يرزقه الله تلك الفطرة التى تهديه إلى اللفظ الذى يكون أوقع فى نفس المرأة وأعذب فى سمعها وأشد موافقة لهواها ؟ وأراد أن يصلح ما فسد فزاد الطين بلة :

— حسن ! لن تسمعى منى هذه الكلمة التى تكرهينها . فلا داعى للنفور ولكن قولى لى كيف أدعوك ؟ .

فسحبت يدها التى كانت قد تركتها له وقالت :

— ادعنى باسمى ! لماذا تدعونى بغيره ؟ .

— اتفقنا إذن . . .

وابتسم ، وأبى له سوء الحظ وعماه فى هذه اللحظة الدقيقة التى كان يمكن أن تنعكس فيها الآية ، إلا أن يزيد « ياشوشو » .

فرفعت عينها فى وجهه ساخطة زارية وخرجت دون أن تجيبه .

وتخلف هو برهة ثم لحق بها وهو يقول :

— ما أعجب أطوار النساء ! .

ولو أنه كان تبعها حين خرجت لسمعها تقول لنفسها :

— ما أشد غباوته ! .

الفصل الثامن

— يغمز بعينيه ، يقول برجليه ، يشير بأصابعه ، فى قلبه أكاذيب —

— ١ —

جاء وقت الطعام فجلسوا إليه فى غرفته ، أو على الأصح فى الردهة الفسيحة التى تحيط بها الحجرات ، ولم يكن ثم سوى مائدة مربعة وبضعة كراسي من الخيزران . وكان إبرهيم قد سبقهم ولكنه تلكأ عند باب السلم ووقف — حيث كانت شوشو منذ برهة ! — يتأمل الجو ويمد ذراعه ليتلقى بكفه المطر الذى كان لا يزال ينهمر ، ويحاول أن يرفع وجهه ليرى السماء وهل رقت السحب فيها أم لا تزال كثيفة حالكة ، فنظرت شوشو إلى الدكتور ، ونظر الدكتور إلى شوشو ، وقد طاف برأسيهما خاطر واحد ، وقال كل منهما لنفسه : « أتراه رآنا أو سمعنا ؟ » وزادت شوشو فعجبت للأقدار التى جعلتها هى تسمعه فى الصباح وجعلته هو — فيما تظن — يراها أو يسمعها بعد ساعات !

وقالت نجية « يظهر أنه لم يجع » .

فقالت شوشو ، ونهضت عن المائدة :

— بل يظهر أنه ينتظر المن من السماء :

ومضت إليه وأمسكت بذراعه وجرته معها وهى تقول :

— هكذا يجب أن تعامل ، اجلس هنا !

وكان الدكتور حسن الحظ فقد جلست شوشو إلى جانبه . وكان من

بواعث سروره الحقيقي أو المتكلف أنه أصر على اتخاذ كوب سهت شوشو فشربت منه وإن لم يكن كوبها ! ، وأن القطة التي لبثت هنيهة في حجر شوشو انتقلت إلى حجره وألمسته شعرها الذي لمس كف شوشو من قبل ، يضاف إلى ذلك أنه هم أن يساعدها ، وحمل إلى طبقها شيئاً من الخضر رفضته فنقله إلى طبقه بعد أن كاد يلمس طبقها ! وكان من حين إلى حين يختلس نظرة إلى جانب وجهها وإلى جيدها وغير ذلك من بدائع هذه الفتاة التي ظلت أكثر الوقت تلقى الحديث إلى إبرهيم الجالس أمامها . وكانت فاطمة تتوخى أن تقف وراء إبرهيم مخافة أن يراها ، وستها شوشو لا تفتأ تدعوها أن تتنحى عنه لئلا تلوث له ثيابه وهي تضع الصحاف أو ترفعها عن المائدة ، فتشير المسكينة إلى شوشو بيدها وتعض شفتها السفلى وتومئ بعينها إلى إبرهيم فيضحك منظرها شوشو ، ويدير إبرهيم وجهه إلى فاطمة فتجمد وتنقطع حركاتها وإشاراتها وتقول نجية :

— دعيها يا أختي فإنها مستحية .

وفرغوا من الطعام فأشعل إبرهيم سيجارة ، وكان الدكتور يهم بالقيام عن المائدة ، فلما رأى السيجارة عاد فوطن نفسه على البقاء ، ولمح إبرهيم ذلك فقال :

— لا تكلف نفسك هذه العادات الإفرنجية معنا يا دكتور . إننا هنا — على رأي شوشو — في الريف وعلى أننا معاشر المصريين لا نتحرى هذه العادات حتى في العاصمة ، ويمكنك أن تسبقنا إذا شئت فإني باق هنا مع بنت خالتي (وأشار بعينه إلى نجية) . اذهبي ياشوشو معه .

— ٢ —

قالت شوشو للدكتور لما صارا وحدهما في غرفة الجلوس :

— إن هذا حسن جداً بلاشك ؟ .

— ماذا ؟ .

— أظنه يسرك جداً ؟ .

— ولكن ماذا ؟ .

— ألا تستطيع أن ترى أن ابن خالتي رآك واقفاً معي وسمع ما تفضلت عليّ به.

— ولكن كيف يمكن ؟ وهبيه رأى وسمع فماذا إذن ؟ وهل فيما قلت شيء لا ينبغي أن يقال ؟ .

— بلا شك .

— يظهر أن قلبي لن يستطيع أن يصلح ما أفسده لساني ! فياله من زمن يتعقب سوء الحظ فيه الرجل من أجل أنه لم يقدر أن يغمط امرأة ؟ لأنه أعرب لها عن إعجابه بجمالها ؟ أو كان على أن أكابر وأن أزعم أنى أكره دمامتك ؟ يجب أن تعترفي أنه ما كان يسعني أقل مما قلت .

فمضت شوشو إلى النافذة لتخفي أمارات السرور الطبيعي الذي لمع في عينيها ورجفت له شفتاها ، وقالت وهي سائرة :

— أحسب أن من واجبي أن أشكرك يادكتور؟ .

فتبعها وهو يعبث بسلسلة ساعته وقال :

— إن من الثناء ما هو إساءة أدب ، وقد يكون هذا من ذنوبي . ولكن من المعاملة ما هو ظلم ، وقد تكون معاملتك إياى من هذا القبيل . رجل صريح لم يألف المكاتمة يجهر برأيه فيعد من أجل ذلك سيء الأدب ! .

فقالت ووجهها إلى النافذة :

— لست أسمح للأغراب أن يجترئوا على حتى بالمدح .

فقال بلهجة الظافر :

— آه ! إنه ليس المدح الذى تستحقين أضعافه هو الذى يغضبك ،

بل صدوره عنى ! ولو أن غيرى — إبرهيم مثلا — كان محلى . . .

فتجهمت له وقاطعته :

— إنى أمنعك ! أنه ابن خالتى ، بل أخى وأعزّ أهلنا علينا ، وهو لايحلم بأن يفعل مافعلت .

فلم ينهزم أمام هذه التعبيسة وضاعف الحملة :

— إن من بواعث اغتباطى على كل حال أن أعلم أنى صادق فى وصفى لك رضيت أم سخطت . وهل كنت تريدين أن أراك ثم أذهب أتحدث عن دمامتك لالسبب يسوغ هذا الكذب الشنيع سوى أن أعفيك من الارتباك والخجل حين تسمعين أنك جميلة ؟ .

فزادت تعبيسا وقالت بصوت مرتفع قليلا :

— إن هذا كله تكلف . وأنت تعلم ، كما أعلم ، أنك لم تقل إنى :

— لقد قلت إنك جميلة

— كلا ! هذا كذب .

— وأقول ذلك الآن . وإنك لكذلك . بل أنت أجمل من رأيت . . ويمينا ، . . .

— لا تحلف فلن أصغى اليك . إنك فظيع .

ووقفت مضطربة بين الخجل من سماع ذلك والرغبة فى الاستزادة منه . أما هو فلم يعبأ شيئا بمقاطعتها ومضى يشد عليها ويقول :

— أكرر أنك من أفتن النساء . فهل فى هذا كذب ؟ إن الأمر واضح لا خفاء به . وقد يكون فى قولى هذا اجتراء ، ولكن الإخلاص شفيعى .

— كلا . لأنك غير صادق .

— مهلا مهلا ياشوشو ! واسمحى لى أن أكبر هذا الأدب وأعجب به إعجابى بجمالك . ولا أحسبنى أول من وصفك بهذا . ويجب أن تصدقى الناس إذا لم تصدقينى .

فلم تستطع أن ترد نفسها عن مسايرته إلى حيث يجرها ، فقالت :

— إن الناس لا يقولون عنى ذلك .

— بل لابد أنهم يفعلون وإلا كانوا عمياً .

— أعنى أنى لا أسمعهم فإنك تعلم أنى لا أقابل غير أهلى ، ولعلى مخطئة فى السماح لك برؤيتى .

فلم يلتفت إلى الشطر الأخير من كلامها ، ولم يسمح لها أن تزحزحه عن موقفه وقال :

— ولكنك تعرفين أنهم يقولون هذا ؟

فأغرتها حلاوة الاعتراف بالموافقة ، وصدها التأدب والحياء فاضطربت

— لا – أعنى – سمعت فاطمة تقول إنهم يذكروننى بذلك ... غير أن ...

ولمحت أختها وابن خالتها مقبلين ، فنبه ذلك فى نفسها طبيعتها العابثة ، وأمسكت عما كانت فيه وقالت بصوت عال :

— إذن نحكم ابن خالتى . تعال افصل فى الأمر .

فريع الدكتور واصفر وجهه ودارت الأرض به ، ولم يعــد يدرى أواقف هو على رجليه أم رأسه ، وتلفت كالذى يبحث عن نافذة يثب منها ، ولم يستطع أن يمنعها أو يقول لها شيئاً لأنها باغتته بما لم يكن له فى حساب ، ولم تزد على أن ألقت إليه نظرة خبيثه ثم تقدمت إلى الباب .

وقال إبرهيم : « ماذا ؟ فيم تختلفان ؟ » .

وكان الدكتور لا يزال واجماً ممتقع اللون مسمراً فى مكانه ، وقد بدا لنفسه سخيفاً جداً لا يدرى بأية قوة يواجه الموقف المخجل الذى تهم شوشو بأن تضعه فيه .

فقالت شوشو – وهى ترمى إلى الدكتور بالنظرة ، وتمتع عينها بمنظره وبما يكابد من ألم وحيرة وخوف – :

— إنه يقول لى . . . ويكرر . . . ويؤكد . . . ويقسم . . . أنى . . . أنه.
فعيل صبر الدكتور وصاح بها : « شوشو ! »
— لاتقاطعنى من فضلك . يجب أن يعرف ابن خالتى هذه الحماقة .
فقال إبرهيم عابساً :
— حماقة ؟ ماذا تعنين ياشوشو ؟
— أعنى أنها حماقة وجرأة وجنون . ؟ ولابد أن أبسط لك الأمر ليتأتى لك أن تحكم ، فامسك أنت أيضاً عن المقاطعة من فضلك . . .
ثم كأنها رثت للدكتور المسكين ، فكفت عن تعذيبه وقالت :
— يقول إنه لا يستطيع البقاء معنا ، وأنه لابد له من العود إلى المركز لأن عليه أن يعود أحد المرضى مهما كانت المشقات . وأنا أقول له إن العود مستحيل فى مثل هذا الجو المطير . فاقض بيننا بالحق .
وجلست . فجلس الدكتور كأنما كان قد انقلب آلة حاكية ، ولم يسر عنه ماقالت لأنه ـ على فرط ذهوله ـ أدرك أنها تبيعه صمتها بثمن معين هو أن يجلو عن البيت حالا . فيالها من عقوبة تنزلها به جزاء له على ما اجترأ به عليها من المغازلة البريئة ؟ أفتراها كانت ، وهى تعاطيه الحديث ، تفكر فى هذه الوثبة التى قصمت ظهره ، وأطارت لبه ، وشردت عقله ؟ وياليت من يدرى أجادة هى أم هازلة ؟ وعلى أنه لم يطل التفكير فى تلك اللحظة ، ولم يسعه إلا أن ينزل على حكم المقادير التى جعلته رهن مشيئة شوشو ، على الأقل فى هذا الموقف ، فهز رأسه لنجية وإبرهيم أن « نعم » وبلع ريقه ومد يده إلى جيبه ثم أخرجها وقال : « لقد كنت ناسياً فأذكرتنى المفكرة وأنا أنظر فيها عرضاً . وأنا أعلم أن الخروج فى مثل هذا الجو حماقة ، ولكن واجب الطبيب فوق راحته . »
وأظهر الإصرار وراح يدفع « بالواجب » و« بحالة المريض » كل اعتراض حتى أذنوا له بكرههم .

الفصل التاسع

« من صعد إلى السموات ونزل ؟ من جمع
الريح فى حفنتيه ؟ من صرّ المياه فى ثوب ؟ »

انقطع المطر وسكنت الريح ، وكان إبرهيم واقفاً إلى نافذة غرفته يطل على الحديقة التى مر بك الكلام عليها ، أو على الأصح يحدق فى الظلام الدامس والسكون الرهيب اللذين لف فيهما الكون ، حين دخلت عليه شوشو ودنت منه ووقفت تتأمله ، وهو لاه عنها بما يرسمه له خياله النشيط . وكان البرد قارصاً والليل صامتاً لا حركة فيه ولا حس ، كأنما استحال كل شىء فى السماء والأرض صورة مرسومة ، وقد خيل الى إبرهيم وهو يرمى هذا السواد بعينه كأن هاوية من الخرس قد ابتلعت كل صوت ونأمة ، وأنه لو أرسل فى ظلمتها صيحة لما ارتد منها إلى الأذن رجع ولا كان لها صدى ، وأنه لو ألقى فيها بحجر لما سمع له وقعاً ولا بلغ الحجر قاع الهاوية ، وبدا له كأن الأرض قد ضرب عليها السحر شيطان وألزمها حالة غير إنسانية يعي الإنسان نعتها ، أو كأنها فى غيبوبة أفقدتها وعيها أو كأنما هو ينظر إلى الدنيا الذاهلة عنه من خلفها ويتأملها وهى مدبرة عنه أو يسترق السمع من وراء أستار الكون.

وعالج إبرهيم ، وهو ثابت الحملاق ، أن يصور لنفسه وقع هذا المشهد الرهيب وما انطوى عليه من الجمال والجلال والموت فى آن ، وأن يتبين نوع إحساسه به ، وأن يهتدى إلى العبارة عنه فأعياه التماس ذلك ، وماذا عسى

أن يبلغ من طاقة المرء على تصوير هذا المنظر المسحور ـ هذه الدنيا التى أنامتها عين غير مرئية ؟

وطال الأمر على شوشو أو لعلها خشيت أن تعديه الطبيعة فيجمد وينقلب تمثالا ، فقد جعلت تمر كفها على ذراعه وتمسح له شعره براحتها ، وهو فى شغل عنها ، فلما رأت أن ذلك لم يرده إلى الحياة ولا أشعره وجودها أدارته إليها وربتت له خده فاختلجت شفتاه ولكنه لم ينطق ، فافترت له عن أعذب ابتساماتها وقالت له وهى تجره إلى الكنبة :

— قل لى مالك ؟

فقال وهو يقعد أو يلقى على الأصح بنفسه على الكنبة :

— تسألينى مالى ؟؟ بى هذه الطبيعة التى كانت منذ ساعة تبرق وترعد وتمطر وتصخب كأنما يعول فيها مائة ألف شيطان ثم آضت كما ترين ، الآن فقط فهمت ما كنت أقرأ فى صباى عمن مسخوا حجارة !

— هل تريد أن تقول إن هذا أول عهدك بمثل ذلك ؟ ؟

— نعم . ولشد ما أتمنى أن أجرب ذلك فى نفسى لحظة واحدة ! لحظة واحدة تسكن فيها نفسى هذا السكون فتخرس ألسنة الهواتف ، وتمحى صور الحوادث ، ويغيض ذلك العباب الجائش هنا فى صدرى هذا .

فقاطعته شوشو قائلة :

— ما أعجب أمرك والله ! تكون معنا كأن لاشىء على وجه الأرض يعنيك ثم لا تكاد تخلو بنفسك حتى تنقلب إنسانا غيرك ، كأن فى جوفك بركانا يريد أن ينفجر ، أفلا تفضى الى بما يكربك ؟ قل لى ! هات ما عندك ! أفرشنى دخلة نفسك ! ائتمنى على سرك !

فوقع من نفسه عطفها وحنوها ، وهم أن يبثها شكواه ويقول لها بشجوه . ولكنه ضعف لم يساوره إلا ريثما التفت إليها ، ثم ملك نفسه وكبحها . وقال

وعلى فمه ابتسامة سرور وشكر لم تخل مع ذلك من السخر :

— يافتاتى الصغيرة أتقدرين أن ...

فخزت هذه الابتسامة فى نفس شوشو ووثبت إلى قدميها وهى تقول :

— بودى أن لا تتكلم كأنك شيخ هرم وأنا طفلة أحبو ؟

— لا تغضبى ! (ومد يده فتناول ذراعها) عودى إلى مكانك بجانبى . دعى بدواتى هذه . لا تلتفتى إليها . إنها مرارة النفس يقطرها اللسان وينضح بها الوجه وتفيض بها العين ، وبكرهى أن ترى منى ذلك . أنت أو سواك من خلق الله — آه يا شوشو لو تعلمين ! إذن لعذرتنى .

— وماذا يمنعك أن تخبرنى فتطرح عن صدرك هذا الحجر ؟

— يمنعنى كبرياء نفسى وعلمى أن الشكوى عبث وباطل ومحال ليس يجدى .

— أدام الله عليك هذه الكبرياء التى أفاضها عليك !

ونظرت إلى ساعتها على معصمها وقالت :

— الساعة الآن الحادية عشرة فقم إلى سريرك والتحف بها !

فضحك وقال :

— وأنت ؟ هل أثقل رأسك النعاس ؟

— أو يعنيك أن تعرف ؟

— بلا شك .

— إذن علم أنى لست ذاهبة لأنام .

— وماذا تنوين أن تصنعى ؟

— سأجلس قليلا وأفكر .

— فى أى شىء ؟ ؟

— ليس لى مثل كبريائك فلا أكتمك أنى سأفكر فى غرابة أطوارك .

— آه! أو لا تزالين غضبى ؟ ؟

— كلا . ليس مابى غضباً. لقد كنت أود .. على أن هذا لا يهم الآن . . .»

خطر له أن هذه الفتاة على صغر سنها متعلمة وأنها قد تستطيع أن تفهم وأن تعذر فقال :

— اسمعى ياشوشو . إن الواحدة منكن تكون طفلة وتدعى لنفسها مع ذلك قدرة الأنبياء ومنزلة الرسل . إن . . .

قالت مقاطعة : « لا أفهم » .

قال : « لست وحدك التى لا تفهم . إن كل امرأة مثلك لا تستطيع أن تخرج من خصوصها إلى العموم . إن قلب الواحدة منكن يدق عطفاً ومرثية للألم الفردى ، ولكنه يعجز عن أن يجعل عطفه أو إحساسه على العموم عميقاً شاملا لآلام الحياة . . . »

فابتسمت وهزت رأسها وقالت بلهجة مبطنة بالسخر .

— صدقنى إنى أعطف عليك .

فقال : ولم يلتفت إلى سخرها .

— إن الجنس الإنسانى معناه فيما تعلم المرأة هذا الطفل المعين أو هذا الرجل المعين الذى لعلها أبصرته واقفاً إلى جانب الباب ينتظر فى البرد أو تحت الشمس مثلا . إن المرأة عاجزة عن الإحساس بالآلام العامة، عمياء لاتستطيع أن تراها . هذه هى الدنيا نصف عمياء نصف مستوحشة تصرخ شرقاً وغرباً وقد أجنها الألم والخطيئه أيضاً . فهل ثم امرأة واحدة يشحب وجهها إذ ترى هذا النمر العالمى يهز قفصه ؟ هل تكف واحدة منكن عن نظم العقود وتطريز الثياب من فرط إحساسها « بجملة » هذا الألم العالمى؟ أرينى دمعة واحدة أراقتها امرأة — كما أراقت كورديليا عبراتها - لأن الدنيا جنت ؟ ليس من بينكن من ترى أن تبكى من أجل هذا على كثرة دموعكن

وسهولة إسبالها ! إنكن لاتبكين إلا لما تعرفن وأنتن معذورات : طفل مريض تلمسه المرأة بأصابعها فتحس ما به من الحمى فتنهمر الدموع ! ولكن مليوناً يمرضون ! آه هذا شيء آخر ! ولأولى أن ينتظر المرء منكن أن تبكين من أجل الكسور العشرية أو المركبة ! إنكن لا تفهمن الدنيا باعتبارها وحدة وكلا ، ومن أجل هذا لا تتأثر بكن هذه الدنيا لأن الواحدة منكن لا تقدر أن تتسرب فى المجموع وتفنى فى الجماعة . نجد فيكن الأم الرؤوم والزوجة الوفية الكاملة ، وقد نرى فيكن الولية والقديسة ، ولكنا لن نفوز منكن بنبي أو رسول — لا حتى ولا بشاعرة .

وأمسك بعد هذه الخطبة الطويلة ، وعجب لنفسه الذى ساعفه على كل هذا الكلام ، واضطجع وأطبق شفتيه .

ولم تجبه شوشو بشيء بل نهضت وأغلقت الباب وراءها .

— ٢ —

استيقظ إبرهيم على صوت بقرة ، فدفع يده تحت الوسادة وتناول الساعة فألفاها الثالثة صباحا ، فعاد فأغمض عينيه وفى ظنه أن البقرة ستكف عن هذا الصخب الذى جاء قبل أوانه ، ولكن البقرة على ما يظهر كانت تعتقد أن الليل قد انحسر وأن الصبح قد أسفر ، فوثب عن السرير إلى النافذة فإذا السماء صافية والقمر مضيء ففتحها وأطل برأسه فرأى البقرة إلى جانب الباب وقد مطت عنقها ورفعت عينيها إلى السماء ، ولم يكن يعرف البقر إلا مجازاً ، ولا كان له بهذا الضرب من الخلائق عهد ، فجعل يصيح بها « هش . هش . » ، ويوهمها أنه سيقذفها بشيء ، غير أن صيحاته وحركاته وإشاراته كانت تنعشها كأنما سرها أن تعرف أن لأصواتها مستمعاً ، كما يشجع المغنى أن يرى الطرب يهيج السامعيه . فلما رأى ذلك منها توهم أن

ظهوره لها هو الذى يشجعها وأنها خليقة أن تثوب إلى السكينة ، وأن تثبط همتها إذا انصرف عنها . فأغلق النافذة وتحرى أن يحدث فى إغلاقها من الضجيج أكثر مما تدعو إليه الحاجة إيذانا لها باهمال شأنها . وكأنما حسبت البقرة أن احتجابه عنها كان داعيه أنها قصرت فى الأداء ، وأن التعبير كان ضعيفاً وأن الإحساس فيه فاتر ، فأطلقت عليه أقوى أصواتها ، وكانت جفونه قد كاد يطبقها النعاس فأطارته هذه الصيحات المتلاحقة وكادت تطير بلبه معها ، فجر نفسه إلى الكنبه وانطرح عليها وأشعل سيجارة ومضى يفكر على هذا النحو .

« النوم قد جفانى ولا سبيل إليه الآن مادامت هذه البقرة قد شاءت أن تعد الصباح قد طلع . والجلسة هنا — إلى صباح الآدميين لا صباح البقر — كلفة شاقة . وإذ كان الحظ قد رمى بى إلى هذا الريف الذى يبكر ناسه فى النوم وتبكر أبقاره فى اليقظة ، فالرأى أن أخرج إلى هذه الحديقة التى أفسدتها البقرة وأن أنتظر فيها الفجر لعله يوحى إلى ببعض معانيه »

ولما انتهى إلى هذا الرأى أسرع فلبس معطفه وحذاءه وأخرج من الحقيبة مذكرته وقلمه وفتح الباب وخرج وأغلقه خلفه ولكن من أين ؟

وكانت البقرة تواصل الصخب فأراد أن يسرع ليدركها ويثأر منها . غير أن الاهتداء إلى باب السلم المؤدى إلى الحديقة استغرق من الوقت وكلفه من المتاعب مالم يكن يخطر له ببال . وكانت الغرف كلها موصدة حتى غرفته، والمكان مظلماً . وكان ظنه أن هذه الصالة فارغة فإذا به يحسها مكتظة فقد كان ثم دلو ثقيل اصطدم به أكثر من عشر مرات فى لفه ودورانه حتى انتهى إلى وجوب حمله معه وهو « يطوف » فى أرجاء هذه الصالة التى أصارتها الظلمة لا أول لها يعرف ولا آخر لها يوصف ، وراح يعزى نفسه عن حمل هذا الدلو الثقيل بأنه سيضرب البقرة به .

ولكن كيف يهتدى إلى الباب وهو لم يكد يخطو خطوات فى الصالة ويصطدم بالدلو لأول مرة حتى اختلط عليه الأمر ولم يعد يعرف شرقا من غرب بل لم يعد يعرف أين باب غرفته هو؟

ووقف برهة يفكر فى المخرج من هذا التيه فبدا له أن الإشكال يحل بأن يلتمس الحائط ويسير على محاذاته فإنه إن فعل ذلك لامحالة موفق إلى الباب ، ففعل بلاعناء يستحق الذكر وساركما اعتزم . غير أن الواقع أنه بدأ بباب السلم وهو يحسبه باب غرفته وراح يمضى عنه لا إليه ، والتقى فى طريقه بما لا يذكر أنه رآه فى النهار أو فى اللحظات القليلة التى اجتاز فيها هذه الصالة قاصداً إلى غرفته أوخارجا منها ، وتعثر بما حسبه « غابة » من القوارير حتى لم يجد معدى عن أن ينأى عن الحائط مرغماً ، وسار بضع خطوات فإذا به يلتقى بقوارير توهمها غير الأولى فضحك وقال لنفسه لعل أرض المكان قد فرشت بالقوارير!

وصادف بعد ذلك برميلا . نعم برميلا فوقف يعجب ويتساءل هل قررت شوشو أن تقلب الصالة حانة خمار ؟

ومل هذه البراميل والقوارير فقال أترك الحائط وأرمى بنفسى فى جوف الصالة وأدفع أول باب أبلغه ،ألم يقل بشار « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » ؟ فكان هذا فاتحة التوفيق . ذلك أنه وجد بابا لم يعن نفسه لفرط ضجره بالتساؤل عنه أى باب هو ؟ وعالجه فانفتح فإذا به باب سلم فصافح وجهه نسيم الليل المقرور وأعاد إليه اتساق خواطره فانحدر ولكنه لم يجد حديقة ما فوقف كالأبله !

وكان صوت البقرة لايزال يصل إليه فلم يجد عسراً فى فهم ماحدث . ذلك أنه لم يهتد إلى سلم الحديقة بل إلى سلم خلفى يفضى إلى فناء « الحريم » ، وبذلك صار الجناح الذى ينزل فيه بينه وبين البقرة فقال : « لابأس وإن

كانت البقرة قد نجت بجلدها ، ووضع الدلو مقلوبا وكان لايزال معه وقعد عليه وأخرج القلم والمذكرة ليدون مايخطر له .

ولم يخالجه شك فى أن الشمس ستطلع لامحالة من الناحية التى جلس ينظر إليها فقد أخذت السماء تصطبغ بلون قرمزى شيئاً فشيئاً ، ولكنه لم يكتب شيئاً ولم يخط حرفا لأن إحجام الشمس عن الطلوع حيره حتى خالجه شعور وقتى بالخوف عليها وابتسم وهو يقول لنفسه : « لولا ماتعلمته فى المدرسة لحسبت الشمس قد غيرت رأيها وعدلت عن الطلوع اليوم»

ثم نهض ونظر خلفه ولم يمنعه قيام البناء فى وجهه أن يدرك أن الشمس طلعت من ورائه !

وجلس وكتب فى المذكرة هذه الملاحظات وهو يبتسم ويقول : «لعل فيها فائدة لشوشو ! »

« ديسمبر — فى الريف . يظهر أن البقر أحس بالفجر من الديكة وأسرع إلى تحية الصباح من العصافير . وفى وسع من يعنيه ذلك أن يقضى ليلة فى الريف ويبكر فى القيام قبل الفجر بساعة وبعض ساعة . وليس فى الريف ذلك السكون المزعوم فإنه إذا سكنت الطبيعة هاجت الأبقار ويجب على من يبغى الراحة والنوم العميق فى الريف أن يأخذ معه كمية من الأسبرين أوالفيرامون تكفى له وللبقر عند الحاجة ».

ولم يفتح الله عليه بأكثر من هذا أو أشبه منه بالمعانى الشعرية ، ولم يدون شيئاً من الخوالج أو الاحساسات لأنه كان فى تلك الساعة مجردا منها . وعلى أنه — كما قال لنفسه — ماحاجته إلى الإحساسات التى قد يخطىء فى تصويرها أو يوشيها بما يجعل ألوانها أزهى أو أقتم ؟أليست هناك مدرسة ترى أن يكون الوصف مطابقا للحقيقة عارياً من زينة الخيال وحليه وتفويفه ؟ وهب لا مدرسة هناك فما ذنبه هو إذا كانت شمس الريف قد أبت إلا أن تطلع من

ناحية غير مرقوبة ؟ ومن أين تأتى هذه الخيالات أو تنشأ الإحساسات ولا تفكير له إلا فى البقرة التى هدت رأسه بأنغامها، والدلو الذى شل ذراعيه جميعاً على التوالى بثقله ؟ ».

ومع ذلك لم ير أن يبخل على السماء بملاحظات تنفعه إذا حدثته نفسه أن يكون روائياً فكتب.

«تبدو السماء قرمزية ثم تخضر لسبب ما، ثم تصفر أو تبيض لسبب آخر غير واضح..»

وضحك وقال لنفسه فلنشبهها بشيء ! أليس التشبيه ضرورياً فى كل كلام شعرى ولو لتقريب الصورة التى يراد أداؤها ؟ ولكن من أين يجيء لها بمشبه وهى لاتثبت على لون ؟ وماذا تقول شوشو إذا اطلعت على هذه العبارات... شوشو ؟ لقد خطرت له شوشو مرتين فى نصف ساعة ؟ ولكن لاعجب، فما يقضى معظم وقته إلا معها ولا يملأ جوه سواها إلى الآن.

وعاد إلى التشبيه اللائق بهذا الجانب من السماء الذى احمر ثم اخضر ثم اصفر، وبينما كان جاداً فى البحث عنه، خرجت فاطمة الزنجية من باب الحريم ولم تكد تراه — وهو لاه عنها — حتى انكفأت راجعة وعادت بأهل البيت جميعاً كباراً وصغاراً وسادة وخدماً وفى طليعتهم نجية وشوشو وأقبلوا عليه جميعاً يسألونه فى وقت واحد عما به ؟ وما جاء به إلى هنا ؟ وفيم الجلوس على هذا الدلو ؟ وماذا يصنع بالقلم والكتاب فى يده ؟ وهل هذه عادته فى مصر ؟ إلى آخر هذه الأسئلة التى قعد ينتظر آخرها على غير جدوى، وهو ينقل عينه من وجه إلى وجه تبعاً لمصادر الأسئلة حتى كاد يجن.

ولما أعياه أن يجد فرصة للكلام وسط هذا اللغط المتصل نهض عن

الدلو فى صمت ومضى إلى غرفته وأوصد بابها وراءه وانطرح على السرير بما عليه من ثياب وهو يقول :

« لماذا لم أنم ؟ سأنام حولا كاملا متى عدت إلى القاهرة ! ماذا كنت أصنع ؟ لقد كنت أريد أن أخرس هذه البقرة التى أزعجتنى كما لم تزعجنى سيارات القاهرة وأبواقها وترامها وصياح البائعين فيها ! ذلك كله هناك غير مستغرب وأعصاب المرء مستعدة له بسبق التوقع وبالعادة . ولكن هنا . هنا حيث يقولون إن السكون سابغ والهدوء مطبق محيط ، والمرء لا يتوقع شيئاً من الضوضاء ، والأعصاب متفترة مسترخية من الاطمئنان والأمن ، تكفى بقرة واحدة لإطارة العقل » .

وأخذه النوم وهو يحدث نفسه بالرحيل .

الفصل العاشر

« العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلىء من السمع »

لم يطل نوم إبرهيم . ذلك أن الكرى كان قد عقد أجفانه قبل أن يتغطى فلم يلبث أن ابترد فاستيقظ وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة بدقائق ، فقام ونظر من زجاج النافذة إلى الشمس المشرقة على الحديقة والحقول وراءها. ففتحها فتضوع إليه ريا الخضرة المطلولة والأزاهير الندية دافئة تحت الشمس. وكان واسع الاطلاع ملماً بأساطير القدماء وما نسج خيالهم حول الطبيعة . ولكنه نسى ذلك كله لما صار وحده مع السماء والأرض وهما أوسع وأشد تنوعا من أن توائمهما الخيالات المسطورة فى الكتب، وأحس فى هذه اللحظة حنينا ـ لا إلى شىء معين ـ وغبطة تشيع فى كيانه كله ، وظمأ خيل إليه أنه مامن شىء يمكن أن يطفئه ويفثأ غلته . فمال بذراعيه على النافذة وأبرز وجهه للشمس وحدق فى السحب البيضاء تتفرق وتتجمع وتسبح فى بطء . وخطر له ـ وعجب هو لنشوء هذا الخاطر ـ أن من الخطأ أن تنعت الطبيعة بالقسوة . كلا ليس فى الطبيعة قسوة حقيقية . إنها حارة حية ، ولا تكاد تتفق الحرارة والقسوة . وإذا كان بعض مافيها يسطو على البعض الآخر ويأكله أو يلتهمه أو يأتى عليه فما قيمة هذا ؟ إن كل شىء يحيا وإذا كان يموت فإنما هذا ليعين غيره على الحياة . وأين يا ترى قرأ أن الكون فنان لا يزال يعبر عن نفسه بصور مختلفة ؟ لا يذكر أين قرأ هذا ، ولكنه يذكر أيضاً أن الكاتب قال ـ أم ترى هو صاحب هذا الخاطر ؟ ـ إن هذا الفنان الأعظم لا يزال يخفق فيما يحاول أن يبدعه ويخلده من خارجياته . على أن العالم بل

العوالم كلها صغيرها وكبيرها مثلنا ومثل الأزهار والأشجار ليست سوى قطع شتى من هذا الفن ، وكل منها تام فى ذاته كامل من حيث هو . وكل حياة تجرى إلى مداها ثم تراق وترد إلى هذا الفنان المبدع الذى لا ينفك يحاول ضروبا جديدة من الفن . العقل والمادة شىء واحد . ومن يدرى ؟ فلعله ليس ثم لا عقل ولا مادة وعسى أن لايكون هناك إلا نمو وذبول ثم نمو جديد وذوى وهكذا إلى مالا نهاية ـ فنان لا يفتأ يعبر عن نفسه فى ملايين وملايين من الصور المتغيرة . والذبول والموت ـ أو مانسميهما كذلك ـ إنما هما راحة ونوم . أو هذا هو الجزر الذى يجىء بين مدين ، أو الليل الذى يفصل نهارين ، والنهار الذى يطلع لا يشبه الذى سبقه فى شىء . ولا المد كالذى كان قبله . هذه الصور التى نراها فى الدنيا وفى أنفسنا ، هذه القطع الفنية التى يخرجها الفنان الأعظم لا تعود ولا تبقى على حال واحد ولا تلتزم شكلا معيناً . بل هى دائماً جديدة . عوالم جديدة وآحاد وأفراد جديدة وأزاهير طريفة . وليس فى هذا مايكرب النفس . كلا إنما يكرب النفس أن تعلم أنها ستظل حية أبداً حتى بعد مايسمى الموت . أو أنها ستحيى كرة أخرى فى جسم آخر فلا أنا أنا ، ولا أنا مخلوق آخر . إن هذا يكون ماذا ؟ فساد ذوق ؟ هبنى كتبت مقالا أو وضعت قصة أو نظمت قصيدة . فهل أستطيع أن أتصور أن مقالتى تصبح مقالة أخرى أو أن قصيدتى تنقلب قصيدة ثانية ؟ . وهل فى وسعى أو وسع سواى أن يفصل مابين العبارة التى صببت فيها المقالة أو القصة أو القصيدة ، والمادة الذهنية التى أعربت عنها بهذه الألفاظ ؟ كلا . وكما أنى أنا الفنان الأصغر لا أزال أصوغ كل يوم جديداً ، كذلك الفنان الأعظم لا يزال يخرج من القديم جديداً ومن التالد طريفاً . كالنافورة تقذف الماء خيطا من القطرات لا تشبه منها واحدة أختها ، وتقع هذه القطرات فى الحوض وتعود أدراجها من الأنابيب إلى النافورة فتقذفها قطرات جديدة مصوغة فى أشكال وحجوم غير الأولى .

ثم تنهد وقال لنفسه : « ولكني لا أستطيع أن أفهم أو أدرك لماذا تظل هذه القوة الأبدية منهمكة فى الإعراب عن نفسها فى صور فردية شتى لا آخر لتنوعها ؟ لماذا لا تكف ولا تنقطع عن العمل ولا يصير كل شىء إلى «لا شىء» ؟ ظلام أبدى شامل . . ! ويا ليت من يدرى أهما اثنتان لا ثالث لها : ـ أن يظل هذا الفنان يعمل ويخرج ويبدع كما هو فاعل أو أن لا يكون ثم شىء على الإطلاق ؟ وهل من الاتفاق المحض أن حدث هذا ولم يحدث ذاك ؟ »

وسكت وحدق بعينيه الواسعتين فى الفضاء كأنما يبغى أن يرى شيئاً هناك وراء كل منظور . ثم هز كتفيه وقال وهو يمشى إلى « الكنبة » .

— كل هذا جميل . ولكن هل بنا حاجة إلى التفكير؟ هذه الدنيا أمامنا ، وأحسب أن كل ما بنا حاجة إليه هو أن نتناولها كما هى ، وأن نقنع بذلك .

وهم بالجلوس فسمع نقراً على الباب ففتحه وطالعه وجه شوشو ، كأنه ـ أى وجهها ـ فى حلم ، وأحس وهو يصافحها كأن حولها جواً من الماضى والمستقبل . وذلك مالا عهد له به فسألته :

— ماذا كنت تصنع ؟

— لا شىء .

ولكن وجهه مال إلى النافذة ، فقالت :

— أكنت تسخط على هذه الطبيعة التى لا تثبت على حال ؟ ألا ترى معى أنها كالطفل ، تكون عابسة باكية ثم إذا هى تضحك لغير سبب مفهوم ؟ إن تناقضها أو اضطرابها كثيراً ما يحيرنى ؟ وكم تمنيت لو أنى أستطيع أن ألزمها الحالة التى يتفق أن تروقنى ـ إلى أن يتغير مزاجى على الأقل .

فعجب أن يجىء أول ما يجرى بخاطرها بسبيل مما كان هو يفكر فيه ، ولكنه كتم هذا ـ وإن لم تكتمه عيناه ـ وقال مجيباً على كلامها :

— كلا ياشوشو . أنا لا أحس بالرغبة فى إلزام الطبيعة حالة ما ، أو

بعبارة أخرى لا أعنى أن أفرض عليها مزاجى الخاص أو أى مزاج معين ، ولعل ذلك لأن تنوع الأمزجة أو تعدد الحالات التى تكون عليها الطبيعة فى جميع مظاهرها ـ هو مصدر السرور الذى أفيده منها ، بل هو الذى يرجع إليه ويقوم عليه إيمانى بالحياة . ولولا هذا التنوع لما بقى ثم شىء اسمه الحياة .

فافترت عن ابتسامة إعجاب وقالت :

ـ ذلك لأنك أديب . لأنك إبرهيم الكاتب !

قال : « نعم . أحسب الأمر كذلك . وإن كنت لا أرى أن كونى كاتباً هو السبب فى ذلك . كلا . إن طبيعة الفنان أو روحه ترتاح إلى التغير . فأنا أجل هذه الجدة التى أراها كل صباح يطلع وكل مساء يجىء . وفى كل شخص . وفى كل مظهر من المظاهر التى تعبر بها الحياة عن نفسها . أرتاح لأنى لا أرى شيئاً نهائياً . ولما كان التغير دائماً فلا أرانى أشبع من النظر والتأمل والتفكير . أحب كل شىء : ما كان وما هو كائن وما سيكون . . . أحب حتى . . . الموت .

وسكت . وساد سكون عميق . ثم رفع إليها عينيه وقال :

ـ وأنت ياشوشو ؟ مارأيك !

وكانت جالسة وعينها إلى النافذة ، فالتفتت إليه كأنما أيقظها صوته من حلم ، والتقت عيونهما . وقالت :

ـ أنا ؟ لا أدرى ! إنى لم أكن مصغية .

فاضطرب شىء فى صدره وخفق قلبه خفقة عطف مضطرم وشعر كأن بها حاجة إلى حمايته ، واستغرب من نفسه هذا الإحساس الذى لا مثير له ولا موجب لنشوئه فابتسم وقال :

ـ ألم أقل لك إن المرأة يعجزها أن يكون إحساسها شاملا ونظرتها جامعة وروحها واسعة محيطه ؟ .

ورآها مصغية إليه فمضى فى كلامه :

— أنا مثلا ـ ولست أعني نفسى على وجه الخصوص، ولكنى أعنى الرجل على العموم ـ أستطيع أن أفتح قلبي للطبيعة كلها بكل ما اشتملت عليه وأن أغمر كل مظاهرها بحبي ، حتى هذا العنكبوت الذى يخيفنى فى العادة والذى أكره أن أرى نسجه فى زوايا النافذة أو أركان الغرفه ، يفيض قلبي له ويتفتح . ولكن المرأة شيء آخر . لم ترزق هذه السعة الروحية . نعم قد تحس أحياناً بشوق إلى أن تضم الكون كله بين ذراعيها . ولكن هذا لماذا ؟ لأنها تحب إنساناً معيناً لا ترى سواه ولا تحس إلاه والكون كله مختزل فى شخصه . وليس لشيء وجود منفصل عنه فهى إذا أحبت الطبيعة فإنما تحب فيها هذا الرجل الذى يملأ دنياها ويستغرق عالمها .

فأرخت شوشو عينها هنيهة ثم رفعتها إليه وقالت :

— وإذا كان الرجل هو الذى يحب ؟ إذا كنت أنت مثلا هذا الرجل؟

فاضطرب وتدافعت العواطف فى صدره ، وأحس الندم يعض قلبه ، وخيل إليه كأنه يري وجه زوجته التي ماتت منذ سنوات ، يطالعه من ظلمة الماضى الدفين ويلومه ويتهمه ـ يتهمه ؟ لماذا ؟ وكأنه يسمع صوتها يقول معنفاً : « كيف يمكن أن تحب مارى ؟ » وغاب الوجه واستتر ولم يبق إلا شوشو تنظر إليه بعينين تحلمان، وابتسامة فيها شيء من المرارة ، ووجه، ماذا جرى له ؟ أين ذهب إشراقه ؟ ماذا فعل الله بصباحته ؟ إن هذه الفتاة عجيبة! وها هى ذى تومض عينها إيماضة خبيثة كأنما يسرها ما تقرأه فى وجهه من الاضطراب ! ما لعينها متعلقة بعينيه ؟ أهى ناظرة إليه ؟ كلا ! إنها كالتى ترى شيئاً هو أحلى وأعذب من كل حقيقة منظورة .

ونهض وقال :

— أى سؤال هذا ياشوشو !

فنهضت مثله وقالت :

— أهو سؤال غريب ؟ غير جائز ؟

وكان يمشى فى الغرفة فلم يفتح الله عليه بخير من :

— كلا . لا غرابة . إنى جائع جداً ولست آتياً هنا لأصوم .

فانفجرت ضاحكة وقالت :

— ألا تزال ملتحفاً بكبريائك ؟

فلم يلتفت إلى هذا ودنا منها ووضع يمناه على كتفها وقال :

— اسمعى يا شوشو . لقد قضيت هنا ليلتين ولم أجاوز عتبة الباب إلا دقائق أمس . فما العمل ؟ لست أرانى سأطيق هذا الحبس . فقولى لى أين أذهب . ولكن بالله عليك لا تقذفى بى فى وسط جحفل من أجلاف الريف .

فتكلفت الجد وقالت :

— هل تستطيع أن تخرج وتسير فى هذه الأوحال ؟

فقال :

— قبح الله الريف ! ألا شىء غير الجلوس فى هذه الحجر ؟

قالت :

— أمللتنا جداً ؟ وبهذه السرعة ؟

فأسرع يؤكد لها أن الأمر على العكس ، وأنه لم يضجره إلا الحبس ، وأن بوده لو استطاع أن يخرج معها إلى الحقول . فصفقت وصاحت به وقد اضطرم خداها .

— ما أحلى هذا ! أوده من كل قلبى .

— ولكن كيف يمكن ؟

— أوه . سأجد الوسيلة . دع هذا لى .

وخرجت لتجيئه بالطعام .

الفصل الحادى عشر

«حبيبي مد يده من الكوة ، فأنّت عليه أحشائى»

معنى هذا ؟

حار إبرهيم فى تفسير خوالجه وما جاش به صدره وهو جالس مع شوشو . ولم يكن ماقرأه فى أسارير وجهها وعينيها العميقتين أقل تحييراً له ، فلم يطق الجلوس فى الغرفة وانتظار الطعام ، وخشى أن تجيئه به تلك الزنجية اللامعة كالفحمة ، وكره أن يرى وجهها بعد شوشو ، واختلج فى قلبه شيء من العطف عليها من أجل هذا الكره الذى يحسه لها ، وكأنما أراد أن يهرب من نفسه ويجنب أن يواجه ما تضطرب به ، فأسرع فانحدر من السلاملك إلى الفضاء الذى أمامه ، وتذكر وهو يهبط السلم كيف تركته شوشو بين ثلاثة كلاب ضارية ، فابتسم وهو يقول: « تالله ما أظرفها ! إن معين حيلها لا ينضب » . ثم تجهم إذ رأى نفسه يكر إلى ذكر شوشو ويدعها تستولى على خواطره فأسرع فى المشى ولم يلتق بأحد ، فمال إلى الحديقة غير عابئ بالأوحال التى تراكمت على حذائيه ، وقال يحدث نفسه وهو يقتلع رجليه واحدةبعد الأخرى من الأوحال: «أما لو أن الأرض جافة ! إذن لاستطعت أن أمشى قليلا وأن أفنى بالمشى هذه الإحساسات الجديدة وأنفقها فيه وأحيلها عرقاً يتصبب .

ورأى رجلا جالساً على حجر يضحّى فى آخر الحديقة ، فمضى إليه فألفاه شيخاً هرما فى يده العصا ، ونهض الرجل متوكئاً على عصاه ورفع له يده بالسلام . وراق إبرهيم وجهه المغضن كالحصير وشارباه المتهدلان كأنما

كلت شعراتهما وفترت ، فحياه ووقف صامتاً لايدرى ماذا يقول ، وأحس كأن بينهما جونا يتعاظم المجتاز ، واشتاق أن يفتح قلبه لهذا الشيخ المتهدم الضيق العينين المتدلى الشاربين المتوكىء على العصا الذى اجتاز أدغال الحياة كلها وشق طريقه بين أشواكها ، وتمنى لو يفتح له هذا الشيخ قلبه ، فيقول هذا بشجوه مرة وذاك بشجوه ، ولكنه لم يجد الكلام حاضراً ولم يدر كيف يجره إلى التحدث عن نفسه ، فاكتفى بأن يقول :

— من أبناء القرية ؟

وسخر من نفسه إذ قال ذلك . من أبناء القرية ؟ إنه من جدودها بل جدها الأعلى فيما يعلم !

وقال الرجل بصوت حاد كأنه الصفير « إيوه » ، ووقف ينتظر السؤال الثانى فقال إبرهيم : «أنا من مصر » كأنما أحب أن يبادله التعريف ويشعره أنهما ندان » .

فقال الرجل : « ماشفتهاش ياأفندى »

فقال إبرهيم : « لم تخسر شيئا »

ولمعت عين الرجل وهو يحجب الشمس بكنفه ويقول :

— بيجولوا انها جميلة . ماشفتهاش يابنى .

— ليست أجمل من قريتكم .

وسر الرجل هذا الثناء على قريته وبدا الارتياح فى هزات رأسه وفى ازدياد عمق الأخاديد التى حفرها الزمن فى وجهه وهو يبتسم وقال :

— بلدنا ؟ الشبان مايعرفوهاش ياافندى . بيرحلوا ويجعدوا فى البنادر . يبعتوهم المدارس يحوموا مايطيجوش البلد تانى . بيعدموا الصحة حداك والمال كان .

وتحمس فدق الأرض بالعصى وقال « بجالى سبعين سنة عايش فى

الأرض ما هجرتها يوم . وأروح فين ؟ »

وابتسم ووقع كلامه من قلب إبرهيم فقال :

— وهل كل الفلاحين مثلك ؟

— إيوه . زيى ؟ لع ! ماحد زيى ؟ شبان الزمان ده كيف يبجوا زيى ؟ ماطيج أفوت ريحة الأرض .

وضحك الرجل أو على الأصح انفرجت شفتاه عن فمه الذى عاد أدرد كالكهف الخاوى وقال :

— آنه زى البجر اللى تهزل وتهبط لما يتغير المرعى .

ثم رفع يده التى فيها العصا وقال مشيراً إلى نوافذ السلاملك :

— بينادم عليك يا افندى .

فتركه إبرهيم آسفاً ولم يتحول إلى السلم بل قصد إلى نافذة غرفته مخترقاً إليها الحديقة ، وطاف برأسه العجب من أن تأسر الأرض رجلا كهذا ، وتقيده إليها سبعين حجة ، ماأقوى هذه الأرض التى لا يعود رجل مثله يطيق فراقها أو حرمان رائحتها ! وأدار عينه فى الحديقة وهو سائر لا يلتفت إلى شوشو التى كانت تشور له أن يرتد ويتحول ، ورمى طرفه إلى المساحات المترامية وراء السور ، ثم رده إلى جمال الغصون وسحر الألوان إذ تخفق الأفنان فى ضوء الشمس . فلم يعد عجيباً أن يتدفق حب هذه الأرض فى عروق أبنائها ويجرى مع دمائهم ، وهم الذين يفلحونها ويتعهدونها بما يزيدها خصباً ، ويرصدون لها عيونهم وقلوبهم حتى يعودوا من فرط إلفها لا يطيقون أن يبرحوها وأن تخطىء لحاظهم غضارتها ونضارتها ، وخضرتها الندية وشمسها الدافقة الحرارة وجوها الطليق ونسيمها العطر ، ومطرها المنهمر وسحبها المتكاثفة طبقات بعضها فوق بعض ، وماشيتها ، وكل ما حفلت به من حيوات صغيرة وكبيرة لها كل ساعة بل كل لحظة تجديد .

وصار تحت النافذة فأومأ لشوشو وقال :

ـــ من هنا . أطعميني من هنا .

فابتسمت . ما أحلى وجهها وأعمق عينيها ! لم يرها قط أصبح ولا أجمل منها اليوم . وكانت عينها تنتقل من الطعام إلى الأرض ثم قالت :

ـــ ولكن كيف أستطيع ؟ تعال إليّ . هذا أحسن .

فهز رأسه مصراً وأعلن إليها اكتفاءه بلقمة وقطعة من الجبن أو بضع زيتونات ، واهتز كيانه سروراً بتناول الطعام على هذه الطريقة . وراق خياله أن تلقى إليه شوشو باللقمة بعد الأخرى ، وأن يتلقف ما تلقى ، بل أن تفلت اللقمة وتخطئها كفه وتقع فيلتقطها ويلتهمها بكل ما يعلق بها ، ولكن شوشو كانت تهم أن تلقى إليه برغيف كامل حشته ما لا يعرف فصاح بها :

ـــ لا لا . لقمة لقمة . من فضلك .

فرمت إليه نظرة دل واغتباط ، وضحكت وراحت تطعمه على نحو ما أراد وهو يشعر بالحاجة إلى التوثب والقفز ، ولا يكاد يطيق الوقوف على قدميه . وكانت ربما أوهمته أنها ملقية إليه باللقمة فيمد كفيه ليتلقاها فتخيب أمله ، فيضحكان ويكون هذا أحلى وأمتع .

ولما أصاب كفايته من الطعام ، قال لها :

ـــ ليس فى الحديقة أحد غير هذا الشيخ الهرم . فانزلى إلىّ .

فنظرت إليه مفكرة ، ثم حنت على النافذة وأطلت بوجهها وصدرها وتلفتت ، وكأنما اطمأنت فقالت :

ـــ من هنا ؟ أتلقفنى إذا هبطت إليك ؟

فصاح يردها وقد خاف أن تجازف :

ـــ كلا . تعالى من السلم الآخر .

ومضى ليسبقها إلى المدخل ويستقبلها عنده . ولم تلبث أن جاءت تعدو تخشى أن تزل قدمها فى الزحاليق ، فدفع ذراعيه ليقيها العثور وهى تجرى مقبلة ، فإذا بها ترتمى بينهما ، فكاد يقع بها ولكنه كان قريباً من الحائط فاعتمد عليه بكتفه ، ولو كان الأمر إلى شعوره وإلى ما يشى به سكونها بين ذراعيه من الرغبة فى البقاء ، لظل يحتضنها ، ولكنها كانت شوشو — بنت خالته وصديقته الصغيرة التى كم داعبها وهى طفلة ، وخرج بها للرياضة والنزهة ، وكم ركبت ظهره وزحف بها على البساط ! وكم دفعت كفها الصغير فى جيوبه باحثة عن الشكولاته والحلوى واللعب الدقيقة التى اعتاد أن يشتريها لها ويبقيها معه حتى تتاح له فرصة يقدمها إليها فيها من غير أن ترى أختها الأخرى ! وكم تسللت إلى سريره وراحت تمسح له وجهه وهو نائم بيدها اللينة الدقيقة الأصابع ، حتى يفتح عينيه ويتثاءب ، فتلثم أقرب ما يكون إليها منه ، وكثيراً ماقبلت اللحاف ، ثم تضحك ، فيبتسم ويعجب كيف لايغضبه منها إزعاجها له وإيقاظه ، وتشد ذراعه وقد تجر رجليه لينزل عن السرير ويلاعبها .

طافت برأسه هذه الصور ومئات غيرها من أيام طفولتها فاحمر وجهه ، وأنكر من نفسه أن يتركها بين ذراعيه ، ولكنها كانت كالعصفور وجد وكره واطمأن إلى عشه ، فلم يجد فى قلبه من جفوة الطبع وقسوة النفس مايشجعه على أن يدفعها بغير مراعاة لها أو اكتراث لإحساسها . فمسح شعرها بكفه - إيه ما أنعمه وأبدعه متوهجاً فى ضوء الشمس ! وهمس فى أذنها « شوشو » فرفعت إليه عينها فى فتور كأنما كانت تحلم ، فربت لها على كتفها وقال « هلم بنا » فاعتمدت على كفيها - وكانتا على كتفيه - وحملت نفسها فى تثاقل وبطء وبجهد واضح .

الفصل الثانى عشر

(فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى — طلبته فما وجدته)

لم يغمض لشوشو جفن فى تلك الليلة ، وإن كانت ـ على خلاف عادتها ـ قد بكرت فى الذهاب إلى مخدعها ، وتركت أختها نجية وحدها مع طفليها ، وزعمت أن جفونها مثقلة، وجعلت تتثاءب وتهوم وتتناوم حتى قالت لها نجية :

— قومى ياحبيبتى . لاتتحاملى على نفسك .

وكانت الأشجار ترى فى ضوء القمر من نافذه غرفتها . وأكثرها قد ذهب مع الربيع رونقه ، ولكن بعضها ، وأدناها إلى النافذة كان مورقا رفافا منوراً ، وكان ضوء القمر ينفذ إلى الأوراق الخضراء ، ويومض فى صفحاتها كأنه قطرات لامعة من الفضة . واستراحت الأطيار والضفادع إلى سكون الليل وسهوم القمر ، فانطلقت هذه تنقنق وتلك تصدح أو تصفر ، وودت شوشو فى هذه الساعة لو أنها كانت عصفوراً يذهب إلى حيث يشاء ويحلق فى الجواء ، ويسبح فى الفضاء ، ويبصر وهو ناشر جناحيه كل مابين الأرض والسماء ـ عصفوراً ينحدر على شعاع من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر ـ عصفوراً يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى فى فمه الدقيق قطرة من المطر ـ عصفوراً يحط على أعلى فنن فى أسمق شجرة ، أويهوى إلى الأرض ويخطو بين أغيصان البرسيم فتحجبه ، ويضع بيضه الصغير فى حيث يروقه أن يؤلف عشه ، ويمد منقاره إلى الماء حيث يجده وينص قطرة ويتلفت — عصفوراً لايغير ثيابه ولايبدل أفواف ريشه ولا يكون فى رأى العين مع ذلك إلا جميلا . آه إنه روح الكون ولا شك فى العصافير والسحب — سابحة تجوب الآفاق — وفى الأزاهر والأشجار التى لا تكون إلا عطرة ولاتبدو

الإحالية مونقة ولا يعتورها قلق ولا يساورها اضطراب . آه ! لماذا تقلق النفس ؟ لأى شيء تطلب ماليس فى اليد وتريغ أن تحس وأن تعلم وتبغى أن تحب وأن تحب ؟ ؟

ولما بلغ بها التفكير هذا المدى اعتمدت بكوعها على النافذة واتخذت من كفها كأساً لذقنها . لقد تغيرت الدنيا كلها فى عينها فى يومين اثنين ، لا بل فى يوم واحد . نعم كانت تحب إبرهيم من قبل كما كان يمكن أن تحب أخاها لو أن لها أخا ، غير أنها لم تكن تحس بمثل هذا الحنين إليه . ولا كانت تصبو إلى مشاطرته كل شيء بل إلى أن تهبه روحها وتمنحه نفسها وتسليه وتحميه وتفوزمنه بالروح والراحة — الراحة ؟ من أى شيء ؟أهذا هو الحب الذى تصفه القصص الفرنسية التى قرأت منها عشرات وعشرات؟ كلا ! تلك حكايات لفقها الخيال النشيط ، ومن أين لكتاب تلك القصص المزورة أن يعرفوا كيف يثب القلب إلى الحلق وتضطرم النفس وتعود كالبركان الذى يوشك أن ينفجر ويقذف بالحمم ؟ أيكون الحب طاغياً عنيفاً كما تجده هى ؟ وياليت من يدرى كيف صارت تخجل ، الآن وتشعر بالنار تندلع فى وجنتيها وبالدموع كأنها ستطفر من عينيها كلما رأته بعد أن طما فى نفسها هذا العباب الزاخر وهى بين ذراعيه عند باب الحديقة ! إن لهذا الحب روعة ليست لسواه .

وإبرهيم ؟ إنه وعر مر النفس — لماذا ياترى ؟ ألا تستطيع أن تستدرجه حتى يكاشفها بما تنطوى عليه أضالعه لتحيط خبراً بدواعى هذه المرارة ؟ — ولكنه حي كثير الجهامة وإن كان من واجبي أن أعترف أنه ظريف الدعابة مليح الفكاهة حين تسلس نفسه ويصفو أفقه ، وآه من عينه على رقتها ! لم تر شوشو أحد منها ولا أنفذ ، هى عين تأخذ كل مادق وجل مما يقع تحتها فليس يفوتها شيء حتى ما هو مغيب فى الصدور . وياما كان أحلاها هنيهة على قصرها ، وأنا بين ذراعيه ورأسى على كتفه ! وماكان

أرقه وأحناه وهو ينحيني عنه وقد تصلبت عضلات وجهه حتى صار كالدمية المنحوتة من الصخر ، والورود البيضاء ترف فى حوضها كأنها مصوغة من ذوب أشعة القمر ، والبقرة التى أزعجته وأضحكتنا فى الصباح منه، مثقلة الأثداء تنظر بعيني نائمة ،والأفنان تهتز وترنح فوق رأسينا ولأوراقها حفيف مطرب ، والسماء تبدو من خلالها شتى الشكون ، وندى الصباح على وجهينا ،والسكون واسع عظيم ،وكأن الدنيا كلها فى صلاة وتسبيح،وقلبي مثلها يسبح بحمد الله . لقد كنت سعيدة ، وأظنه هو أيضاً كان سعيداً على الرغم مما كان فى وجهه . . . ما أشد سحر هذا الحب الذى يجمل الدنيا ويفيض عليها من الفتنة مالم يكن لها ، ويحيلها كالحلم اللذيذ لا بل كالصوت الجميل ـ كالنغمة العذبة ـ كالغناء الملائكى . لكأن روحى هائمة مع روحه الآن . . . لم تعد روحى فى بدنى . . . فليتها تظل معه هائمة ، فما أريد أن ترتد إلى جسمى . . . لست أبغى أكثر من هذا . أبداً . أبداً ! إيه أيتها الغبطة ، نشدتك الحب إلا ما بقيت معى ! لا تنقضى . . . لا تذهبى عنى !

ولكنه يفزعنى . سبحات عقله تخيفنى . . . ووثبات خياله ترعبنى فأتضاءل وأتضاءل حتى أحس كأنى لم أعد شيئاً ! ما أقساه حين يفتح عينيه كأنما يريد أن يلتهم بهما الدنيا. ويروح يتكلم كأن ليس معه أحد . لا يحسنى فى تلك اللحظات ولا أظنه يرانى ، ويخيل إلى أنه يبصر ما ورائى من خلال بدنى . . . وانتفضت كأنما سرت فى جسمها رعدة فلفت شملة الصوف التى كانت على كتفيها وجمعت أطرافها على يديها فوق صدرها ومضت إلى السرير وقعدت وتنهدت ، وقد طاف برأسها أن هناك سراً هو علة هذه الأطوار الغريبة من إبرهيم . فإن له ساعات يطول فيها وجومه فلا تتحرك حتى شفتاه ، وأحياناً ينفجر هاضباً بما لا تكاد تفهمه فيحيرها ويروعها ، وطوراً تنبسط نفسه إلى الحياة والدنيا وتهش روحه فلا يكاد يطيق

جسمه، وطوراً آخر يضحك ويلعب كأنه جديد فى الدنيا لا يعرف إلا صفحته المشرقة - ليس كل هذا عفواً! ترى ماذا يجن فى صدره هذا؟ ألا يمكن أن أعلم؟ كلا! لا أمل. فإنه كتوم، كتوم متكبر كما يقول، يعد الإفضاء بما فى نفسه ضربا من الشكوى. وكل شكوى عنده ضعف لا يليق بالرجل. وا أسفاه. لن أعرف أيحبنى كما أحبه؟ لن أسمع اللغة التى أود لو يخاطبنى بها. لغة الحب المجنحة. لغة القلب النارية. كلا لا أمل فى هذا أيضاً. لأنه شىء ينكره خلقه الوعر.

واشتهت أن تقول بشجوها وأن تصب فى أذن إنسان ما، حديث حبها، وأن تطرح عن قلبها ثقل هذا الكتمان. ولكن لمن؟ ألأختها؟ وا أسفاه! إن هذا يكون جنونا مطبقاً، فما تستطيع أختها نجية أن تقدر الحب إلا بين زوجين، وحتى بين الزوجين لا يليق عندها أن يجرى كلام فيه. أختها نجية؟ إنها ليست سوى كذا قنطارا من اللحم، وما عرفت قط إلا العفاريت والخرافات. ولا عهدتها شوشو تستطيع أن تنزل عن شىء مما درجت عليه.

ووجدت شوشو نفسها تنحى على أختها كأن لها عندها ثأرا. فعجبت لهذا وأسفت وانثنت تعتذر لها بنشأتها وجهلها، ولكن أسدت الدنيا فلا سبيل إلى أحد تبثه مافى نفسها؟ وخطر لها أن أختها الوسطى سميحة أقدر على الفهم، غير أن سميحة فى الأسكندرية مع ابن عمها (زوج نجية) وعلى أن مكاشفتها بهذا الحب، مسألة فيها نظر كثير. فإن سميحة أكبر من شوشو، والكبرى تسبق الصغرى إلى الزواج، وليس بمجهول أن سميحة ما انفكت منذ سنتين تتحبب إلى إبرهيم وتحاول أن تستولى على هواه وتقتنص قلبه. وابتسمت شوشو وهى تفكر فى هذا. فما يخفى عليها أن إبرهيم لا يطيق سميحه، وأنه على الرغم مما هو معهود فيه

ومعروف عنه من ضبط النفس والقدرة على كتمان عواطفه ، لا يحاول أن يداجي سميحة أو يداريها ، ولا يتكلف أن يكتمها أنه يمقتها . فهو يحرف اسمها ويدعوها «سوسه» ولا يكون إلا سيء الخلق فى حضرتها ، بل لا يزال يفر من مجلسها كلما وسعه ذلك . وهى ؟ ؟ وا أسفاه ! لا تنهزم ولا تبالى هذه الجفوة ولا تحفل نفوره منها ، بل تزداد شداً عليه ومطاردة له ، ومع أنه سر شوشو أن تشعر أن فى وسعها أن تكون على يقين من أن « سوسه » لا أمل لها فى إبرهيم ، وأن لها « أى شوشو » أن تطمئن ، إلا أنه لم يخف عليها أن كون « سوسه » لم تتزوج بعد ، سيكظ الطريق بالعقبات والمصاعب ، ويجعل أملها هى ، أى شوشو لا أقرب ولا أيسر . فنكست رأسها وقد اغرورقت عيناها وزايلتها الغبطة التى كانت تحسها ، وحل محلها الاكتئاب ، وبدأ اليأس يدب فى صدرها فأحست أنها توشك أن تختنق . ماذا تصنع ؟ أين القلب الذى يمكن أن يعطف عليها ويرثى لها فى هذه المحنة ؟ بل أين المخلوق الذى تستطيع أن تبيحه دخلتها وتفضى إليه بسرها ؟ لا أحد ! وهالها أن تشعر بالوحدة فى هذا العالم الزاخر ، وأن ترى إلى أى حد أصارها حبها لإبرهيم مستفردة . وفى هذه اللحظة فقط أدركت أن حولها أربعة جدران سميكة ، وأن هذه الجدران الأربعة — من ورائها ومن قدامها وعن يمينها وشمالها — محيطة بها مسدودة عليها فى حيثما تكون من الأرض . لماذا خلقها الله فى مصر ؟ ؟ لماذا يضرب عليها هذا الشقاء ؟ حتى إبرهيم لا يسعها أن تذهب إليه وتقول له : « إنى أحبك » كلا ! هذا أيضاً مستحيل . لأن التقاليد والآداب تأبى ذلك . وإنها لواثقة الآن أن إبرهيم يحبها وأنه يتمنى لو استطاع أن يعلن إليها حبه ، ولكنه مثلها تقيد لسانه التقاليد والآداب . وما أدراها ؟ لعله الآن — فى هذه اللحظة بعينها — تؤرقه الحيرة والكمد — إلا أن فى هذا لعزاء لقلبها . وبحسبها أن تعلم أنه مثلها موجع مكروب مهموم مؤرق . ولكن من يدرى ! حتى هذا العزاء

التافه فيه شك كبير ! ألا تستطيع أن تذهب إليه وترى ؟ ؟ وا أسفاه ! كان هذا أمس — أمس فقط — ممكناً ! لشد ما يتغير كل شيء في يوم وليلة ، بل في ساعة واحدة ، لم تكن أمس قد انتهت إلى الاعتراف والإقرار فيما بينها وبين نفسها بهذا الحب ، فلم تكن تخجل أن تجرى إليه وتدفع الباب في جرأة وتوقظه إذا كان نائماً ، وتجره من رجليه ؛ وتمازحه وتداعبه . وتكون معه كما تكون الأخت المدللة مع أخيها الذى يحبها ، أما اليوم ، فقد سد شيطان الحب هذا الطريق . ولكن لماذا ؟ لا تدرى ، وكل ما تدريه هو أنها صارت تستحي حتى أن تلقاه بعد أن عرفت ما في نفسها له .

ولكن ألا سبيل مع ذلك إلى معرفة ما تصبو إلى معرفته ؟ ألا يمكن أن توفد . . . من ؟ فاطمة ؟ ليس ثم غيرها . إنها أمينة مخلصة وفيها وفاء . وانشرح صدرها فتسللت من غرفتها إلى حيث فاطمة نائمة . وكانت ملفوفة في لحافها ولا شيء يبدو منها ، فكشفت عن وجهها وجعلت تحركها حتى أيقظتها . وأشارت إليها أن تتبعها في صمت . ولما صارتا في غرفة شوشو قالت فاطمة وهى تفرك عينيها :

— نعم يا ستى .

فابتسمت لها شوشو ودنت منها ووضعت كلتا يديها على كتفيها وقالت :

— أريد منك أن تذهبى إلى السلاملك وتنظرى ماذا يصنع إبرهيم .

فأفاقت المسكينة جداً ودقت صدرها بكفها وقالت: « أنا ؟ أنا ياستى ؟ »

فأسرعت شوشو تزجرها عن رفع صوتها وقالت : « هس . لا تدعى أحداً يسمع . نعم أنت ، وما الضرر ؟

قالت : « الضرر ؟ أتريدين أن يقتلنى ! إن سيدى إبرهيم صعب . لا ياستى ! »

قالت شوشو : « لا عليك . سأعطيك فستانى الأخضر . إنه جديد » .

فقالت فاطمة وهى لا تفهم: « ولكن لماذا لا تذهبين انت ؟ » .

نعم لماذا لا تذهب هى ؟ ؟ يا ليت من يدرى كيف صار هذا عسيراً ؟

ورأت فاطمة أن ستها شوشو واقفة مطرقة وفى وجهها سهوم غريب ، فأدركها العطف على ستها ، ولكن خوفها من إبرهيم كان أعظم من رثائها لشوشو فقالت :

— ثم أنه لا يليق ياستى أن أذهب إليه فى الليل هكذا ؟ هذا عيب ! ماذا يقول عنى ؟ لا لا يا ستى ؟ أتريدين أن يقتلنى سيدى الشيخ ؟ .

ولكن هذا العذر الذى تقدمت به فاطمة لتنجو ، هو بعينه الذى هون الأمر على شوشو ويسر لها الحل فقالت :

— لن تذهبي وحدك . فسأرافقك . وأقف فى الصالة وأنت تتقدمين إلى الباب وتفتحينه بلطف وتنظرين . فإذا سألك أو زجرك أسرعت إلى نجدتك . افعلى لأجل خاطرى يا فاطمة .

— ولكنه لا شك الآن نائم ياستى .

— لا لا لا .

— كيف تعرفين ؟

وزادت دهشة الخادمة وصار اللغز فيما ترى أعوص ، ولكنها ليست مطالبة بالتفكير ولا بحل الألغاز ، وتذكرت الفستان الأخضر وأن سيدها لم يشتر لها فى هذا الشتاء كسوة ، وسيدتها نجية لم تخلع عليها شيئاً من ثيابها القديمة ، فتوكلت على الله وخرجت تطلب المصباح فمنعتها شوشو . ومضيا معاً فى الظلام والبرد ، وشوشو تسأل نفسها : «ما آخر هذا الحب يا ترى ؟» .

الفصل الثالث عشر

« عهداً قطعت لعيني فكيف أتطلع إلى عذراء ؟ »

ما آخر هذا الحب ؟

فى هذا كان إبرهيم أيضاً يفكر تلك الليلة ، وهو مضطجع على سريره فى الظلام ، وكان لا يستريح إلى النور إذا ثقلت على كاهله وطأة الحياة ، أو ألح عليه إحساس أو خاطر ، كأنما يخشى أن يفضح النور له سراً ، أو يهتك لما يخفيه ستراً ، وكان امرءاً لا ينفك يغالب نفسه حتى يقهرها أو تقهره قبل أن يستسلم لعاطفة أو فكرة ، وكان مذ أوى إلى مخدعه ، يدخن سيجارة فى إثر سيجارة ، وكان يشعل الجديدة من القديمة . ولا يجد للدخان طعماً ، ولا يفيد منه سروراً ، وأراد أن يشغل نفسه أو يلهيها عما يكظ شعابها ، فشرع يلتمس تعليلا لفتوره هذا عن التذاذ الدخان ، فزعم لنفسه أولا أن الحواس - ولا سيما حاسة النظر - هى التى يرجع إليها الارتياح إلى التدخين ، وأن المرء إنما يعتاد فى الحقيقة أن يرى الدخان يتلوى ويعقد سحابات صغيرة بعد أن ينفخه بفمه ، وأن يشعر بالسيجارة بين أصبعيه وبين شفتيه ، ولكن المهم هو رؤية الدخان ، لأن العين أهم الحواس وأوثقها اتصالا بالدماغ ، وأقدرها على إفادة الصور الذهنية .

ولكن هذا التعليل - على قربه من الصواب - لم يقنعه ، ووجد إبرهيم نفسه يتساءل : « هب النور مضاء ، ومعى . . . شوشو ، أكانت أنظر إلى الدخان خارجاً من فمى ومتلوياً فى جو الغرفه ، أم إليها هى ؟ » وغضب لما رأى نفسه يكر إلى ما يريد أن يتلهى عنه ، وقال فى عناد : « حسن . فلنواجه الموضوع » .

وواجهه فى حزم وشجاعة واستعداد لاحتمال النتائج : لقد تحول حبه لشوشو من أخوى إلى جنسى ، ذلك مالا شك فيه ، فهل له أن يأمل أن يفوز بها ، وأن يقنع أهلها أن يزوجوه منها ؟ كلا ! فإن فى الطريق تلك البنت الخبيثة التى لا تحجم عن كل شر إذا هم أهلها بأن يقدموا شوشو عليها . وستكون النتيجة أن تشقى شوشو ، وهى ستشقى على الحالين ، ولكن أهون الشرين أن تيأس من الآن ، والعاطفة غضة لم يستفحل أمرها ، ولم يستعص علاجها .

وهو ؟ أوه . ليست هذه بأول عاطفة احتاج أن يخنقها ! وإنه لعذاب . وإنه ليحس كأنما يقتلع أحشاءه مع العاطفة التى يحاول أن ينزعها من قلبه . وطاف برأسه قول ابن الرومى :

« وقع السهام ونزعهن أليم »

فقال : « صدق المسكين » ، وود فى هذه الساعة لو أن معه ماطبع من ديوانه ، إذن لقضاها ليلة طيبة مع هذا الشاعر المنكود الحظ ، الذى ألهبته الحياة بسياط من نار ، وكربته الخواطر فراح يتساءل : « ما الحب ؟ وما الشهرة والخمول ؟ وما السعادة والشقاء ؟ وما الحياة نفسها ؟ » وأعياه أن يهتدى إلى جواب مريح — وأى جواب آخر سوى أنها عناء وباطل ليس يجدى . وليس هذا بجواب ، وإنما هو همسة الضعف ، ووسوسة العجز . وصحيح أن الحياة لا فرق عندها بين سعيد وشقى ، ومجدود ومكدود ، ومعروف ومغمور ، وعاشق وخلى ، وحيوان ونبات أو جماد ، ولكن هناك فرقاً بين إحساسات المرء بوقع الحياة ، والمرء ليس الحياة حتى يطلب منه أن يكون نظره إلى الأشياء كنظرها هى ، واعتباره لها كاعتبارها .

« والخلاصة ؟ » وجلس إبرهيم على السرير ورد على سؤاله : « والخلاصة

أنى لن أذوق النوم فى لياتى هذه على ما أرى ؟ » وضايقه أن يكون أكبر ظنه أن يقضى الليل المقرور أرقاً ، يناجى نفسه ويحاورها ويداورها على غير طائل . وتوهم أن ليس عليه إلا أن يعتزم النوم وإلا أن يريده فينام . فانطرح على السرير وتغطى وأغمض عينيه وراح يتنفس بانتظام محاولا أن يتق التفكير فى أى شىء . ولكن جهد اتقاء التفكير كان كجهد التفكير نافياً للنوم ، لأنه جهد على أى حال ، فخطر له أن يوحى إلى نفسه أنه سينام وجعل يكرر « سأنام » حتى قالها أكثر من ثلاثين مرة ، ثم ضحك فجأة وقد تذكر أنه كان مفتوح العينين وهو يردد هذا اللفظ . ولم يكن ضحكه إلا حركة عصبية لاعن سرور نفس ومراح ، فما عتم أن تجهم وهو يسأل نفسه « وبعد ؟ » وضاق صدره إذ لم يسمع مجيباً له على سؤاله . فطرح الغطاء بعنف كأنما كان هو علة أرقه ، ووثب عن السرير حتى إذا استقر على رجليه تلفت وقال : « ترى أين المصباح ؟ » ولم يسعه على كل مابه إلا أن يبتسم . أترى تجربة الأمس ستعاد ؟ البقرة البارحة - ترى ماذا صنع الله بها - والليلة المصباح ؟ وألفى نفسه يعجب لحياة الريف التى لم ير منها شيئاً إلى الآن ، ويقيسها - متحاملا عليها - إلى حياة المدن . ولكن دقته وما فطر عليه من العطف الذى تؤدى إليه سعة الأفق والقدرة على الإحاطة بالجوانب المختلفة - ردته إلى الإنصاف . فمضى يقول لنفسه إن المفروض أن المرء فى المدن يصنع مابدا له ، ولكن استبداد العادات والتقاليد يقضى على كل نزعة إلى التحرر ، ولا يدع للمرء مفراً من النزول على حكم هذه العادات والتقاليد ، أما هنا فى الريف فالحياة أشبه بمناوشات مستمرة ؛ فالمرء يجد نفسه مثلا يتناول طعامه وحده فى أية ساعة . وقد تظمأ فى الليل فتجد القلة فارغة أو لاتجد القلة على الإطلاق ، وهذا الشيخ على ، على كثرة ما أنفق على بيته هذا - بناء وتأثيثاً - لم يعن بأن يعلق مصباحا فى الغرفة يتدلى من سقفها ، فمرة ينام المرء على مصباح يضاء بالبترول ، ومرة لايجد إلا قنديل زيت أو

شمعة ، وقد لايجد شيئاً من هذا كله . ويذهب المرء إلى الحمام فلايستطيع أن يوصد الباب ، إذ لامفتاح ولا رتاج ، وهذا عجيب ، إذا ذهبت تعتبر أن الشيخ على كلف نفسه أن يجهز الحمام بحوض كبير ، وقد تكون فى الحوض عارياً فيفتح الباب خادم أو واحد من هؤلاء الفلاحين الذين لايدرى إبرهيم أهم خدم أم أقارب أم من عمال الأرض . والواحد يذهب إلى حيث يشاء فى الليل أو النهار ، فلا يسأل أحد فيما يرى إلى أين أو لماذا أو متى تعود ؟ وأدهش إبرهيم أنه لا يعلم أين يبيت هؤلاء الرجال الذين يبصرهم فى النهار رائحين غادين ، وداخلين خارجين ، وأدهشه فوق ذلك أنه لا يرى أحداً يقلقه اختفاؤهم دفعة واحدة ، بل لا أحد يذكرهم أبداً . ولم يذكر إبرهيم أنه رأى أحدا يلعب شيئاً خارج البيت ـ كل ما رأى من الألعاب ، وهو لايعدو الورق أو الطاولة ، يؤدى داخل البيوت وعلى الكراسى أوالوسائد . ولم يعجب إبرهيم لهذا ، فإن الزراعة رياضة كافية . وما حاجة الفلاح الذى يقضى يومه عاملا فى الحقل إلى كرة أو متوازيين ؟ ولم يسع إبرهيم إلا أن يعترف على الرغم من كل ذلك بأنه يشعر أن هنالك روحاً تمسك البيت وتحفظ عليه وحدته ـ روحا أو لعلها فتاة فى ثوب قان من الصوف . . . آه شوشو مرة أخرى ! تالله ما ألح هذا الخاطر وأشد تشبثه بالنفس ! أتراه هجر السرير فى هذا الليل المقرور ليعود إلى التفكير فيها ، أو لم يفرغ من هذا الأمر ؟ ألم ينته منذ لحظة إلى وجوب القنوط والإقناط ؟

وقطع عليه تفكيره صوت تهامس خافت . فأرهف أذنيه وتسمع ، وكانت حاسة السمع عنده قوية . فخيل إليه أن إنساناً يخلع نعليه . فهز رأسه ومشى على أطراف أصابعه إلى الباب ووقف بجانب الحائط يترقب ويفكر : ما العمل إذا كان هذا الطارق لصاً ؟ ليس معه سلاح يدفع به عن نفسه ، ولا هو قوى مفتول الساعد فيستغنى بقوته عن السلاح ، فماذا يصنع ؟ وأهم

فى هذه اللحظة أن يستغل الظلمة ، فعاد إلى السرير فسحب اللحاف عليه وسواه كأنه نائم تحته ليوهم القادم ، ورجع إلى حيث كان بجانب الباب واعتزم أن يدع اللص - إذا كان لصاً - يدخل فى سكون ومن غير أن يعترضه . وأن يتسلل هو فيخرج ، وإذا وسعه فوق النجاة بنفسه أن يوصد الباب على الضيف الثقيل ويغلقه بالمفتاح ، كان ذلك خيرا .

وسمع قرقعة كأنما داس اللص المحتمل على بندقة فارغة ، فابتسم وقال لنفسه : « سيكون هذا الظلام عونى وحليفى » ، ولكن صوت القرقعة تلته صرخة خافتة مكتومة ، فحيره ذلك ، لأن هذا الصوت قد يند عن طفل أو امرأة أما عن رجل فلا . ونازعته نفسه أن يطل برأسه ولكنه استحمق هذا الخاطر فطرده ، ولم يطل وقوفه وانتظاره فقد بدأ مصراع الباب - وكان مواربا - يتحرك ببطء شديد حتى لامس الحائط منه شيء فعض إبرهيم شفته وأدرك أن المفتاح من الداخل. إذن لن يوصد الباب على هذا الواغل ؟ وليس من الحزم أن يعالج إخراج المفتاح ، والواغل منه قريب . فلم يبق إلا أن يترك كل شيء للحظ ولإلهام الموقف ، وعليه أن يحافظ على هدوئه واتزان أعصابه ليتأتى له أن يتصرف بحكمة .

وأطل شيء كالكرة الحمراء فلصق بالحائط جدا ، وحدق فى هذه الكرة العجيبة التى بدأت ترتفع حتى حاذت رأسه ، وامتدت ذراع ، ليس لها كف ظاهرة ، إلى الحائط الآخر ، وكأنما اطمأن صاحب هذه الأعضاء الغريبة ، فخطا بجرأة . فما أسرع ما غير إبرهيم ما كان قد صمم عليه ، فأهوى الى ساق الداخل وجرها بقوة فوقع صاحبها على وجهه وندت عنه صرخة أيقن منها إبرهيم أن هذه امرأة . فحمد الله على أن حماه عار الفرار من امرأة، وحنق عليها لأنه كان يوشك أن يبدو لها جبانا ، وتقدم إليها فى ثبات وركلها برجله وصاح بها : « قومى أيتها اللعينة » .

فتوسلت إليه المسكينة : « فى عرضك يا سيدى . فى عرضك »

فشد ذراعها بعنف وقال :

ــ ماذا تصنعين هنا يابنت الكلب ؟ انطق ! وركلها برجله .

فلم تقدر المسكينة على القيام وجعلت تكرر وهى تنتحب «فى عرضك » وغاظ إبرهيم أنها تبكى وأنها لا تزيد على التوسل، وأنه لن يقف على سر هذه الزيارة ، فكاد يجن وقبض على عنقها وهو يصيح :

ــ سأقتلك إن لم تنطق . قولى ماذا جاء بك ؟

ــ أنا !

فخلى عنقها وانتفض قائماً ينظر إلى مصدر الصوت فى مدخل الباب ، ثم دفع فاطمة برجله وقال : « قومى هاتى المصباح » ومضى الى الكنبة فى سكون .

وقالت شوشو وتقدمت إليه « معذرة يابن خالتى . لا داعى للمصباح .. أنا أرسلتها إليك ورافقتها حتى لا تخاف »

فلم يدعها إلى الجلوس ، وقال فى جفوة متكلفة :

ــ أريد أن أفهم معنى هذا .

فارتبكت شوشو ، ولم يكن شىء من هذا كله مما تتوقع ، ولم يخف عليها أنها كانت طائشة فيما فعلت ، وأنه مصيب فى سؤاله محق فى غضبه ، ولكنها على عادة جنسها نسيت ذلك وتعلقت بلهجته الجافية فحزت فى نفسها وسالت الدموع على وجنتيها ، ووقفت ترد النشيج بجهد ، ولم يكن إبرهيم ملتفتاً اليها لأنه آلى أن يتكلف الجفوة ، وأتيحت له الفرصة فاغتنمها ولم يكن هذا بالهين ولكنه كان الواجب فى اعتقاده فلم يتردد ، ومضى يقول لنفسه وهو جالس لا ينظر إلى شوشو : إن الحياة كالنظر إلى الظلام . والمرء لا يعرف

أى شىء هذا المقبل عليه وإنما يخمن ويقدر ، كما يقدر فى الظلام ويخمن أى شجرة هذه التى تصادفه فى طريقه ، وكما يحاول أن يتبين وهو سائر هل بلغ شفا شىء . . والإنسان وحده هو الذى يفكر ويتبرم ويعنى نفسه بهذا وذاك - بالحياة والموت ، وبالمستقبل ، وبالنور والظلام ، وبالحب والبغض ، لقد كنت فى الصباح مع شوشو هذه فى الحديقة ، وما زلت أذكر وهى على صدرى تلك النحلة الصغيرة التى طارت فوق رأسينا ومضت إلى الحشائش وغرزت رأسها فيها وراحت تنام وقد أنهكها الطيران وأضناها مص الورود - ألقت رأسها فنامت . فياليت أنا كهذه النحلة نحيا كل لحظة أتم حياة ، فإذا تعبنا ألقينا رءوسنا ونمنا . أما لو أن شوشو ليست هنا الآن ! . . مسكينة شوشو . واقفة وحدها فى الظلام تحدق فى سواد اليأس الذى لا يتخلله عرق واحد من النور . . مسكينة مسكينة »

ونهض ومضى إلى النافذة ففتحها وأطل منها . فتضوع إلى أنفه نسيم الروض العطر . ولم يكن يرى شيئا ولكنه لم يشك فى أن كل ورقة على غصنها ، وكل زهرة وكل عود نابت - كل أولئك متآمر أن يذيع كل ما فيه من عبير وعطر ، وتنهد وهو يحدث نفسه أن كل هذه الحيوات الصغيرة متحابة متعاشقة . وإلا لما انسق جمالها كل هذا الاتساق .

وأغلق النافذة وعاد فلم يجد أحداً فى الغرفة .

الفصل الرابع عشر

«حبيبي نزل إلى جنته ، إلى خمائل الطيب ليرعى بين الجنات ويجمع السوسن »

— ١ —

كان أول ما رآه إبرهيم من حياة الريف — غير ما فى البيت الأنيق الذى شاده الشيخ على — أحمد الميت راقداً فى حظيرة البهائم ، وكان إبرهيم قد اعتزم أن يقلل من المكث فى البيت وأن يكثر من الخروج إلى الحقول والتجوال فى القرية ، على الأقل فى النهار حتى يجىء الشيخ على من الإسكندرية ، فقادته رجلاه إلى هذه الحظيرة وهو لا يدرى .

وكان أحمد قد سكر فلما بلغ الحظيرة عرج عليها وارتمى فيها ، ولم يكن يدرى لا هو ولا سواه كم ساعة قضاها هناك راقداً يغط ، بعمامته وجلبابه الأسود وحذائه الأصفر الشامى ، وعلى أنه لم يكترث لذلك . بل لم يكن يبالى كم ساعة أخرى يمكن أن يقضيها هناك .

ولم يكن منظر هذا السكران الطافح بالغريب على ما يظهر فى القرية ، يدل على هذا أن إبرهيم رأى قريباً من رأس النائم حجراً منصوباً كأنما أراد واضعه أن يتماجن على النائم — وشهرته الميت — فرفع عليه حجراً كالذى ينصب على القبور ، وفيما عدا هذا الماجن المجهول لم يتبين إبرهيم أن أحمد أزعجه أحد آخر ، إذا استثنينا حماراً كان مطلقاً فى الحظيرة وكان لا ينفك يدنو من هذا الراقد ويشمه كأنما يحسبه بعض المداود أو بعض ما يوضع فيها . يضاف إلى الحمار كلب — لم ينس إبرهيم أنه رآه ليلة جاء

إلى هذه القرية — مستلقياً عند قدميه ولا يزال يرفع رأسه فتقع الشمس فى عينه فتختلج جفونه .

وقف إبرهيم ينظر إلى هذا « الميت » ويفكر فيما ينبغى أن يصنع ، ويعجب للشيخ على كيف يتخذ مثل هذا المجنون السكير وكيلا له ويعهد إليه فى الإشراف على شئون ضيعته . ثم تقدم فدفع الحجر برجله فألقاه ، ولاحظ أن عمامة الرجل على الأرض وأن رأسه عار وأن أشعة الشمس واقعة عليه ، وظن أن هذا قد يؤذيه فالتقط العمامة وغطى بها جبينه وعينيه وترك له فمه وأنفه ليتنفس ، ولم يجد أن فى وسعه شيئاً آخر فأولاه ظهره ومضى ، ولكنه تلفت مرة قبل أن يخرج . فإذا بالعمامة على الأرض مرة أخرى وإذا بأحمد الميت قاعد يقول كلاماً غير مفهوم .

والحقيقة أن أحمد الميت — على خلاف أكثر أهل الريف — لم يكن يطيق أن ينام وعلى رأسه غطاء ، ولعله يؤمن فى أعماق نفسه بفائدة الشمس للجسم ولا يخشى وقوعها حتى على رأسه ، وكان منذ حداثته يأبى أن يضع على رأسه شيئاً وهو نائم ، ولكنه وهو قاعد ورجلاه ممدوتان لم يستطع أن يفضى إلى إبرهيم بعقيدته هذه ولا أن يبين له أن تلك عادته ، ولم تنفرج شفتاه إلا عن تمتمة غير مفهومة ، فكز إليه إبرهيم وزجره وأمره أن ينهض الى بيته إن كان له بيت غير هذه الحظيرة .

فنهض أحمد الى قدميه وسأل إبرهيم :

— البيت ؟ لماذا أذهب إلى البيت ؟ .

ولم يكن هذا بالسؤال الذى يلق على إبرهيم ، ولكنه مع ذلك قال له وهو ممتعض من منظره :

« اغسل هذه الأقذار عن جسدك أيها البهيم القذر » .

ولم يكد يقولها حتى كان أحمد الميت يخلع ثيابه ويقذف حذائيه ويعدو فى

فى قيصه وسراويله المصفرين ، إلى النهر . فدهش إبرهيم وأيقن أن الرجل لامفر له من الغرق ، ولما كان لا يدري كيف ينقذه فقد بدا له أن يرجع إلى البيت ويخبر من فيه .

— ٢ —

دفع إبرهيم باب الحديقة الخلفى بقدمه ، وانثنى إلى اليسار ثم وقف . ذلك أن شوشو كانت حانية على حوض الزهر تقطف زهرة من أزهار الأراولة وظهرها إليه . فعض شفته وخطر له أن يتراجع غير أنه خشى أن تنتبه ، فظل واقفاً وقد بدأ المنظر يروقه ؟ فقد نفخت شوشو الزهرة لتطير عنها الحشرات ، ثم قبلتها ثلاثاً وراحت تنزع غلائلها المستطيلة المتحازية على مدار كأسها ـ واحدة واحدة ـ وتلقيها وهى تقول على التوالى : « نعم . لا . نعم . لا . . . » فوافقت « لا » آخر ورقة ، فتجهم وجهها وتفلت مابقى من الزهرة من بين أصابعها إلى الأرض ، ولبثت هنيهة جامدة لا تتحرك ، ثم أهوت على الحوض فجأت واقتلعت زهرة أخرى وأعادت التجربة فكان ختامها « نعم » فى هذه المرة ، فلم تكد تقوى على الوقوف ساكنة وراحت تدب برجليها ، وتضم كأس الزهرة إلى فمها بكلتا يديها .

ثم كأنما طاف برأسها أن الكفتين متعادلتان وأن « نعم » يقابلها « لا » فالمسألة لم تتزحزح عن موضعها الذى كانت فيه من قبل ، فلا بد من تجربة ثالثة للترجيح ، وشكت فى أنها بدأت التجربة الثانية كما بدأت الأولى « بنعم » فقد يكون عدد الغلائل واحداً فى كل زهرة من هذه الأزهار ، فإن كان هذا هكذا فلا شك أن النتيجة تختلف تبعاً لاختلاف ماتبدأ به ، وإذا صح أن البدايتين اختلفتا ، وأن عدد الغلائل واحد . فهل غشت إلا نفسها ؟ وهل يمكن أن تكون النتيجة إلا واحدة فى كل مرة ؟

ولكن هل الغلائل عددها متساو ؟ هذه هى المسألة ! وحلها

حنت على الزهر فقطعت اثنتين ومضت تشد الورق وتعـــد ، فاختلف الرقمان ، فتهلل وجهها وبدا السرور فى وقفتها وحركاتها ، فقد صار التجريب معقولا . والأمر متروكا للمصادفة والاتفاق ، وليس مما يسهل العلم بنتيجته من غير أن يتكلف المرء قطف الزهر وإفساده بنزع ورقه، وصاحت «لنبدأ من جديد».

فعلم إبرهيم أنها محت التجربتين وأسقطتهما من حسابها ، وراحت تنزع الورق فى تؤدة وأناة وتثنى رأسها على صدرها فى كل مرة ، حتى بقيت ورقة واحدة قالت من غير أن تنزعها : نعم «طويلة ممطوطة كأنها الصعداء تتنفسها وتحط بها عن كاهلها وقرا ، ثم وقفت ساكنة لاتصنع شيئاً ولاتتحرك ، ورأسها مثنى على صدرها وعينها ترنو إلى الكأس الذى لم تبق على حافته سوى ورقة واحدة ، وفى وجهها طول ، وفى هيئتها استرخاء وكأن جسمها موشك أن يتهافت وأن يهوى إلى الأرض كوما مفكك الذرات.

فعجب إبرهيم لهذه التى كانت تطفر كالفراشة قبل دقيقة لماذا وجمت بغتة، وللنفس الإنسانية وسرعة انتقالها من المرح إلى الكآبة ، ولخفاء البواعث التى تفضى إلى هذا أو ذاك على حين تدعو الظواهر إلى النقيض ، وود فى هذه اللحظة لو يستطيع أن يرد إليها البشر الذى كان ينضح به وجهها ، والخفة التى كانت فى روحها ، والمراح الذى كان فى سلوكها ، والضحكات الكروانية والدعابة التى كانت تركب بها الحياة نفسها — فى ليلات معدودات غاب كل هذا ، وذهبت شوشو اللعوب المفراح التى لم تحتج يوما أن تفكر أو تمد بصرها إلى ماوراء اللحظة التى هى فيها ، . . ولكن هذا ليس فى وسعه ، وما هو بأحسن منها حالا ولا بأقل حاجة إلى الغوث ، نعم الغوث، ولكنه رجل مجرب وهى فتاة غريرة ، وهو قد خاض العباب وغالب التيار وتدرب على المكافحة ، وهذا أول عهدها باللجة الطامية ، وما أهول الغصص التى تعانيها وهى تغوص وتطفو وتختنق وتشرق وتدفع باليدين والرجلين وتحاول أن

تصيح طلبا للنجدة فيخرسها المـاء الذى يملأ فمها ، وتومئ فلا يراها أحد ، ومن ذا الذى يغيث فى هذا الخضم الطاغى ؟ أين اليد التى ليست فى شاغل من أمرها ؟

ومع أن ما كانت شوشو فيه ، واضح المعنى، فقد شاء إبرهيم أن يتجاهله، وارتد إلى الباب ففتحه ثم أغلقه بعنف كأنما كان داخلا لتوه، وأقبل على شوشو التى انتبهت على صوت البـاب ، وتكلف البشاشة وفى صدره أظافر تمزقه ويبسط إليها كفيه وقال وهو يسرع إليها :

— ماأبدع الجو فى البكور ! هل أفطرت ؟

فنحته كلتا يديها وسألته بصوت خافت .

— أين كنت ؟

فأبقى كفيها فى يديها ونظر إليها وقال بلا تكلف :

— ماأبدعك !

— إبرهيم !

— إنك تفرغين على الحديقة جمالا جديدا . أحب أن أخبرك أنى اليوم مجرم . لمـاذا تتراجعين ؟ أتتخلين عنى فى محنتى ؟ نعم لقـــد قتلت رجلا . لاتراعى ! إنه ليس إلا أحمد الميت ؟ غرق أو هو يغرق الآن أو لا أدرى فقد يعود إلى الحياة للمرة الثانية ! على كل حال ليست هذه أول ميتاته إن صح ما تحكون عنه .

ولمـا رآها حائرة مضطربة قص عليها ماحدث وبالغ فى الوصف فسرى عنها وأغربت فى الضحك وجعلت هى تطمئنه وتؤكد له أن لا خوف أن يقاد به .

* * *

وجاءت هى إليه بالطعام فى غرفته ، فلما جلس إليه على البساط أسندت

ظهرها إلى الكنبة فنظر إليها فقالت : « لا أحس جوعا » فالتفت إليها وقال بلهجة الجد الصارم :

— سأرخى لحيتى احتجاجا .

فقالت وهى تضحك :

— ولكن لماذا ؟ ماعلاقة لحيتك بأن آكل أو لا آكل .

فقال : « تصورى منظر قريبك وقد أرسل حول خديه وتحت ذقنه لحية كثة ! إنه منظر يوقظ الضمير النائم . وما أظنك ترتاحين إلى لقائى بعد ذلك ولحيتى فى يدى . أفهمت الآن ؟ » .

فانتفضت ، فجرها من ذراعها إلى الطعام .

وبعد أن أصابا شبعهما قال : « والآن أين القهوة يا فتاتى المهملة ؟ ألا تعلمين أن لى معك حديثاً خطيراً يتطلب كل مافى رأسى من اتزان وحكمة ؟ »

فلم تدر أهو يجد أم يهزل ، ومضت عنه ولكنها ما عتمت أن عادت لا بالقهوة بل بأدواتها : بحق البن وحق السكر ، والسبرتو ، وقعدت أمامه تصنعها .

وقال دون أن ينظر إليها بصوت لا يكاد يسمع فكأنه يتنفس أو يحدث نفسه .

« شوشو أيتها الفتاة الرائعة ، لقد رأيتك اليوم تنزعين ورق « الأراولة » وتجربين حظك أو تستوحين هذه الزهرة الفاتنة . تسألينها عن مصيرنا ... »

فتحولت إلى جانبه ولم تتكلم ، فأراح ذراعه على كتفها ومضى فى حديثه أو مناجاته .

« هممت أن أصرفك عن استنباء الزهر ، ولكنى قلت أدع لها ذكرى حميدة تنعم بها فى الأيام ... المقبلة . . أترك لها حلمها الجميل وإن كنت فى شك

من أن الأحلام ليست خطرة . شوشو ، إن أنفاسك لا تتعلق أو تحتبس حين ترينى مقبلا أو مدبراً . . »

فتمتمت فى حياء : « ولكنى أسر . . . »

فقال « ربما » (فرفعت إليه عينها بسرعة فلم يعبأ بهذه الحركة ومضى إلى غايته) « على أن هذا أشبه بأن يكون شعوراً أخوياً منه بأن يكون أ . . أ . . تعرفين ما أعنى ؟ نحن قريبان وبيننا من الود فوق ما يكون بين الأقرباء فى العادة . ولكن هذا ليس معناه أننا . . . . أننا . . . . أكثر من ذلك . . . اسمعى يا شوشو . لقد أخطأت حين جئت إلى هنا . لو كنت أعلم أن هذا سيحدث لما جئت . ولكن هذا لا ينهض عذراً لى . أنا الملوم . ماذا جرى؟ أتبكين ؟ يالله ! » . . .

وجذبها إليه فأسندت خدها إلى صدره وهى تنشج فكاد قلبه يتمزق رقة لها وعطفاً عليها وعلى نفسه أيضاً ولم يسعه إلا أن يهمس فى أذنها :

« شوشو يا فتاتى الساحرة . ازجرى العين عن بكاها . إنك تعلمين أنى أتصنع . إنى كاذب . لا أعنى ما أقول . إنى مجنون بك وسأظل مجنوناً بك . هذه هى الحقيقة وليكن ما شاءت المقادير فلن تصبو نفسى إلى غيرك »

وكان صوته يرتعش ويده ترتجف وكيانه كله يهتز فالتفت ذراعها بعنقه وقالت هامسة :

— أعرف ذلك .

وهدأت الأعصاب ، وبعد لحظة أدار إليها وجهه ولثم شفتيها ثم قال :

« أصغى إلىّ . فما أستطيع أن أرفع صوتى . سأبكى إذا فعلت » .

فدنت منه حتى لصقت به ، وشد هو نفسه حتى خيل إليه أنه صار كالصخرة ، ولكن صوته ظل متهدجاً على الرغم منه .

— إنى أكبر منك سناً وأكثر تجارب ، ولم يكن من حقى أن أدع

الأمر بيننا يبلغ هذا الحد . وعلى أن لك على صغرك وغضارة سنك وقلة خبرتك ، من الذكاء ما يعينك على التقدير السديد والنظر السليم . وإنى لأعلم كما تعلمين أن بيننا . . تفاهماً . . تفاهماً مباركا . . ولست أعتقد أن بين اثنين سوانا مثل هذا التعاطف الطبيعى . كلانا خلق لصاحبه؛ ولكن لهذه الأمور . . مقتضياتها . . . مستلزمات لا مفر منها ولا معدى عنها : إذا لم يكن الزواج هو المصير فليس يجوز أن ينشأ بيننا أو يظل مثل هذا التفاهم . . . إنه تحد للطبيعة : أن يتحاب اثنان ثم لا شىء . الشأن شأننا فى الحقيقة . والأمر لا يعنى سوانا . ولكن الأيام مقلوبة . والعادات والتقاليد سخيفة منافية للعقل والواجب . صارمة أيضاً . ونحن نوشك أن نحدث فى سورها ثغرة . . . أن نقتحم الحصن المنيع الذى بناه الجهل . . . ولست أراك تقوين على ذلك . ولا أحسبنى خيراً منك . ينبغى أن نفتح عيوننا . عاجلا أو آجلا . . أنا أوثر أن يكون ذلك آجلا . هو أحلى وأعذب وأندى على النفس . ولكنه لن يكون إلا حلما مهما طال . ونحن ننسى أحياناً مصير كل شىء لا يساير التيار ، ولا يوافق الزمن ولا يطابق روح الأيام . وإذا كان لا بد من التحطم على صخور التقاليد فليكن ذلك . . . اليوم . »

فخنقت الفتاة عبرتها وتعلقت به يائسة ثم قالت ، وكلتا ذراعيها حول عنقه ووجهها مدفون فى صدره :

— لا أقدر ! لا أقدر ! مرة واحدة ! كلا لا أقدر . »

فمسح لها شعرها فى رفق وقال : « لا بد . وإنك لتعلمين ذلك . لا بد أن نكسر قلبينا » .

فقالت : « نكسر ؟ ولكن أوه ! أوه ! لماذا نمزق قلبينا ! دعنى أياماً . . أمهلنى وقتاً كافياً . لا هكذا فى دقيقة واحدة . بالتدريج . إبرهيم . بالتدريج . . ليبقى لى شىء أذكره . أحلم به . أدخره للأيام السود . دع لى شعاعاً واحداً

من النور ، لا أكثر ، لا تهشم حياتى كلها اليوم . لا تمح دنياى بلفظة . حتى التعذيب يجب أن يكون تدريجاً ليحتمل » .

فابتسم لها — فى عينيها .

وكما أن لمسه جسمها ألانه وفتره وسرى عنه أيضاً ، كذلك ضعفها قواه وأمرّ عزمه فقال :

— كلا ! يا شوشو . ليس هذا خليقاً بك . يجب أن نصدق أنفسنا ونكون أقوى منها أيضاً . نحلق فوق مقاديرنا . وسيفسد كل شىء إذا لم نختم هذه الحكاية الآن ثم ننهض مبتسمين . لقد غرسنا معاً أجمل زهرة . ونمت وتفتحت حتى صارت منى النفس وريحانة العين والأنف — حسن منظر وذكاء مشم . وقد آن أن نقطفها . . . يجب أن يكون قطفها كما ينبغى . لا ورقة ورقة ، فلا تبقى هناك زهرة . وتصورى جمال الذكرى . ذكرى الزهرة الجميلة التى كانت لنا والتى لم نخف أن نقطفها . . . لما أينعت . . . سنزهى بذلك ونسعد أيضاً . . حين نذكره . . . نذكر زهرتنا التى لم ندعها تذبل أو تموت . . ويجب أن نقطفها بابتسامة يا شوشو من أجلك وأجلى.. »

— آوه ! إن هذا كالموت . لا أستطيع أن أواجهه .

— بل تقدرين معى . نحن الاثنين نستطيع أن نواجه أى شىء . وماذا يعنينا من الموت ما دمنا نستطيع أن نسير فى الحياة بقلب سليم ؟ .

فرفعت شوشو رأسها وقالت :

— أنت محق . يجب — يجب أن نسير بقلوب سليمة .

وتحولت عينها إلى النافذة وارتفعت منها إلى السماء ، ثم ارتدت إليه ومدت يدها البضة ولمست شعره ومشطته بأصابعها إلى الوراء ، وتركها هو تداعب شعره كما تحب ثم قالت وهى باسمة وفى صوتها حنو دافق :

— فلنقطف زهرتنا الآن .

فابتسم لها . . .

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ودارت الأرض حولها . . . ثم أرخى ذراعيه فتخلت عنه ، وتناول كفها فلثم أطراف أصابعها ثم اضطجع على الكنبة وأخرج سيجارة وأخذ يلعب بها وهو يفكر ويبتسم ، ثم رفع رأسه وقال :

— شوشو ، ما قولك فى مكثى أياماً أخرى ؟ لقد كنت معتزماً أن أرحل ، ولكنى أظن أننا نستحق أن نبقى معاً قليلا — كأخوين ! .

فقالت وهى تنهض وتشده معها : « لقد ترفقت بى على الرغم من قسوتك» وغادرا الغرفة معاً إلى حيث أختها .

الفصل الخامس عشر

(قد دخلت جنتي يا أختي العروس)

مرت ثلاثة أيام كانت من أرخى وأهنأ ما عرف إبرهيم وشوشو فى حياتهما : لا تفكير فى شىء ولا أسف على شىء . وتلك إحدى أعاجيب الطبيعة البشرية . فما فتر الحب بينهما بل زاد اضطراما ، ولا كبر الأمل بل صار أضعف ، ولا امحت الحوائل بل تكاثرت وغص بها الطريق . ذلك أن نجية لم تكن لاعمياء ولا بلهاء ، ولو كانتهما لكان حسبها غريزتها تدرك بها ما لا ترى ولا تفطن إليه بذكائها ؛ فما هى إلا أيام حتى لاحظت تحنن شوشو على إبرهيم ورقة إبرهيم لشوشو ، فلم ترتح إلى ذلك وإن كانت لم تر طريقها إلى قول أو عمل تحول به بينهما ، ووقف حبها واحترامها لإبرهيم وواجبها نحوه وهو ضيفها دون التفكير فى تعكير الأيام التى يقضيها عندها ، وتنغيص الوقت القصير الذى ينعم به فى دارها ، ولم يكن أدعى إلى سرورها واغتباطها من أن ترى مقام إبرهيم فى بيتها يسبغ عليه الصحة ، وخطر لها أن من الممكن الانتفاع بوجوده وتحويل التيار إلى الناحية التى هى آثر عندها وأوفق على العموم وأكثر مطابقة للتقاليد ، وقد كان رأيها دائماً أن من واجب ابرهيم أن يتزوج مرة أخرى لتنتظم حياته ويجد الروح والراحة فى بيته ، وإن كان هو لم يشك إليها ولا بدت منه أية رغبة فى هذا التغيير ، ولكنها المرأة لا ترضى عن العزوبة ولا تستطيع أن تروض نفسها على التسليم بها ما دام أن فى الدنيا فتاة صالحة للزواج . وهل ثم فتاة غير صالحة ؟

فكرت نجية إذن فى تحويل التيار وتغيير الاتجاه ، ولم تعن نفسها بما يبدو من ميل إبرهيم لشوشو ، وما قيمة هذا ؟ إن هذا الميل عندها لا قيمة له إلا على اعتبار أنه دليل على أن ابرهيم عاد بعد ثمانى سنوات يفكر فى المرأة ويشتاق حياة الزوجية ، أما الحب فكلام فارغ ، وحب امرأة بعينها لا يقبل أن يعتاض منها سواها كلام أفرغ ، وليست شوشو إلا واحدة من جمهرة الفتيات الصالحات للزواج ، وهبه يحبها فمن يمنعه أن يظل يحبها ؟ إنها بنت خالته وليس بينهما حجاب ففى مقدوره دائماً أن يراها وهذا كاف جداً . ثم إن الفكرة أن يتزوج أختها الوسطى « سميحة » والأختان صنوان وليست واحدة بأفضل من الثانية ولا أصلح ، وهـذا يستوجب أن يعود الشيخ على من الأسكندرية بهذه الأخت التى استصحبها معه لتكون فى خدمته ، أو أن يبعث بها ويطلب شوشو بدلا منها ، ولكن إبعاد شوشو الآن ليس من حسن السياسة ، فقد يفطن إبرهيم إلى الأمر ويرى فيه تعمداً فتحبط الحيلة ويفسـد التدبير ، وهو عنيد وفى طبعه على الرغم من لينه وسماحته ، صلابة وعنف بل تمرد . إذن فلتبق شوشو ولتعد أختها سوسو لتكون إلى جانبها ، وعليها أن تصرفه إلى نفسها شيئاً فشيئاً ، وهى فتاة ذكية واسعة الحيلة وأبرع من شوشو وأمهر ، وستكون نجية فى عونها ، ولا بأس — إذا استدعى الأمر ذلك — من اتخاذ الشيخ على حليفاً . والمهم على كل حال أن لا يدرك ابرهيم أن هناك مؤامرة لئلا يفلت العصفور . والباقى على الله وبه التوفيق .

* * *

وفى خلال ذلك — فى الفترة التى تقضت قبل أن تعود « سميحة » أو « سوسه » كما يسميها ابرهيم ، كان هو وشوشو كأسعد ما يكونان : يمثلان آدم وحواء — فى الجنة قبل أن يتعارفا — يتعهدان الحديقة ويقطفان

ورودها وأزاهيرها ويؤلفان منها توافيق يزينان بها الحجرات، ويستدرجان الأرانب من السراديب التي تحفرها في جوف الأرض ليقنصاها للبيت ، ويحلبان البقرة — وفيما عدا ذلك ينعمان بالقرب والحب ، فإذا أتعبهما الجري أو المحاورة قعدا على الأرض أو البساط أو غير ذلك تبعاً للأحوال والمكان الذي يتفق أن يكونا فيه ، فيقول إبرهيم وهو يلهث وقد شعر بالجوع :

— كفى أغواء ، إيه يا حواء إنك لا تزالين كما كنت ، بل شراً مما كنت ، مصدر إغراء وفتنة ! وبعد كل هذه العصور أيضاً ! لا بأس ! أظن أن من سوء الأدب في حقك أن أذكر الطعام لأن منظرك ساحر وأنت جالسة هكذا . ولكن . . .

فتقول شوشو : « لقد أذكرتني ! إني أكاد أموت جوعا . كلا كلا ! لست أعني ما أقول ! إن النظر إليك يغني عن وليمة ، أليس كذلك ؟ ! » ، ويضحكان .

وفي الليل بعد أن يأخذا حظهما من السهر تهم بالقيام إلى مخدعها فينهض إبرهيم ويرجو منها أن تبقى ويرتب لها الوسائد على الكنبة ويقف هو متوكئاً على النافذة فتسأله :

— ولكن أين تجلس أنت يا آدم ؟ .

فيقول: « أقف رشيقاً كما ترين مستنداً إلى النافذة وأقص عليك أسطورة » فتقول : « أما الأسطورة فهاتها ، وأما الوقوف فلا . كن طفلا واقعد على البساط » .

فيجلس إلى جانبها ويقول : « طفل ! أنسيت ياحواء أني قديم كالجبال ؟ » فترفع حاجبيها وتبتسم وتقول : وأنا أيضاً يا آدم » .

— كلا ! على التحقيق .

— ولكن ...

— لا أبالى هذا التمثيل . إنك خالدة . والخالد لا يذهب شبابه .

فتصمت برهة ثم تقول :

قل لى يا آدم ! هل شهدت هذه الغرفة مثل هذا من قبل ؟

— من يدرى ؟ لعلنا لسنا بأول آدم وحواء رأتهما هذه الجدران !

— ولكنها لا ترى .

— صحيح . ولدت كفيفة . ومن أجل هذا تكون أحد سمعاً وأقوى ذاكرة . إن هذه الجدران الأربعة لا شك تذكر كثيراً من المر والحلو والعنيف والرقيق والمضحك والمبكى .

— أظن الجدران تبتسم الآن يا آدم .

— تبتسم ؟ نعم . ولكنها ابتسامة حكيمة أبوية . اذكرى أنها ترى فينا عاشقين — آدم وحواء فى جنتهما .

— لقد نسيت . إذن ما أحق هذه الجدران بابتسامة أسف على مصيرنا . فسنخرج من الجنة يا آدم !

— شش ! إن الجدران تحب العشاق . فترفق بها ولا تخيبى أملها وإلا كسرت قلبها . هذا جدار يريد أن ينقض من الآن .

فتضحك وتقول :

— ولكن الحيطان ليس لها قلوب تكسر ؟

— بالطبع لها . إن قلوبها خير القلوب وأمتنها أيضاً .. قلوب من الحجر . ليت لنا مثلها ..

ويشعل سيجارة فتقول له منذرة :

— بعدها أقوم .

— أمرك يا حواء .

وبعد برهة تقول :

— لم تقص على أسطورتك يا آدم .

فيقول : «أظنك تعرفينها . إنها اسطورة جندى طارىء وصف له الناس «ما فى المدينة من بدائع وروائع وحدثوه عن الملك والأميرة الجميلة بنته «فسألهم كيف يستطيع الإنسان أن يراها ؟

«فقالوا له جميعا بلسان واحد «لا سبيل إلى ذلك . إنها تعيش فى حصن «عظيم له أسوار عالية ومن حوله القلاع . لا يدخله أو يخرج منه غير الملك، «لأن المنجمين قالوا إن الأميرة بنت الملك ستتزوج جنديا بسيطا فغضب «الملك ولم يستطع أن يحتمل ذلك . فقال الجندى لنفسه «إنى أريد أن أراها»

ويسكت فتقول «وبعد ؟»

فيقول : «وبعد فإن الأساطير لا تحكى لمن لهم أدوار فيها»

فتسأله : «أأنا إذن من خيالات الأساطير ؟»

فيقول : «يوشك أن تصبحى ذلك يا حواء»

فتقول : «وا أسفاه ! وأنت أيضاً يا آدم . ولكنها نعم الخيالات تعم بقية العمر ! أليس كذلك ؟»

— نعم .

وتنهض قائلة : «جاء وقت النوم — نومى على الأقل»

فيتناول المصباح ويقول : «سأرافقك إلى بابك»

ويلف ذراعه بذراعها ويمضى بها ، وتقول له وقد بلغا رأس السلم :

— آدم .

— نعم .

«أكان آدم — آدم الحقيق — يقبل حواء قبل أن تنام ؟»

فيقول : «أوه ، آه ! هكذا !»

القسم الثانى

« إذا امتلأت السحب مطراً

أراقته على الأرض »

الفصل الأول

(فى عنقه تبيت القوة ، وأمامه يدوس الهول)

— ١ —

« هل قرأت دوماس ؟ أعنى الفرسان الثلاثة ؟ » .

فهز الدكتور محمود رأسه أن « نعم » وهو يثنى عنان الجواد إلى اليمين ليعطفه وقال « لماذا ؟ » .

فقال إبرهيم : « إذن أنت تذكر فرسانه لما دخلوا الحانة وهم فى غير ما يمكن أن نسميه سروراً أو حالا عادياً . فقد كان بورثوس محنقاً ثائراً فكأنما ضرب سحره على الحانة ومن فيها وصار هم كل امرىء أن يترضاه ويتألفه ويسرع إلى خدمته وأن يلبى طلبه بأسرع مما ينطق هو به « مخافة أن يحدث ما هو شر من ذلك » — أى من وجوده — أهو يريد قشده ؟ إذن ينندفع الموجودون ليجيئوه بها ؟ أم الجعة طلبته؟ فهم يحملون على «البار».

ولما كان لايقنع بشىء ولا تقف مطالبه عند حد ، فإن القيامة قائمة فى الحانة ، وبورثوس يخور كأن فى جوفه ألف ثور . ولم تعد الحانة حانة بل صارت هيكلا لبورثوس ، وكل من عداه من خلق الله مذهوب به إلى الشيطان . كذلك كنا اليوم بعد أن عاد الشيخ على — أو على الأصح — بعد أن زلت قدمه وهو يطارد أحمد الميت ، واحتجنا أن نحمله إلى غرفته » .

فضحك الدكتور وسأل : « وكيف استطعتم أن تحملوه ؟ ليتنى كنت حاضراً » .

فقال إبرهيم « حاول أن يحمله أربعة من رجاله الأشداء ، لقد كان منظراً لن أنساه ما حييت ، الشتائم والأوامر التي كان يصدرها — هذه وحدها ستظل منقوشة على صدري أبد الدهر ، أؤكد لك أنه كان منظرا « هومريا » إذا كنت تفهم ما أعنى ، ليس فى وسع ريشة أن تصوره وأن تثبت الجو الذي كان يحيط به . وللشيخ على الفضل الأكبر فى خلق هذا الجو المختلط المعقد . فقد أبى إلا أن يشترك عملياً فى « محاولة » نقله إلى غرفته . وكان بحكم العادة فيما أظن ، يصدر الأوامر ويجاهد — أثناء القيام بنقله — أن يصحح الخطأ الذى يقع من خدامه فى تنفيذ أوامره أو نواهيه — نواهيه على الأكثر — وأن ينزل العقوبة الجسدية بالمخالف أو المخطىء . أراد فى خلال هذه الرحلة أن يصل إلى « أبو حسين » ليهشم له رأسه فاعتمد بيده على وجه « زناره » فكاد المسكين يختنق ، وكاد يتخلى عن كتفه ، فلولا أن شككت الشيخ على بدبوس واضطررته أن يرفع كفه عن وجه الرجل ، لكان قد هوى برأسه على الأرض ، وقد كافأنى بأن أمرنى أن أدفن نفسى حياً ! » .

فقهقه الدكتور ثم قال : « إن عمى غريب . لعلك لم تغضب ؟ » .

فقال إبرهيم « أغضب ؟ كلا . أولى أن أغضب من العناصر الطبيعية . إنه مثلها . ولكن الكلاب هى التى ضايقتنا . فقد اختلطت بالموكب وجعلت تتوثب وتنبح : ومن الغريب أنها كانت تسبقنا إذا صرنا إلى مكان فسيح ، حتى إذا شرعنا نصعد السلم لم يعجبها إلا أن تمشى بيننا وإلى جوانبنا وفى حيثما يكون وجودها عثرة فى سبيلنا ، والشيخ على يصيح بنا أن نخرس الكلاب . الحق أن صعود السلم كان بطولة تستحق التخليد . فقد خارت قوى اثنين أحدهما ذلك العبد العملاق . ولست أدرى ما سر هذا الولع بالوجوه السوداء اللامعة ؟ وصدر الأمر لأحمد الميت بأن يغرق نفسه فى

الترعة ـ الليلة ـ وأن يجيئه فى الصباح جثة منتفخة . وأمر « زناره » بأن يناوله سكيناً ليذبحه حالا . وكان العبد يتوهم أن هناك درجة أخرى باقية فدبت رجله بشدة فأمر أن يقطعها بالمنشار . وأخيراً وضعوه على السرير ووقفوا يمسحون العرق المتصبب بأكمامهم الزرقاء ، وأيديهم الأخرى على صدورهم الصاعدة الهابطة ، ولا قدرة لهم على الحركة من فرط ما أصابهم من الإعياء فلعنهم وأمرهم أن يجلسوا على الأرض وأنذرهم بالشنق بعد أن يستريحوا . الموت كان أقل ما يتوعد به أو يأمر . . . ثم دخل النساء والأطفال بعد ذلك فأسر إلى نجية أن تبعث لزوجات الرجال الذى حملوه بمقادير متساوية من السمن والجبن والقمح وهكذا هو أبدا . . . »

— ٢ —

لم تكد مركبة الدكتور تبلغ الدار حتى كان أحمد الميت يحل الجواد الذى وقف يهز جانبيه كأنما يريد أن ينفض ما عليه مما شد به ، والدخان يتصاعد من جسمه على الرغم من البرد والضباب .

وأسرع الدكتور وإبرهيم وراءه إلى غرفة الشيخ على فتلقاهما بالزراية والتهكم . وكان الشيخ على قد استدعى امرأة عجوزا « فى يدها الردة » كما يقول أهل القرية فدلكت له قدمه ولفتها ولكن الدكتور جسها مع ذلك فألفى الأمر هيناً ولا كسر هناك . وأوصاه بأن يلتزم رقدة خاصة سبعة أيام على الأكثر فكان جزاؤه أن يتمنى له الشيخ على أن يسجن سبع سنين على الأقل » .

ولما رآه لايحفل بذلك رماه بكوب كان يشرب منه .

ولم يبالغ إبرهيم فى الوصف فقد كان الشيخ على مثل بورثوس : ضخما هائل الأنحاء قوى البنية كثير الإرعاد والإبراق سريع الغضب حاد الكلام

ولكنه على هذا كان كريم النفس وفيه أريحية وذكاء وفكاهة ، وكان يسمى الشيخ على لأنه جاور فى الأزهر زمناً طويلا ثم انقطع عنه بعد وفاة أبيه ، وتزوج بنت عمه نجية ، وتخلى لزراعته الواسعة وكثر تردده على الإسكندرية فاشترى له بيتاً فى ضاحية الرمل على شاطىء البحر وخلع الجبة والقفطان والعمامة واعتاض منها ثياب « الأفندية » غير أنه كان إذا عاد الى « البلد » يكر إلى جلباب من الصوف والطربوش .

وتلق وهو فى الأسكندرية كتاباً من أحمد الميت ينبئه فيه بأن زوجته نجية تطلب أن يبعث إليها بسميحة أختها ، واحتاج هو أن يرجع لشأن له فعادا معاً .

غير أنه قبل أن يؤوب بها أحس بألم فى أحد أضراسه فرأى أن يعالجه قبل السفر ، فقصد إلى طبيب يعرفه وكان الخادم جديداً حديث العهد « بالزبائن » ورأى الشيخ على يهجم خطأ على غرفة انتظار السيدات فتعرض له فدفعه صاحبنا فألقاه ودخل والغضب يتطاير من عينيه واللعنات تتزاحم وهى خارجة من فمه وانحط على أقرب كرسى .

وكانت فى الغرفة سيدة تنتظر الطبيب فأفزعتها الزلزلة التى أحدثها الشيخ على ، وهاجها اقتحامه الغرفة عليها فنهضت ودنت منه وصاحت به :

— اخرج من هنا ياقليل الأدب .

ولكن الشيخ على كان قد وضع كفه على عينيه ومضى يحلم أو يتصبر على الألم فلم يسمع فاحتاجت أن تعيد الخطاب .

— أقول لك اخرج من هنا يا وحش .

فوثب إلى رجليه وقال :

— أتعنينى ؟ .

فقالت : « نعم . آمرك أن تخرج يا قليل الأدب يا وحش »

فتراجع خطوة كأنما كانت قد صكته بحجر وتمتم :

— وحش ؟ قليل الأدب ؟ لى أنا هذا الكلام ؟

قالت : « نعم . وإن فى بقائك هنا وردك على لدليلا آخر على أنك سيء الأدب . حيوان متوحش يجب أن يحبس فى قفص »

فغلا الدم فى رأسه ولكنه تماسك وقال :

— بأى حق تجترئين على مثلى بهذه الألفاظ ؟

فلم تتراجع وصاحت به :

— أترد على ؟ أتتحدث ؟ إن هذه عيادة طبيب وليست ميدان مصارعة للثيران . ثم إن هذه غرفة للسيدات وليست محلا للفيلة . أخرج من هنا .

فتلفت الرجل يمينا وشمالا كأنما يبحث عن شيء ثم رفع وجهه المحتقن وقال بصوت متزن :

— إنك تعتمدين على امتيازات جنسك . ولكن هذا لا يبيح لك أن تصفى الناس بمثل هذه الألفاظ . على أنى آسف لأنى دخلت هذه الغرفة من غير أن أنتبه إلى أنها للسيدات وأعتذر لك . ولكنى أؤكد لك أن مخاطبتك لغريب مثلى بهذه العبارات . . .

فقاطعته :

— ولماذا قرعت الباب ؟

فقال وهو فى دهشة :

— لأدخل .

— ألم يكن الباب مفتوحا ؟

فسكت . فأعادت عليه الكرة :

— انطق . ألم يكن الباب مفتوحاً ؟ ألا بد أن تحدث ضوضاء تمزق

الأعصاب لتعلن إلى الدنيا أنك داخل ؟ ولماذا شتمت الخادم ؟

فوجد لسانه وقال :

— لأنه حاول أن يمنعنى .

— إنه كان يحاول منعك من أن تسىء الأدب بالدخول فى حجرة السيدات . ولماذا ضربته ؟

— بأى حق تسألين ؟ إنه كان وقحاً .

— ولماذا تدخل الغرفة كالقنبلة ؟

— لم يحصل هذا منى .

فقالت : «لا تكن سخيفاً . لقد دخلت كالوحش وارتميت على الكرسى كالوحش ولم تكلف عينك النظر . . . »

فقال مصراً « لست كالوحش . ولا حق لك فى هذا الكلام »

فألقت إليه نظرة احتقار وأدارت وجهها ولم تجب .

وظهر الخادم فى الباب فخرج الشيخ على ولم ينتظر الطبيب وسافر مع سميحة إلى البلد . فلما بلغها كان ماحدث له لايزال يحز فى نفسه ويهيجه فلم يكد يلق أحمد المنيت ويرى منه بعض التلكؤ فى تنفيذ أمر حتى ذهب يعدو وراءه فزلت قدمه وكان ماتعرف .

ولم يفت الشيخ على أن يقص ماحدث له وأن يؤكد أنه سيخطفها لامحالة يوماً ما .

فقالت نجية « تخطفها ؟ ياخبر اسود ! »

فصاح بها «دافعى عنها ! لك الحق . الكلب لا يعض أذن أخيه . ولكنى سأخطفها فإنها فضلا عن وقاحتها جميلة »

فقال الدكتور — وكأنما أراد أن يطمئن نجية — « ولكنك لاتعرفها»

فقال الشيخ على ملغزاً « ابق معتمداً على هذا . سنرى »

الفصل الثانى

(المرأة التى هى شباك ، وقلبها أشراك ويداها قيود)

نظر إبراهيم إلى ساعته فألفاها الثانية عشرة فقال « أوه » ونهض فقال الشيخ على وهو ينفض السيجارة « ماذا ؟ »

— النوم ياصاحبى . جسمى متعب ، وهذا الدفء يزيدنى تفتيراً » .

فمد له الشيخ على يده وهو يقول :

« طبعاً . طبعاً . سأعدلك ثلاجة أضعك فيها الليلة الآتية »

وانحدر إبرهيم إلى « السلاملك » وهو يعجب أين ذهب الباقون الدكتور الذى اضطر أن يقضى ليلته هنا ، ونجية وأختاها . ولما لم يهده التفكير إلى شىء خلع معطفه وارتمى على السرير وتغطى ونام .

وأيقظه نقر خفيف ، ففتح عينيه ورفع رأسه قليلا وتسمع فتكرر النقر ياعجباً ! فى كل ليلة حادث ؟ مرة تكون البقرة وأخرى تكون تلك الزنجية والليلة ماذا ياترى ؟ ربما كان الدكتور ؟ ولكن كيف يمكن أن يكونه ؟ من عساه أن يكون غيره ؟ شوشو ؟ ؟ لا لقد قطفا زهرتهما وانتهى الأمر . قطفاها ولم يذبلاها . واحتملت شوشو أن تقطفها ، ولم ترتجف يدها وإن كان كيانها كله قد زلزلته الصدمة . ولم ترق دمعة ولم تتنهد وإن كان فى جوفها بركان مضطرم . ولم يشحب وجهها وإن كانت حياتها قد جفت . استطاعت بقوة حبها أن تسمو وتحلق فوق « الحياة » فيالها من . . .

نقرة أخرى

فرمى اللحاف ووثب إلى الأرض فى خفة ومضى إلى الباب وقال من ورائه — دون أن يفتحه — بلهجة السأمان :

« من هذا »

« أنا افتح يابن خالتى »

صوت سميحة — أو « سوسه» — كما يسميها. ماذا تبغى ؟ لأى شىء تجىء فى مثل هذه الساعة المتأخرة ؟ واضطرب ولم يجر بباله إلا كل سوء ، وحار ماذا يصنع وكيف يستقبلها وهو لايكاد يطيق أن يراها ؟ ومن يدريه ؟ لعلها ليست سوى رسول .

« افتح امال ! » بلهجة الضجر .

ففتح — وهل كان يسعه خلاف ذلك ؟ — ووقف فى مدخل الباب — حجر عثرة — فألفى فى يمينها مصباحاً . ولمح شبحاً عند باب السلم . فهى ليست وحدها إذن ؟ فهل يطمئن أو يقلق ؟ »

وقال « ماذا جاء بك الآن ؟ »

فابتسمت له — ولم تكن دميمة ، وقالت بأرق أصواتها وأحلاها نبرات :

« ألا تعهلنى ريثما أدخل ؟ أعوذ بالله ؟ ماذا جرى لك يابن خالتى تتركنى واقفة أنتفض من البرد ؟ »

وأدرك ابرهيم أن لاشىء هناك يدعوه إلى القلق على أحد ، وساءه هذا السلوك من سميحة ، وخيل له أن وراءه غرضاً تعتمده وخاف ماقد يجر إليه سماحه لها بالدخول فى مثل هذا الوقت ، من التأويل والتخريج وهى فتاة تخلق من الحبة قبة ، ومن العنبة خمارة ، ولا يبعد أن تكون قد انتوت أن تستأنف مطاردته التى أتعبته وأرهقته وبغضت النساء جميعاً إليه . وإذا عرف أهل البيت أنها زارته على هذا النحو وأنه تقبل منها هذه الزيارة ، فأى شىء لا يفهمونه ؟ كلا ! يجب أن يمنعها مهما كلفه ذلك ! وماذا يخشى ؟ إنها داهية خبيثة ولكن شر ما يدخل فى طوقها ، قد وطن هو نفسه عليه ، وكذلك شوشو .

وقال : « لست أفهم معنى لهذه الزيارة ولا أرى لها داعياً » .

فضحكت ولم تنهزم وقالت وهى تدفعه لتفسح لنفسها طريقاً .

— بلاش دلع . أتحسب أنى جئت بلا علم أختى وإذنها ؟ لقد أرسلت معى فاطمة وهى تنتظرنى .

فتنحى لها ، ولكنه ظل واقفاً فى مكانه فلما وضعت المصباح وجلست قال :

— إذن أخرج أنا .

فقالت : « عجيب هذا ! وبعد أن قلت لك إن أختى تعلم ؟ » .

فلم يتزحزح وأمضته هذه الصفاقة وقال بلهجة مرة إلا أنها هادئة متزنة النبرات :

إنى سأصعد إليها وأبلغها أنى لا أرتاح إلى هذه الزيارة وأن الإذن بالدخول على — وإن كنت ضيفاً عليها — يجب أن يكون منى أنا لا منها أو من سواها . ليس أحد وصياً علىَّ ، إذا كنت أنت تحت الوصاية .

فدقت كفاً بكف وقالت محاولة أن تنقل المسألة عن هذا الوضع .

— ولكن أى ضير فى حضورى وأنت ابن خالتى كأخى ؟

فقال : « إن كونى ابن خالتك أو عمتك أو من شئت غيرهما لا يجيز لك هذا ! » .

فلم تتراجع وخيل لإبرهيم إن كل غرضها أن تقضى دقائق عنده والسلام ، وإنه لا يعنيها كيف تقضيها ، ما دامت تقضيها .

وقالت : « كأنى لم أعد من الإسكندرية اليوم . ولم أرك منذ شهور » .

فغاظه إلحاحها وازداد مقته لها ولم يعد يتقى إيجاعها بالكلام الصريح وقال :

— هذه الزيارة فى الليل — بعد منتصف الليل — يسهل جداً أن تعد خلوة مدبرة . وأنت تعلمين أنى برىء من ذلك ولا يد لى فيه . وتعلمين أيضاً أنه ليس بينى وبينك أكثر من القرابة التى لا تجيز لك توريطى فى مثل

هذه المواقف التى لا أرتاح إليها ولا أستطيع احتمالها . ثم أنك فى قميص النوم أيضاً فكيف أنظر إليك حتى لو كنت أخاك ؟ وماذا يقول الشيخ على أو يتوهم حين يعلم ....

فقاطعته وقد فزعت :

— أتنوى أن تخبره ؟

وكان سؤالها هذا وما نم عليه من الفزع زلة منها ، فأدرك أن الشيخ على لا يد له فى هذه المناورة ، وسره ذلك وسرى من غضبه ، ولكنه أراد أن يعرف إلى أي حد يسعه أن يستغل خوفها من الشيخ على فقال :

— من واجبى أن أخبره .

فأقبلت عليه تتوسل إليه وتناشده القرابة والدم وتستحلفه بابنه ، وقد أخمد الخوف ذكاءها وأطار المكر الذى فى رأسها ، ولكنه أبى أن يعد بالكتمان وقال ويده على مفتاح الباب :

— إنى أريد أن أنام .

فخرجت .

— ٢ —

ولكنه لم ينم بل أشعل سيجارة وشرع يفكر :

سميحة فتاة يعرفها كاذبة ماكرة . ويحسها بكل جارحة فيه ثقيلة بغيضة ، ولم تكن دميمة ولا كان ينقصها الظرف والكياسة والرشاقة أيضاً ، ولكنه هو كان يحس أن على صدره حجراً حين تكون معه ، وكان إذا أخذتها عينه ، يخيل له كأن وجهها مغضن وكأنها هى تحمد الله على الغضون وتشكر له أن لم يبعث فى وجهها لحية . وسر هذه الكراهة التى نمت كالسرحة ، أن سميحة أغريت به وألحت عليه بالتحبب إليه ولجت فى محاولة « توريطه » أمام الأقارب والمعارف لتوهمهم أن كلا منهما — هى وابرهيم — يصغو

إلى الآخر بما هو أقوى من الود بين الأقارب ، ولم تكن هى تحبه أو تعبأ به ، ولكنها شارفت الحادية والعشرين ولم يخطبها أحد ، فحزنت أختها نجية ولم تبال أن تتكلم أمامها بخوفها أن تكون سميحة قد كتب عليها أن تعنس ، وجعلت لها دالة عليها كأنما أرادت أن تعوضها بالعطف عليها من الانصراف عنها ، فأفسدها التدليل وأكسبها جرأة تحمد فى الرجال ولا تكون فى النساء — عوضاً عن الحياء — إلا منفرة . وفكرت نجية ثم فكرت فلم تجد أمامها من « المرشحين » سوى اثنين : إبرهيم والدكتور ، والدكتور أغنى ولكن ابرهيم أسمى مقاما ثم أنه آثر عندها لأنه قريبها فلتهد إليه سميحة ! أما الدكتور فثم شوشو تنتظره إذا شاء ولا يضيره الانتظار لأنه أصغر سناً من إبرهيم ، وشوشو لم تبلغ العشرين ففى وسعهما أن يصبرا ومن أجل هذا جعلت تلق سميحة على إبراهيم وتغريها به ، وتتغاضى عن مغازلة الدكتور لشوشو وتحمد لشوشو فى سرها أنها تنفر منه ولا تقبل عليه فإن ذلك منها أعون على شحذ رغبته وأدعى إلى إطالة « الحبل » حتى يأذن الله وتتزوج سميحة .

ولم يكن إبرهيم يعرف كل هذا — وأنى له أن يعرفه ؟ — ولكنه كان يلمح أمارات الرضى من نجية عن سلوك سميحة ويشعر شعوراً غامضاً أن بينهما تفاهما أو اتفاقاً — قد يكون صريحاً وقد لا يكون — على مطاردته وتوريطه ، فكان هذا يستفزه ويستثير نقمته ، وينفره ، ولو أن الأمر جرى على خلاف ذلك لكان من الممكن أن يفكر إبرهيم فى سميحة ، أو على الأقل أن لا ينطوى لها على كل هذا المقت .

وكأن الله شاء أن تكون حياة إبرهيم كلها حرباً ومشاكل . فما طلب أمراً أو اشتهت نفسه شيئاً إلا اكتظ طريقه بالعوائق ، حتى زوجته الأولى كان اقترانه بها على رغم أنف أمها . حتى مارى — آه مسكينة مارى ، لقد نسيها . غرقت قطرتها فى الأقيانوس الذى أزخره حب شوشو . ولكنها قد

تسلت عنه ولا شك ! — حتى مارى كانت علاقته بها مشكلا . والآن ، تقف سميحة فى وجهه وتأخذ عليه طريق قلبه ، ويسد شيطان خبثها كل فج أمامه . ولماذا ؟ أمن أجل أنها سبقت شوشو إلى الوجود وتقدمتها فى الحياة تكون أحق بأن تحب وأولى بأن تكون لهزوجة ؟ ؟ كلام فارغ . وما ذنب شوشو ؟ ماذا جنت حتى ينزل بها هذا القضاء الماحق ؟

ونهض إبرهيم يتمشى . وراح يتصور المستقبل المظلم الذى قسم لشوشو . سيزوجونها يوما ما ، واحداً لا تعرفه ، أو تعرفه ولا تحبه . واحداً كالدكتور مثلا . فلا تجرؤ أن ترفض . وهبها استطاعت أن تجترىء وحبست نفسها عن التزويج فإن هذا لا يكون أقل قسوة . ولماذا كل هذا ؟ لأنه هو — إبرهيم — أقنطها ودعاها إلى اليأس وزينه لها على الرغم من حبها له ومن حبه لها . فهل من حقه هذا ؟ ؟ هل تجيز رجولته له أن يتخلى عنها ويدعها تحترق — تحترق فى الجحيم الذى أضرمه بيده . ثم قذف بها فيه ؟ ؟ ألا يشعر أنه مسئول عن مصيرها هذا؟ بلى وإن تبعته لعظيمة . وهبه غير مسئول فإن عليه واجباً لنفسه ، فلماذا يسمح لسميحة أن تعترض طريقه وتأخذ عليه متوجهه؟ ما سميحة هذه ؟ ؟ فتاة ؟ ومن أجلها يدع نفسه يشقى ! من أجلها يترك شوشو تعانى الغصص ! من أجلها يقف هو وشوشو متقابلين ولكنهما محرومان معذبان ! لا يفصلهما شىء . غير أن أيديهما لا ترتفع ؛ وشفاههما لا تلتقى ؛ وأنفاسهما الحارة لا تبترد ! كلاهما يجب أن يصرع رغبه فى الحياة : كلاهما ينبغى أن يغيب — وهو حى جداً — فى فراغ الموت المظلم — يجف ويذوى ويرفض الماء الذى يرويه ، — ويقتات سم الألم ، وتذبل شوشو ، ويبيض شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق ، وتغور عيناها وتغمق الكهوف حولها ، وتنقلب تغريدتها نعيباً وفتنة صوتها حشرجة ، لأن سميحة تشاء هذا ؟ ؟ ولأنى أنا ضعيف مهين

كغيرى من الناس الذين أحتقرهم من أعماق قلبي . لأنى لست من طراز بروميثيوس ! لأنى لا أزال أنظر إلى الأشياء من وجهة شخصية أنانية ! « أنا » دائماً . و « أنا » فى كل شىء . بحسبى أن فزت منها بقبلة ! يا لها من نعمة ! وما أعظم بطولتى ! ثم أدعها تغرق فى اللجة الطامية التى دفعتها إليها ! أتركها تحترق فى النار التى أوقدتها وعجزت عن إخمادها .

كلا كلا ! لن يكون هذا .

وارتاح لما انتهى إلى ذلك ورمى إلى الحديقة نظرة مطمئن إلى ما صمم عليه وكانت الحديقة العطرة مظلمة ، وأغصان أشجارها تكون فيما بينها أقبية تحت السماء الخضراء ، وعلى سطح الأرض البليلة ضباب خفيف خافق فكأنما هناك أشباح غير مرئية تجوب مسالك الحديقة الصامتة وتسرى بين الأشجار الجامدة فترجف لطيفها الأوراق والأزهار الناعسة .

الفصل الثالث

« أما خاطىء واحد فيفسد خيراً جزيلا »

— ١ —

— آه . زوزو .

وفتح عينيه على كفيها الصغيرتين تعبثان بجيب جلبابه وتخرجان أزراره من عراها ثم تعودان فتدخلانها فيها ، ولم يكن أحب إلى الشيخ على ولا أثلج لصدره من أن يصبح على وجه فتاته « زوزو » ولم تكن وحيدته ، فإن له غيرها ابناً هو محمد ، ولكن « زوزو » آثر عنده ، وهو بها أكلف ، وكثيراً ما كان إبرهيم يعجب لذلك منه ويقول له إن الولد - لا البنت - هو الامتداد الطبيعى لحياة المرء ، فيهز هذا الرجل الطيب رأسه ويقول :

— كلا ياصاحبى : وليس إيثارى لها لأنها الكبرى ، كلا أيضاً . أنت شاب فمن حقك أن يكون هذا رأيك فى ربيع العمر وللشباب حكمه . حكمه الذى لا تؤثر فيه فلسفة ولا يغيره علم أو اطلاع .

ويصمت برهة ثم يقول كأنما يحدث نفسه - بصوت خافت متهدج :

— للحياة كما للأيام فصول ، ولكن فصول الحياة تتوالى على غير ميعاد ، وليس كل فصل منها كـكل فصل فقد يكون الربيع أياما والخريف أعواماً ، والذى يجىء منها لا يعود ، ومتى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له فى عمره ، وأن ما بقى من رحلته فى هذه الدنيا أشبه بأن يكون « وجوداً » منه بأن يكون « حياة » - استمرار ومجرد اندفاع فى

الطريق الذى كانت تجرى فيه « الحياة » الأولى ، كما يجرى النازل من « الترام » خطوات إلى جانبه ، بقوة « القصور الذاتى » عرف المرء أن أذنه التى كانت تملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح : يخفق بلا احتفال ولا يخرج فى دقه عن الانتظام . وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها ، ويهى استيلاؤها على نفوسنا ويضعف إغراؤها لخيالنا ، وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ويطيرها النسيم هنا وهنا ـ متى صرنا إلى هذا فإن المرء تهتز نفسه لابنته وترتاح إلى منحها الحب ، إن هذه الفتاة الصغيرة يا صاحبى تعيد إلى الشعور بحرارة الحياة وقوتها الدافقة فى ربيع العمر ، نعم إنها إنما تحيى « ذكرى » ذلك ولا تجدد الشعور ولا تهب القوة التى نفدت ، ولكن الذكرى غناء » .

ويطرق هنيهة ثم يرفع رأسه ويستأنف الكلام :

« وأنعم بالصبيان . يشبون ويكبرون ويصبحون رجالا يحملون الأعباء ويشقون لأنفسهم طريقاً فى هذه الدنيا ، ويفوزون بحسن الذكر وطيب الأحدوثة ويشرف بهم الأصل الذى هم فرعه ، ولكنهم يا صاحبى بعد أن يدخلوا فى حدود الرجال ينقلبون « أصولا » لأنفسهم ولا يعودون « فروعا من غيرهم » ثم . . . ثم . . . ـ هذا يا صاحبى أوجع ما فى الأمر ـ يحتلون المكان الذى نخليه نحن ، ويجعلوننا نشعر أننا أخليناه لهم . وما أكثر ما يجعلوننا نشعر بأنهم يطالبوننا بإخلائه . إن مجرد وجودهم فى الحياة يشيع فى نفوسنا الشعور الذى كان غامضاً قبل بضع سنوات ، بأننا لسنا من أهل هذا الزمن الحاضر ، لسنا من أبناء هذا الجيل الذى يزحف ويستولى على الدنيا ـ نعم يحتملوننا ولا يبخلون علينا بالرعاية والترفق ، وقد يحبوننا

ويحترموننا ولكنهم يشعروننا أننا انتهينا ، وأننا محسوبون على الماضى مضافون إلى آثاره ـ يصغون إلينا ـ هذا صحيح ـ وقد يطيعوننا ولكن بلا حماسة ولا اقتناع بل على التسامح » .

فيقول إبرهيم وقد غلبه صوت الشيخ على وعذوبة لهجته على الرغم من المرارة التى فيها :

— صحيح . لقد كان يوليسيس فحلا فى زمانه . طوف فى الدنيا بشجاعة وغامر بقوة . ولكن تلماك هو الذى يجعل بالنا إليه ونوقظ له قلوبنا وعقولنا.

فيقول الشيخ على وكأنه لم يسمع :

ـ ولكن البنت شىء آخر مختلف جداً ، يظل أبوها ـ حتى يحل زوجها محله ـ مستوياً على العرش الذى ألفت أن تنظر إليه من طفولتها ، لا يذويه فى نظرها الكبر ، ولا تخلق ديباجته العادة . كل صفاته المحببة تزداد على الأيام رقة . إخوتها الصبيان ـ على حبها لهم ـ ليسوا سوى صور ضعيفة فاترة من ذلك الأصل العظيم . وفضائلهم ومزاياهم أضواء منعكسة . أبوها هو محور وجودها وقطب الرحى فى حياتها . وحبه لها سماوى ملائكى . ليس من هذه الأرض . لا يشوبه أو يعكر صفوه الإحساس بأنها ستحل يوماً ما محله ، وهى بنت أمها . فأخلق أن تثير فى نفسه ذكرى مهذبة لحبه القديم لأمها ، ذكرى تكون كالحاشية لذلك الحب الأبوى الذى هو من أسعد وأقدس أسرار الحياة .

وكأنما يتذكر فجأة شيئاً فيرفع رأسه ويقول وهو يحدق فى وجه إبرهيم.

— كيف تستغرب ؟

فيقول إبرهيم « ماذا ؟ »

فيقول الشيخ على مستأنفاً « وأنت القائل ـ لا أذكر فى أى كتبك ـ إن المرأة هى الحياة مختزلة ؟ لقد أثمرت تعاليمك كما ترى » .

ويضحك .

فيقول إبرهيم « هذا أكثر مما كنت أعنى . وأعترف أنه لم يخطر لى » .

— ٢ —

وبينما كانت « زوزو » تداعب أباها وتفيض عليه من حبها وإشراق نفسها ، كانت أمها نجية قاعدة فى غرفة أخرى على الوسادة ، وأمامها الموقد على مستداره أباريق القهوة كبراها وصغراها ، فى واحدة منها القهوة ، وفى الثانية ماء مغلى ، وهى ترشف من الفنجان تارة وتبسط كفيها فوق النار التماساً للدفء تارة أخرى وتفكر طول الوقت ، على حين كانت شوشو لاتزال مستلقية فى سريرها ، وسميحة تروح وتجىء وتدخل وتخرج ، وفى يدها مكنسة وهى لاتصنع شيئاً وكأنها تصنع كل شىء .

وكانت نجية وهى قاعدة على الوسادة وكفاها على كرشها « والشال » يغطى رأسها وأذنيها وظهرها ويجتمع طرفاه على صدرها . تفكر فيما يكربها ، وهى لايكربها شىء سوى مستقبل سميحة ، ولا نحتاج أن نقول إن مستقبل أية فتاة فى رأى نجية ليس له معنى سوى زواجها .

زواج سميحة ؟ نعم . لاشىء غيره ، وقد أدارته فى رأسها مائة ألف مرة واجترته حتى لم يبق له طعم وحلمت به أغرب الأحلام وأبعدها عن إمكان التحقيق ، ومن حقها أن تولى الأمر هذه العناية ، فإن حادثة حياتها الوحيدة هى زواجها ، به استغنت عن الإقامة فى مصر بعد وفاة والديها ؛ وأمنت الفاقة واستطاعت أن تحيا حياة ترف عليها النعمة ؛ وأن تكفل أختيها ، وأن تعلمهما فى أرقى المدارس الفرنسية فى الإسكندرية . وأن تنشئهما أحسن تنشئة .

ولم تكن هذه أول مرة تحلم فيها بزواج سميحة ؛ فقد كان هذا خاطراً مخامراً ، وما خلت إلى نفسها لحظة إلا راحت تتصور أختها هذه معقوداً لها

على واحد ومزفوفة إلى آخر ممن تسمع بهم أو ممن لهم بزوجها أو بالأسرة صلة ما ، ولم تكن أحلامها : على خلاف المألوف فى الأحلام ، منطقية أو منتظمة ، فقد كانت تصور لنفسها سميحة وقد تزوجت كل واحد ممن يخطر على بالها ، فترى بعين خيالها واحداً وقد تقدم إليها ليلبسها سوار « الشبكة » وجاء ثان فى حفل من الأخوات والأقارب والأصهار ليعقد له عليها ، وأقيمت الزينات وجىء بالمغنين والمغنيات وأحاطت « العوالم » بسميحة يزففنها إلى ثالث ، ولا تكاد تبلغ هذه المرحلة حتى تؤثر شاباً رابعاً فتجعله هو الداخل عليها ، حتى إذا مد يده ليرفع النقاب عن وجهها ويقبلها انقلب فى خيالها شخصاً خامساً وهكذا فليس لخيالها حين تطلق له العنان استقرار ، ولا لاختيارها تعلق بشخص دون سواه .

وكانت نجية أذكى وأحزم من أن تدع أحداً يطلع على هذه الصور التى تتعاقب على ذهنها وترتسم واحدة بعد واحدة فى نفسها ، وإن كانت هى لا تكف عن إحضارها وتمثلها فى خاطرها لتنعم بها وحدها ، ولم يكن أحد من الشبان أو الرجال الذين تحلم بهم أزواجا لأختها ، يتوهم أنه بعض ماتدور عليه هذه المناظر العجيبة فى رأس هذه السيدة الضخمة الساكنة ولا كان يجرى لهم فى بال — وهم جلوس فى بيت الشيخ على يشربون القهوة ويتحدثون فى شتى الشئون ، أو وهم فى حقولهم أو أمام مكاتبهم أو فى دورهم — أنهم ينقلبون أشخاصاً آخرين فتنضى عنهم ثيابهم العادية ويكسون بدلا منها أخرى سوداء رسمية على قميص أبيض وربطة بيضاء ، أو جبةسوداء وقفطانا مخططاً ، وأن أيديهم واحدة بعد واحدة توضع فى يد الشيخ على الكبيرة وأن أفواههم تتمتم فى حياء « قبلت نكاحها » وأن السرادقات تنصب فوقهم وتزدان ، وأن أصوات المغنين ترسل فضية النغمات تجاوبها أصوات السامعين بآهات الاستحسان ، وأن الموسيقات تعزف مرحبة بالقادمين من المدعوين

ولم تكن سميحة تلزم حالة واحدة فيما تتخيل أختها فهى مرة زوجة «باشا» يغنيها ويرفعها مقاما محسوداً بين أترابها ولداتها ، ثم تستحيل زوجة «وجيه» موسر له مصيف فى الاسكندرية ومشتى فى القاهرة وضيعة طويلة عريضة يقصدان إليها كلما سئما حياة المدن وتبرما بضجاتها وحفلاتها واستقبالاتها ، طلباً للروح والراحة بين أحضان الطبيعة ، ثم هى بعد ذلك زوجة الدكتور يعنى بها ويسبغ عليها الصحة وينتقل بها بعد أن تتسع دائرته ويتسامع به الناس ، إلى رمل الاسكندرية فتكون قريبة منها ، ويغنى شيئاً فشيئاً ويكثر لديه المال فيبتاع لها الحلى الثمينة يزين بها رأسها وأذنيها وجيدها ومعصميها وأصابعها وصدرها أيضاً ، ويلبسها كل مايشتهى شبابها من الأفواف والأوشية ، - ثم يهتز الكليد سكوب وتتغير مواضع الزجاج الملون فتبدو مع سميحة إبرهيم الحازم العطوف ، يبيحها قلبه ويقطعها حبه ويلزمها طاعته ويحكمها كما يجب أن تحكم المرأة ، وكما لا يحسن غير ابرهيم فيما تعلم أن يفعل ، وتتنهد وتبتسم حين يطوف برأسها هذا الحلم الذى تستريح إليه وإن كان المال فيه قليلا وفرص الثراء ضئيلة ، ويخيل لها وهى ترسم خطوط هذه الصورة وتلونها أن سميحة تصبو إلى أبرهيم وتحبه ؛ وتنحى عن خاطرها أن إبرهيم لا يبادلها هذا الحب ولا يبدو منه مثل هذا الود ، وتقول لنفسها من يدرى ؟ أليس الواقع أن الرجال يتزوجون من لم يروا من النساء ثم يحبونهن بعد ذلك ؟ وتغالط نفسها وتنسى أن إبرهيم يعرف سميحة وأنه يمقتها ، فلا أمل هناك إذا كان ثم أمل بين غريبين ، وتشعر بوجوب التعجيل ، ويقوى شعورها بذلك ما فطنت إليه بغريزتها وأدركته مما رأت من شوشو وابرهيم . وكأن شوشو ليست أختها ، وكأن تحطيم قلبها وتخييب أملها إذا كانت تحب ابرهيم ، شيء لا يعنيها ، ولكن صورة ابرهيم وشوشو تأبى أحيانا إلا أن تبرز ، وتعكر عليها صفو

أحلامها ، فتثير غضبها وتروح تنكر على شوشو أن تحب أحداً بله ابرهيم . وتقول لنفسها إن هذا من شوشو قلة أدب وتسخط على المدارس التى تعلم البنات هذا الكلام الفارغ قبل الأوان ، وتنحى على نفسها باللوم هى التى أصرت على تعليم أختيها ـ وفى مدرسة فرنسية أيضاً ـ ولكن سميحة كانت معها فلماذا لم تتعلم مثلها هذه الوقاحة ؟ ولماذا تنفرد شوشو بسوء الأدب وفساد التربية ؟ أتريد أن تجر على الأسرة عارا ؟؟ أتريد أن يذاع فى البيوت أن شوشو أحبت ابرهيم ؟ ؟ يا للفضيحة ! يجب أن تضرب على فمها . نعم لا بد من زجرها عن هذا وإلا فالفضيحة لا محالة واقعة .

ويزيدها هذا تصميما على اهداء سميحة لابرهيم ويبدو لها ذلك كأنه خير حل للاشكال . والسرعة هى كل شىء ، وليس أجدى فى مثل هذه المسألة من قطع الأمل .

وأفرغت فى الفنجان الذى كانت ترشف منه القهوة ، نقطا من الماء وهزته ثم صبته على حافة الموقد ، ووضعته بين أخواته ثم صفقت فجاءت سميحة تسبق فاطمة فقالت نجية

ـــ قولى للبنت ترفع هذه الأشياء . ألا تزال شوشو نائمة ؟ يا لها من مكسال !

فقالت سميحة « أنا عارفة يا أختى ! انها لا تريد أن تقوم . وماذا كانت تصنع لو كانت متزوجة ؟ أكانت تدع الرجل يفطر ويشرب القهوة ويلبس ثيابه وهى منطرحة فى السرير ؟ ولكن الكلام معها لا يجدى وقد تعبت معها وهى لا تسمع لى كلاما . فلا شأن لى بها فانها لا تقبل منى كلاما . فأنت وشأنك معها »

فهزت نجية رأسها ومصمصت بشفتيها ولم تقل شيئا ونهضت ـــ على يديها أولا

ولما صارت مع زوجها وجلست على الكرسى إلى جانب سريره قالت لزوزو : « ردى الباب يا بنتى » .

فالتفت إليها الشيخ على ورفع رأسه عن الوسادة واتكأ على كوعه وقال:

— هل من جديد يا فيلى الصغير ؟

فلم تجعل بالها إلى مزاحه ووضعت ذراعها على الوسادة وقالت بصوت خافت وهى تتلفت إلى الباب بعد كل كلمة :

(نريد إبرهيم لسميحه)

فاستوى الرجل قاعداً وصاح بها :

— ماذا ؟

فارتدت مذعورة حتى لكاد الكرسى يقع بها فما كانت تتوقع ذلك وقالت وهى تشير بكفها مستهجنة :

— ياخى لماذا تصيح هكذا ؟ لقد أفزعتنى ؟

فمال إليها الشيخ على وقال بأخفض أصواته :

— ما الذى جعلك تفكرين فى هذا ؟

فقالت مستغربة : « ولماذا لا أفكر فيه ؟ ألست موافقاً ؟ »

فقال : « موافق ؟ إنك عمياء ! » .

فقالت : « عمياء كيف ؟ والله لا أعمى سواك . ألا أستطيع أن أكلمك من غير أن تثور بى كالزوبعة ؟ » .

فلم يعبأ بهذا وابتسم وهو يقول :

— لقد كذبت عليك سميحة مرة أخرى ! اعترفى بالحق .

فقالت بلهجة السخط : « كذبت ؟ تقول كذبت ؟ سل إذن فاطمة ؟ » .

فضحك الرجل وقال :

— الغرض مرض ! تريد الحمقاء أن أسأل الخادمة .

فقالت ملحة :

— نعم سلها . فقد بعث إلى سميحة أمس بأن توافيه فى غرفته بعد أن يقوم من عندك ، فاستأذنتنى فأذنت فاستصحبت فاطمة فسلها إن كنت فى شك. إنك لا تصدقنى أبداً فلعلك تصدق الخادمة .

فلم يكترث للمرارة التى فى لهجتها وقال :

— إذن أنا لا أعرف إبرهيم !

فقالت وقد أزعجها أن أحست أن زوجها يعرف ما تعرف هى « ماذا تعنى ؟ » .

قال : « أعنى أيتها الفيلة العمياء أن إبرهيم يمقت سميحة بكل جارحة فيه » فكأنما طمأنها هذا وسرها أنه كل ما يعرفه فقالت :

— يمقتها ؟ إنك تبالغ دائماً . ومع ذلك فإنه سيحبها شيئاً فشيئاً وهى ذكية وماهرة ويجب أن تعرف كيف تستميله . دع هذا لها ولى أيضاً »

فأرسلها زفرة طويلة ثم قال :

— ما أشد غفلة النساء وأعظم لجاجتهن فى الخطأ . يا عمياء إنه لا يمقت سميحة فقط بل هو يحب شوشو . أسمعت ؟ أكان لا بد أن أشق لك جفونك بالسكين لتفتحى عينيك فتبصرى ؟

فريعت كأنما كان هذا نبأ جديداً وأسرعت تقول :

— شوشو . كلام فارغ ، لا والنبى أبداً . والله لو ملأ لى حجرى ذهباً . مستحيل .

فاضطجع الشيخ على ولم يزد على أن قال بلهجة قاسية :

— قومى من هنا . واسمعى . احذرى أن تقولى أو تفعلى شيئاً ! فاهمة ؟

فنهضت طائعة وهى تقول :

ــ أمجنونة أنا .

فقال : « بل أنت مستشفى مجاذيب بأسره . إن إبرهيم حساس جداً . ولا أريد أن أخسر صداقته مهما كلفنى الاحتفاظ بها . أتفهمين كلامى هذا ؟ مهما كلفنى الاحتفاظ بصداقته ! هيه ! هيه ! » .

فشورت بيدها وخرجت وكرشها أمامها .

الفصل الرابع

« فى النهار أدعو فلا تستجيب ، فى الليل أدعو فلا هدوء لى »

الوقت الصباح ، وابرهيم يتمشى فى الحديقة ، ولا يرى شيئاً ، فما يكظ ذهنه إلا موقفه الذى لم يعد يحتمل . فكل ما يخطر له أن يفعله ، يبدو له خطأ . فهو إذا بقى مخطىء ، وإذا سافر يخطىء ، وإذا خطب شوشو يخطىء وإذا سكت وتغافل يخطىء . وكان وهو يتمشى لا تبرح ذهنه صورة شوشو وعيناها العميقتان الساكنتان وشعرها الذهبى المتموج على جبينها . فهل ينقاد لنفسه أو يكبحها ؟ ولم يعجبه هذا التعبير المفكك فتساءل « كيف يكون الكبح وكيف يكون الانقياد ؟ أن المسألة ليست الفاظاً العب بها ولكنها عمل فما العمل ؟ »

وثنى رجليه إلى السلم ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى ارتد فقد ذكر شوشو وهى تعدو إليه منه وتكاد تقع فتلقى بنفسها بين ذراعيه وتستريح ! فعصر قلبه الألم ولجت به الصبوة إلى شوشو وهاله « القحط » الذى ينتظره فى أيامه المقبلة فرمى بنفسه على الحشائش ، ولم يكن وهو راقد يفكر فى شوشو وسوء حالها ، بل فى الدم الذى يغلى فى عروقه هو ، وفى النار المندلعة فى جسمه وفى رغبته الثائرة ، وفى حنينه إلى قبلتها . . إلى جسمها الرخص . . إلى حبها الحار . . فى ظمئه إليها كما كانت وهى تطعمه من النافذة . . كما بدت وهى واقفة تنزع أوراق « الأراولة » وتعدها وتستنبئها حظها . . فى صدرها على صدره . . . وشفتيها على شفتيه والليل باسط رواقيه ، والنسيم يهمس مع القمر فى أذان الشجر ، والضفادع تنقنق ، والبوم ينعب من بعيد ، ووجهها هى تغمره ابتسامة الحب وضوء القمر . .

تعاقبت على ذهنه هذه الصور وتزاحمت ، وهو مستلق على الأرض يكابد حمى الحنين ، ثم خطر له أن شوشو قد تخرج إلى الحديقة فتراه وأخلق بذلك أن يضاعف ألمها ! فنهض ومضى إلى غرفته . وتذكر ما كان من سلوك سميحة ، وزورتها له تحت جنح الظلام ، وما يمشي به ذلك من القصد إلى توريطه ، فتسور الدم إلى رأسه وأيقن أن الرحيل لا مناص منه .

وصعد إلى الشيخ على وكاشفه بعزمه ،وكان هذا أعرف بإبرهيم وأدرى بصلابته وعناده من أن يحاول أن يثنيه عن مراده ، وكفته نظرة واحدة إلى وجه إبرهيم المربد أن يوقن أن سميحة وأختها كاذبتان وأن ائتمارهما به هو الذي يرجع إليه اعتزامه السفر .

وقال الشيخ على يمازحه .

— ملنا أم نبا بنا أم جفانا ؟

مشيراً إلى بيت للبحترى . فقال إبرهيم :

— كلا لم أكن أريد أن اعتاض منكم سواكم ولكنى مللت .لا أكتمك هذا . كأنى فى سجن . لا أرى أحداً غير السجانين . . . أعنى بنات خالتى وخدمهن حتى أنت شاء الحظ أن يقعدك عن مرافقتى إلى حيث أشتاق أن أكون . . أعنى فى الحقول . . مللت والسلام .

فنظر الشيخ على بخبث وقال .

— أهذا كل شيء ؟

فرفع إبرهيم رأسه وقال « وماسؤالك هذا ؟

قال : « صدقت لا محل للسؤال فإنى أعرف كل شيء . ولكنى أرجو أن لا تكون مغفلا . كلا : لا تشكرنى .. »

فقال إبرهيم بلهجة الجد الصارم « إن من واجبى أن أ[illegible] . . »

فقاطعه الشيخ على بدوره « لا تفعل . فلن تزيدنى [illegible] . أو تحسب [illegible] ، [illegible] ين ترى ؟ »

ــ ولكن علمك قد يكون مشوها أو غير مطابق للحقيقة .

فضحك الشيخ على ضحكة حافلة بالقرقعة ثم قال :

ــ أرجو أن لاتصدع لى رأسى بالشروح والتفاسير . . أبقها إلى أن أنام . أو اكتبها بأسلوبك الجزل وضعها فى ظرف واختمه بالشمع الأحمر وأعطنى إياه . ولك على أن أمزقه قبل أن أقرأه أو إذا كنت تحرص على آثارك الأدبية ، أحفظه لك إلى أن تكبر وترشد لتتاح لك فى كهولتك فرصة تضحك فيها من حماقات شبابك .

فابتسم إبرهيم ولكنه قال بلهجة اليأس : « لا أرى فى صلاحك أملا » .

فقال الشيخ على : « سألحق بك بعد غد . فأنا أيضاً قد مللت البلدة . . »

ولم يكن هذا مايريد إبراهيم ، ولكنه كتم مافى نفسه وقال للشيخ على :

ــ أولا تزال مصراً على خطف تلك المرأة ؟

فلم يكترث الشيخ على وقال :

ــ قل لمحمود إنى سأدق له رأسه ، ولفرج البواب إنى سأشنقه بيدى هذه ، ولأم الخير . . . ولكنك تستطيع أن تنوب عنى فى إنذار الخدم جميعاً ، إذا عدت فوجدت أن الأجراس لم تصلح ، أو أن واحداً منها لا يدق بأعلى من جرس الكنيسة . أما أنت فلاتخشى أن أجىء لك بسميحة وإن كنت لا أستطيع أن أعدك بأن أحضر معى شوشو .

فنهض إبرهيم كأنما كان قد كواه بمسمار محمى وصاح به : «قبحك الله . »

— ٢ —

حلم إبرهيم وهو نائم فى بيت الشيخ على فى رمل الأسكندرية ، أنه قد انقلب بقوة الله القادر على كل شىء ، « جعة » مثلجة فى زجاجتها ، وأن محافظ الثغر شربه على كمية غير معقولة من كبار « الجنبرى » وأنه ــ أى إبرهيم ــ احتج فى حلقه ، أو وقف فيه ، ولكنه أكرهه على الانحدار فى

جوفه فلم يزل يجاهد أن يفلت — أعنى أن يرتد — حتى أصيب المحافظ بانتفاخ دائم جعل له كرشاً كروية ، أكسبته سمناً وأبهة ورشحته لعليا المناصب التى لا يصلح لها النحاف العجاف ، وأنه — أى المحافظ — سر بذلك كثيراً فأقام — على سبيل التذكار لهذه الحادثة السعيدة — « سبيلا » يستطيع من شاء أن يرشف منه أعذب السم الزعاف بلا ثمن ، وفى كل ساعة من ساعات الليل أو النهار إذا شاء ، وطلبه بلسان « سريانى » فصيح .

فقام من النوم مفزعا ويده على رأسه كأنما يبحث عن « سدادة » الزجاجة ، وكانت الدنيا ملفوفة فى شملة سميكة من الظلام تفيض على الليل سحراً ورهبة ، واندمج كل موجود فى ظله ، ولم يعد شيئاً بعيداً وآخر قريباً ، والبحر يهدر وكأنه يزحف وراء صوته ، والنسيم الوانى يهمس فى آذان الشجر .

وحانت منه التفاتة إلى حيث كتلة البناء — وكان هو فى جناح متصل بها ومرتفع عنها — فلمح شعاعا من النور بادياً من خلال « الشمسية » فى غرفة المائدة ، فاستغرب ثم قال : « لعل الخادمة جهزت لى طعاماً ثم قامت تنظر هل أصبت منه » ولكن النور لم ينطفىء ، فأشفق إبرهيم على الخادمة أن تحيي الليل كله فى انتظار من لا يجىء ، وخطر له أن الواجب أن يصرفها لتنام ، فانحدر حافياً وقال لما بلغ الباب :

— لماذا تنتظرين يا . . .

ولم يزد ، وإن كان فمه قد ظل مفتوحاً . ذلك أنه لم يبلغ « يا » حتى كان مسدس مصوباً إلى رأسه ، وكان الذى رفعه إلى وجهه أشبه بالعمالقة منه بمن رأى إبرهيم من الناس ، وهوى وذراعاه إلى جانبيه وتخلخلت ركبتاه وجحظت عيناه من المفاجأة ، وابتسم العملاق ، فابتسم إبرهيم ، لا سروراً ، بل لأنه صار فيما يعلم آلة حاكية ، وقال :

— سوف . كلمة واخد . تروخ بلاس .

فلم يفهم مراده ، وحار فى هذه « الكلمة الواخد » مامعناها هل هى مقصورة على الصراخ والصياح والاستنجاد ، أم تشمل الكلام العـــادى أيضاً ، ولكنه آثر الحذر والاحتياط ، لأن التفسير — ولا سيما إذا كان من جانبٍ واحد وهو الجانب الأعزل — غير مأمون المغبة ، فأطبق فمه وكان لايزال مفتوحاً ، وهز رأسه مرات إعلاناً للامتثال .

فقال له : « خس »

فود إبراهيم لو نحى عنه هذا الحديد البارد قليلا ، ولكنه أطاع وحملته رجلاه خطوات فى خط مستقيم حتى صدته المائدة ، وهو وراءه ، وأدار له وجهه وحده مستفهماً ، وأشار بعينيه إلى كرسى ، فابتسم العملاق وسأله وأصبعه على فمه :

— لسان مفيش ؟

فتشهد إبرهيم ، وعلم أنه يبيح الكلام أيضاً ، وعادت الطمأنينة مع الحياة واللسان ، أما السرقة فلم ير له حيلة فى منعها الآن ؛ وإذا لم يحدث ماليس فى الحسبان فما من شك فى أنه سيمضى بما يجمع .

وقعد على الكرسى الذى أومأ إليه فى زاوية بعيدة عن الباب ، وانصرف هو إلى عمله فى هدوء رائع ، وكان يجمع الأوانى الفضية ويفحصها ويرتبها ويضعها فى حقيبة معه ، وتبين إبرهيم وهو ينظر إليه أن على كفيه قفازين .

ومضى عام فيما أحس إبرهيم وهو قاعد . واشتاق أن يدخن فقال : « معك سيجارة ؟ » .

فرنع العملاق حاجبيه كالمستغرب ، ثم ابتسم وقال :

— آه بردون ياخبيبى .

ومضى إلى « البوفيه » وعاد بسيجارة وأشعلها له ، فشكره إبرهيم وهو ذاهل ، فما رأى لجرأته مشبهاً ، ولا سمع بمثل سكينته وتنظيم جهوده وقصرها على ما ينشد دون أن يفسدها بتجاوزها إلى ماسواها ، وبدا له وهو جالس يتأمل وينفخ الدخان كأن السطو والسرقة ليس أسهل منهما فما على الإنسان إلا أن يعد نفسه صاحب البيت الذى يدخله ، وأعرب للعملاق عن هذا الرأى ، وفى مأموله أن يجره إلى الكلام فيطول الوقت لعل شيئاً يحدث أثناء ذلك يلجئه إلى الهرب وترك ماجمع أو يؤدى إلى القبض عليه ، وكان ذلك أملا بعيداً ورجاء محقق الخيبة ومادام قد استطاع أن يدخل على الرغم من الكلاب الحارسة — ترى كيف دخل ؟ — فأخلق به أن يخرج بلا صعوبة ، ولكن المشفى على الغرق يتعلق بقشة .

وأدرك اللعين المدرب غرضه ، فقال وهو ماض فى عمله :

— انت مكار .

فأكد له إبرهيم أنه كفنان ، معجب بفنه ودقته وحذقه فيه ، وأن السرقة حقيقة تبدو له سهلة قياساً على مايرى ، فقال العملاق .

— سوف ، انت على البر .

فقال إبرهيم « بل فى قاع الجب » أو على كل حال حيث لا أحب أن أكون » فلم يلتفت العملاق إلى هذا ، ولم يجب بأكثر من ابتسامة ، ثم قال:

— أوخس هاجه ال . . . ال . . . اسمو إيه ؟ مس يسبع ؟ .

فقال إبرهيم « الطمع » .

قال مثنياً « برافو » .

فقال إبرهيم « أحسبك تفعل ماتفعل الآن على سبيل الإحسان ، وبدافع من الزهد وحب التقشف ؟ » .

فقال العملاق شارحا « سوف ، فيه كتير راخ فى داهيه سان لازم كان . . . مس يسبع » .

فأعرب له إبرهيم عن إعجابه بهذه البلاغة وقال :

— كنت أظن لبلاهتى أن اللص يلق كل مايجمع فى غرارة ، ثم يذهب من حيث جاء ، ويفعل الباقى فى مخبئه ، ولكنك علمتنى شيئاً ، وإنى لأعجب الآن كيف فاتك أن تجىء بالأدوات اللازمة لصهر المعادن أيضا ! .

فمط العملاق فمه مستخفا وقال « مس سغلى دى » .

فهز إبرهيم رأسه وقال : « آه ! أنت أخصائى فى السرقة فقط ؟ » .

فقال العملاق « أنت فاهم دى كله يروخ كاسورة ؟ » .

فقال إبراهيم « لم أكن أعرف أنها لازمة لآنية بيتك فمعذرة » .

فلم يرد العملاق ، وكان قد فرغ مما جاء له ، فأطبق غطاء الحقيبة وأدار المفتاح فى قفلها ، ثم أومأ إلى إبرهيم وقال « من فضلك » .

فنهض وهو يقول :

— هل أطلب لك عربة ؟ .

فابتسم العملاق وقال « مرسى ! إنت كويس » .

فقال إبرهيم « شهادة قيمة ، ألا تكتبها لى لأحتفظ بها ؟ » .

فلم يلتفت إلى هذا وقال « بس مس يلزم تخاف كده دوغرى » .

فقال « معذرة ياخواجه ، سأتدرب على لقائك » .

فربط له يديه وراء ظهره ، ووضع له بين أسنانه بكرة خيط صغيرة وتناول قبعته وقال :

— ليلتك سعيدة يابيه .

ولم يستطع « البيه » أن يرد التحية بأحسن منها أو حتى بمثلها ، ولكنه استطاع أن يشيعه إلى باب المسكن أو الدور .

وعاد « البيه » يعدو كأحسن مايستطيع موثق مكمم ، إلى غرفة الخادمة فوق السطح . وإنه ليركل بابها برجله ، وإذا بنباح يوقظ الموتى .

وكان الذى حدث أن اللص لم يكد يدنو من باب السور الحديدى حتى كان الكلب الحارس على ظهره وأسنانه مغروزة فى عنقه ، وكان كلباً أرمنتياً ضخما كالسبع ، لايدرى أحد أين كان رابضاً ، ولا ماذا ألهمه أن يظل ساكناً ، حتى يصير اللص أمامه . وعلى مسافة كافية للوثب ، ولكنه على كل حال من فصيلة لا يحمد الغريب لقاءها فى الليل ، وقد ردت وثبته صاحبنا آخر الأمر بشر من — خفى حنين — أى بقطمة ممزقة من لحمه وبالقيد فى يديه .

وكان من الطبيعى أن تحضر الأسرة كلها إلى الأسكندرية لا الشيخ على وحده .

الفصل الخامس

أين الطريق إلى حيث يسكن النور ؟

فى الصباح أيضاً . وإبرهيم يتمشى وحده فى حديقة الدار ويمد يده من حين إلى حين — وهو يروح ويجيء — إلى وردة يلمسها ، أو فلة يثنيها إليه ليشمها دون أن يقطفها ثم يعود إلى المشى .

وحده ؟ كلا . بل معه . . . كيف نقول ؟ نفسه . تحاوره وتداوره وتناوشه وتنوشه أيضاً . وتقول له فيما تقول :

— إنك تحبها . ألست تحبها ؟

فيقول : « أحبها ؟ ويحى ! لقد كان لى ثوب رجولية زين ، فأين الآن وفائى للخلاق الرزين ؟ تجملى أين ؟ وأكرومتى ماذا صنع الله بها ؟ وردى النفس إذا جمحت ، على مكروهها ؟ أحبها ؟ واأسفاه ، لقد صرت عارى الهوى ليس لى ما يستر القلب عن الناظرين . وكأنما هذه الدنيا قواء فما أحس الناس فيها . لاحياء ولا عزة . وما دامت الأرض فى عينى خراباً مأموناً فمن أستحيي ؟ وماذا يبعث فى النفس الشعور بالعزة ؟

ويطلق ضحكة مثقلة بالدموع المحبوسة فتقول النفس ملحة :

— تحبها إذن ؟

— نعم :

— جسمها ؟

— يفتننى روحها فيه .

— طبيعتها ؟

— نادرة . نادرة .

ويرسل آهة .

فتزداد نفسه عليه شداً ولا ترفق به وتقول :

— إذن لا شك فى النتيجة ؟

فيقول « لا أدرى ! » :

فتعيد عليه الكرة .

— ألا تظن أنه من المحتمل أن تظفر بزواجها ؟

فيهز كتفيه ويقول :

— ربما ! ولكن كيف واللعينة أختها تكيد لنا وتعترض سبيلنا ؟

وتكف النفس هنيهة ثم تعود فتسأل :

— أليس كل حب إلى ملال ؟ وكل حسن إلى عفاء ؟

— نعم .

— وللقلب جمحة ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— أليس أولى بك أن تجعل العقل لجاماً ؟

فيسألها بدوره « كيف ؟

فلا تجيب ولا تسمح له أن ينقلب هو السائل وتقول :

— هل لك عمران ؟

— ماذا تعنين ؟

— هل ضمنت عمراً جديداً غير هذا ؟

— كلا !

— أو هل تعرف أن لعمرك هذا من يرفوه إذا بلى وتمزق ؟

— أى فكرة !

— كم ساعة عشتها بعقلك ؟

فيعجب لسؤالها ويلتفت كأنما يخاطب شخصا محسوساً إلى جانبه ويقول:

— ياله من سؤال !

— إن حولك الأرض والسموات تغرى العقل بالتفكير .

فيقول مستخفاً « نعم ؟ »

— كان حقك أن تصقل عقلك لا أن تصدئه !

— يعنى ماذا ؟

— يعنى أنى أراك تطلب الحسن لتغنيه . أليس كذلك ؟ طبيعة الفنان ؟ هيه ؟

— لا تسخرى بى من فضلك !

— لست أسخر . ولكنى أحسب الحسن يوجد فى غير الإنسان أيضاً .

— نعم ولكنه فى الإنسان أتم وأبهر وأوفى تعبيراً .

فتقول النفس : « آه أحسبنى فهمت : لا بدلك أن تسند صدرك القريح إلى شوكة الوردة إذ تغنيها ؟

فيثور بنفسه يلعنها فلا تعبأ وتقول :

— كنت أظنك أحق بأن تحاكى النسور لا القمارى !

— النسور ؟

— نعم ترفع الطرف مثلها فى سماء الفكر . ولكنك عبدالحياة . عبدها الباكى الشادى بغنائه الذى لا يعجب الأحرار والطلقاء . وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك وحاولت أن تتلهى فى سجنك ، لا بأس ، أرسل صوتك ليؤديه الصدى مقطعا ! ! نعم . غن وتسل كما يصيح الصبى فى الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف . واحلم ـ على الرغم من الرق والأسر ـ بالخلود .

وغالط نفسك وقل إن الجمال وحى، وإن الحب لا أدرى ماذا أيضا ؟ ولكن ألا تسمح لى أن أسألك ما وحى الأزاهير الذى يذكى أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفافة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى الينبوع فاضت به الأصلاد ؟ لا بأس . غن ياعبد الأيام وألعوبة الليالى !

فلوح بذراعيه وقد ضجر وقال « أوه ! العقل العقل ! ليت إذن المقادير حرمتنا هذه النعمة التى لم نغن بها ! ماذا عليها لو أنها كانت تركتنا نرعى الكلأ ؟ ماذا كانت تخسر الدنيا لو كانت الحياة حمتنا « فكرة » السماء وسمرت لحظنا إلى الأرض ؟ كنا نرعى ملء البطون نباتا وننشق ملء الصدور هواء ولا نعد السنين ، فلا سنة جاءت ولا أخرى مضت ، ونحيا ونحن نجهل أننا أموات . ثم نموت وما كنا أحياء ، ونلبس الحياة فى كل حال راضين ناعمين جاهلين ابتداءها وانتهاءها ، ولكن المقادير أفاضت علينا نعمة الحس فهيهات ينفع العقل . نحن أحيى الأحياء فلو أحسسنا الحياة بالأعصاب العارية لما كان ذلك يكفى . والمرء يظلم الله ويجحد فضله إذا خزن ما منحه الله وخبأ ما وهبه . لا لا . إنك تريدين نيمة ليس فيها حلم . وعلى أنه يانفس، ماالفرق، آخر الأمر ، بين من يقول ليس ثم سوى الأرض ، ومن يقول لن تنالوا السماء ؟ ؟ أو بعبارة أخرى ما فرق ما بين زينون وأبيقور ؟ لست أعنى أنى أحدهما ولكن . . . »

فقاطعته النفس وقالت : « على ذكر هذين وما داما سيين فاسمع مشورتى . »
وكانت لفتة النفس مفاجئة ولكنه تعود منها هذه المباغتات أو الوثبات فسألها بابتسامة :

— ماذا ؟

قالت : « شوشو لا حاجة بها إلى صدحاتك »

فقال : « ماذا تقولين ؟ »

قالت : « أقول إنه ليس ثم مايضطرها أن تعانى الإصغاء إلى « سحر » غنائك . لا تعجل . إن دهرها لم يرعها ولم يشبع أنفاسها إلا استواء . ولم تعرف جفونها ألم الدمع الذى يأبى أن ينحدر . فليس جميلا منك أن تثقل صدحاتك بالدمع لعين لم تذق البكاء . وأن تحملها عبء عمرك وهى الغريرة الرقيقة التى تشكو الأنداء ، وأن تزعج ألحان حسنها بكلام تغصه بالضوضاء ، بل ليس من العدل أن تحيط جمالها بأنقاض حياتك . إنك زلزال يا صاحبي فاحذر . . . »

فطأطأ رأسه وقد راعته هذه الصورة ، ومضت النفس فى كلامها وقالت :

— فانفض يدك من هذا الحب . أسرع . عد إلى مارى . التقطها . إن قلبها « كالاستراحة فى إقليم الحب » .

فابتسم وقال : « بالضبط . استراحة خالية مجعولة للنزهة . ولكنى تعبت ومللت أن أظل أحمل حقيبتى الملأى بمؤونتى . سئمت أكل الأطعمة المحفوظة واللحوم الباردة . ولذلك سأمضى فى رحلتى مع شوشو » .

فسألته نفسه : « هل قدرت المخاطر ؟ »

فقال بحدة : « هل كان أنطونيو يجمع ويطرح ويعنى بهذه العمليات الحسابية وهو يتلكأ بجانب كليوباترة ؟ »

فعادت تسأله : « ولكن المسئولية » .

فقال : « إنى أعلم أن المسألة خطيرة . ولكن الرجوع لا سبيل إليه الآن . ثم إنى لا أريد أن أتراجع »

فسألته : « ومتى تخطبها ؟ »

فقال : « قريباً . فى أول فرصة » « وإذا رفضوا ؟ » .

« آه . إذن أدفن سرى فى قلبي ولا أرثيه حتى بقصيدة » .

الفصل السادس

مشرقة مثل الصباح ، جميلة كالقمر ، طاهرة كالشمس ،

مرهبة كجيش بألوية

غرفة شوشو — وإبرهيم واقف على عتبتها متردداً ، ومن حقه أن يتردد فإن غرفة الفتاة حرم مقدس ، فيها ترسل نفسها على سجيتها ، أحلامها الجديدة تنسج لها آمالها وتطرز حواشيها وتوشيها بمختلف الصور التى تتعاقب على ذهنها فى ربيع العمر ، ولكنه لم يلبث أن ملك نفسه وضبط أعصابها ودخل ، وكان للغرفة نافذتان عليهما ستاران أوشبا كان من أرق نسج ، وعلى الحائط مما يقابل السرير صورة أبيها مكبرة ، وعلى السرير المسوى حبس سماوى اللون مطروح على ظهره ، أما الكلة فمجموعة ومربوطة بشريط بنفسجى ، وإلى جانب السرير سهوة أعوادها متعارض بعضها على بعض ، وفوقها طائفة من الكتب الفرنسية تناولها إبرهيم واحداً واحداً وقلبها ، وهو يعجب فقد ألفى دى موباسان إلى جانب برناردشو ، وألفونس دوديه مجاوراً لاسبينوزا . وفرويد وراء تولستوى ، و « له فيه » و « لانفان دى فولبتيه » تحت آخر كتاب له هو ، ولم تقع عينه على كتاب مما يوضع للأطفال ، أو مما يزيد هيستريا البنات ، ولفت عينه إلى السرير ، وجعل يفكر فى شوشو وهى راقدة عليه ، ومعانقة مخلوقات خيالها ، أو مرسلة لحظها إلى المستقبل تستشفه وتستنبئه عن حبها وتتمثل سكرة القلب بخمر التسليم ، وتصور لنفسها إغماءها من فرط السكر ، وحلاوة التخدير والتفتر فى جسمها الطاهر ، ثم تمرد ضميرها على هذه الصور وعراكه معها ونهوضه لخنق

خيالاتها — ثم استدار ووقف ينظر إلى أدوات الزينة ، فرأى مكحلة فارغة سدادتها مرودها ، وحلية دقيقة براقة على صفة الوردة مما يغرز بين الشعر على جانب الرأس ، ومساحيق بيضاء فى أوعيتها ، وميلا أحمر لصبغ الشفاه لم يستعمل ، ومشطين ، وكوما من الأشرطة على كل لون ، وبقايا شعر ، وزجاجة كولونيا .

ودخلت عليه شوشو وهو ذاهل أمام هذا الخليط ، فقالت :

— ياقريبي المسكين أهذا أنت ؟ .

فالتفت إليها فراعه شحوبها وتقدم إليها باسطاً يديه فتناولتهما ؛ وقالت وهى تجره إلى السرير وتقف مستندة بظهرها إليه :

— أتعرف أنى كنت أقرأ كتاباً فى تربية الإرادة ؟ .

فابتسم ، ولم يسعه على الرغم من كل حبه لشوشو إلا أن يستخف بها ؛ وقال بلهجة مبطنة بالسخر . « هل قررت أن تشتغلى بالتنويم المغناطيسى؟ » .

فقالت : « لاتسخر ، فإن تربية الإرادة والتغلب على العواطف ، شيء يستحق الاحترام » .

فقال : « نعم . . . خنق القلب وإنماء العقل ، أليس كذلك » .

قالت : « نعم مارأيك ؟ أعنى رأيك الجدى ، بصراحة » .

فقال : « بديع جداً وضرورى أيضاً ، لرجال السياسة » .

فسألته : « وللمرأة ؟ » .

فقال : « جحود . كفر صريح . تمرد على الطبيعة لاطائل تحته أيضا . . . امرأة بدون قلب ؟ ؟ ماذا تكون ؟ مخلوقا وحشياً » .

— هل قرأت ماقال « أوفيد » فى « فن الحب » أعنى قوله « إن الفضيلة

أنثى . هى كذلك بثيابها وبلفظها » وأنا أضيف إليه ، وأزيد عليه أن الحب لقلب المرأة كالأرج للزهرة » .

فقعدت على السرير ودلت ساقيها ، وقالت وهى تهزهما .

— إنك تعرف جيداً أن قلب المرأة كصندوق « بندورا » إذا فتحته انطلقت منه كل الآلام والأوجاع والمصائب .

فعجب لشوشو . ماذا تراها تعنى بهذا التشبيه ! ولكنه كتم خواطره ، وقال :

— يجب أن تتعلم الواحدة منكن كيف تفتحه بحذر .

ففتحت عينيها العميقتين ، فتحتهما جداً وقالت :

— ماذا تعني بالحذر ، أتريد أن تقول : إن على الفتاة منا أن يكون فى مقدورها أن تقرأ الغيب ، وأن تنظر فى صدور الرجال ، فإذا قلوبهم لوح مكتوب تطالعه ؛ هل تدعى أنت أن لك هذه القدرة على النظر فى هذا الكهف العميق المظلم ؟ .

فزادت دهشته ولم يستطع أن يهتدى إلى الباعث لها على هذا الكلام ، ولكنه سايرها وقال :

« اسمعى ياشوشو . لقد أهاب بنا نيتشه أن نحيا حياة خطرة ، ولكنى أقول إنه ينبغى أن نحيا حياة أيضاً مؤلمة . إن الألم لا سخيف ولا بشع . انظرى هذه الشمس التى تنحدر للمغيب . إن للشمس بقعها . والشمس على الرغم من بقعها هى حياة الأرض . هى وحدها حياتها . والسعادة أيضاً لها بقعها . ولك أن تسميها آلامها ، ولكن هذه الآلام هى التى تجعلنا نقدر السعادة التى نفوز بها . والحياة بالقلب هى الحياة الثامنة . أما من يبلد قلبه ، من يخنقه ، فهذا إنما يحيا حياة هندسية فى ناحية واحدة . وأحسبه مهما حاول لن يستطيع أن يقنع نفسه بعقله وحده ، وماذا يصير الناس فى عالم تسيطر فيه

العقول أتم سيطرة على القلوب ؟ ينقلب الرجال « نظريات » ذات لحى أو شوارب ، والنساء ملاحق لها ، والحب لو غارتما للرغبات ! » .

فقالت له « إبرهيم . إن فصاحتك لا تقنعنى اليوم . إنى أنا فتاة دون العشرين ولكنى بكيت أنهارا وتألمت .. بكيت ليالى بأسرها على أمالى الميتة .. »

فأخذ كفها بين يديه وقال بأرق لهجة :

« شوشو . إن دموعك التى سكبتها فى ظلام الليـــل هى التى تجعل المستقبل خصباً .

آه يا شوشو . لا تذبلى زهرة نفسك . . . إن الحياة تدخر لك ساعات من أسعد الأوقات وأحلاها وأنداها »

فطأطأت رأسها وقالت « وتدخر لى أيضاً دموعا مرة . . . »

فصاح بها « شوشو ! »

فقالت « اقتناعك يعجبنى فهل لم تتألم قط ؟ ! »

فقال « يا له من سؤال ! كأنى لا أتألم الآن ! أولى أن تسألى سمك البحر هل ذاق طعم الماء المليح ؟ نعم . تألمت يا شوشو . بسبب قلبى أيضا . القلب الذى تريدين تربيته ! وسأتألم مرة أخرى . ولا يزعجنى علمى بهـذا . بل أنا راض به ومستعد له » .

وذهب إلى النافذة ونحى عنها الستار ونظر من زجاجها ثم ناداها فجأة .

ـــ شوشو !

فأسرعت إلى جانبه ووضعت يدها على كتفه فقال دون أن ينظر إليها :

ـــ لقد عزمت أن أخطبك اليوم . وهذا سر حضورى إليك :

فتراجعت خطوة وقالت ويدها على صدرها المضطرب .

ـــ تخطبنى ؟ اليوم ؟

قال « نعم . أيسوءك هذا ؟ »

فرمته بنظرة عتب وقالت :

— أرجو ألا تفعل . ليس الآن . تمهل . إنك لا تعرف . أطعني في هذا. لا تقض على بهذه السرعة . انتظر حتى تكون أختي سوسو . في . . في . . الريف ـ بعيدة عن اختي نجيه . أرجو . . ألح . . »

وكان ينبغي أن تحلل عزمه لهجتها وإلحاحها وتوسلها والفزع الذى فى عينيها ، ولكنه غاظه وأسخطه وأثار تمرده واستفز عناده أن يكون لسميحة مثل هذا السلطان ، وجرح كبرياءه أن تكون لمثل هذه الفتاة التى يمقتها قدرة على اعتراضه وأخذ الطريق عليه ، والحيلولة بينه وبين أختها . ولم يبد له ـ فضلا عن ذلك ـ أن للانتظار والتمهل أى مسوغ أو فائدة . فسميحة ستقاوم على كل حال ، فخير أن تنشب المعركة الآن فليس من وراء إرجائها أى أمل فى اتقائها . وما دام أن الحرب لا محالة دائرة على كل حال ، فلتدر والمعسكران متقابلان .. وهو بين أنصاره .. أنصاره ؟ أين هم ؟ ليس له من نصير غير الشيخ على ! ولكن أليس فيه الكفاية ؟ إنه جيش وحده ؟ وماذا تستطيع أمامه مائة ألف سميحة ونجية ؟؟

والتفت إلى شوشو وقال بلهجة المصمم :

— لقد سمعت منك أنك تقرأين كتابا فى تربية الإرادة ! بل اليوم أخطبك يا شوشو !.

الفصل السابع

(لذلك اسمعى هذا أيتها البائسة والسكرى وليس بالخمر)

قالت شوشو لابراهيم :

— هذا أنا .. قد جئت .. .

فمد إليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال :

— أهو كبر ما بنا أم جفوة ؟

— لا كبر ولا جفوة ... وإنما أنا مغيظة .

— منى ؟ ..

— كلا !

— ممن إذن ؟

— لماذا تسأل ؟ ... من نفسى !

— مسكينة يافتاتى ! وماذا صنعت مما يورث كل هذا الأسف ؟

— لست آسفة على شيء .. هذا مايغضبنى .. ولو وجدت للأسف مساً لكبرت فى عين نفسى .

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ،ولا يكاد أحدهما يحس من صاحبه - وهما مستندان إلى سور السطح - غير صوته ، فقال :

— أنت فى عينى كبيرة وجليلة - دائماً .

فلان ماكان متجمدا من نظراتها . وسلس الصعب من جانبها ، ورقت حاشيتها ، وانسجم صوتها ،وجدعها تكلفه البشر ودنت منه ووضعت يمناها على كتفه وأقبلت عليه تسائله أصحيح ما يزعم ؟ أحق أنه يكبرها

وسيظل يكبرها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟ إنها لاتسأله عن حبه لها فقد استوى على الرغم من حلاوة الثقة به ، أن يحبها ولايحبها ، ولكنها تسأله هل يحترمها ؟ فهبط قلبه وقال وهو يتناول يدها فى يده .

— وماذا فعلت يا فتاتى أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتي تحت عيون هذه النجوم ؟ .

فرفعت وجهها إليه ورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت :

— أوهذا كل شيء ؟ .

— كل شيء الآن . . . الآن وإلى الآن .

ولبثا هنيهة صامتين تحت هذه السماء المهولة المتلاحمة النجوم ثم قالت :

— وماذا كنت تريد أن تقول لى مما أجهل ؟ .

فاربد وجهه ولكنها لم تره فى ظلمة الليل ولم تدرماذا عانى حتى عاد محياه يرف لها بينما كانت هى تجذبه من كتفه وتلح عليه بالسؤال .

— كنت أريد أن أقول إن هذا لذيذ — بابتسامة متكلفة .

— ماهو؟ .

— كون يدك فى يدى .

فانتزعتها بحركة لدنية وبلا تعمد لذلك وقالت :

— لقد أنسيت أنها فى يدك

— انسيها مرة أخرى .

— لا أستطيع أن . . .

— ماذا ؟ .

— أن أنسى . . .

— تناسيها إذن .

— كلا .

— هل من سبب ؟

« لا » ممطوطة طويلة « سوى أن التناسى ليس كالنسيان »
وتناول يدها وسكنا مرة أخرى وتكلم بينهما الهوى .

* * *

وطال سكوتهما لأن الليل عظم وقعه فى صدر إبرهيم ، وكان مما يرفه عن أعصابه أن يرسل اللحظ يريد ليخرق به أحشاء الظلماء فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليلا حسيراً ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين فى أجوازها المرعبة فلاتقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا . وكذلك كانا واقفين فى ليلتهما تلك : هى مفتونة بجمالها ، وهو يكاد يسحقه الرعب ويفنيه الشعور بضآلته إذ يجيل عينه فى فيافى السماء اللانهائية ، ثم قال لها كأنما أراد أن ينقل إليها إحساسه بهول السماء وضآلة الإنسان وكل مايتعلق به ، أو كأنما كان يعنيه أن ينغص عليها متعتها بهذا المنظر :

— ثقى أن هذه السماء ليست مجعولة للإنسان مهما تكن علة وجودها . إنه لا شيء فى الأرض أو فى السماء مجعول لهذا المخلوق الذى يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس أقدر من هذه السماء على إشعار الإنسان ضآلته أو لاشيئيته إذا شئت .

فأدارت إليه وجهها وقد سحرتها نبرة صوته وراعها ما فى لهجته من المرارة وقالت كأنما تريد أن تصرفه عن هذا الأسلوب من التفكير :

— ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟

فضحك — ضحكة عصبية — وقال « يوجد ؟ يوجد - إن صح التعبير بلفظ الوجود — صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شموس . وتوجد أقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها — هذا ما يوجد ! .

وضحك مرة أخرى ، ولصقت هى به كالخائفة ، وهو عنها فى شغل .

يحدق فى السماء وقد شعر فجأة — على كل حبه لها — كأنما بينه وبينها بعد ما بين الأرض والمشترى . ومضى يقول :

— وهذه السماء التى يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن يقذف به فى أجوازها اللانهائية . . ليس جمالها الذى يسحرك بالخاطر ولا الباقى ! ها . . . حتى هذه مرجوع وهجها رماد ! » وجذبها من كتفها « انظرى هذا النجم الذى يكاد يخبو وميضه بين إخوته نجوم الدب الأكبر كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعانا ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعى الرثاء ! وتصورى هذه النجوم كلها ـ كلها ـ قد خمدت ؟ تصورى عقلك يتلمس طريقه فى سماء مظلمة خبا فيها كل ماكان يضيء ! تصورى عقلك يصطدم فى ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! نحى عينك ! غضى بصرك عن السماء إذا أردت أن تستبقى بشاشة نفسك »

ففزعت وأقبلت عليه وأسندت رأسها الصغير إلى كتفه وأراحت خدها على جانب صدره وتعلقت يسراها بكتفه الأخرى فأفاق ، ومسح لها شعرها حتى زايلها الخوف ، وإن كان لم يزايله هو الاكتئاب ، ولم يفارقه الشعور بما بينهما الآن من البعد ، على قربهما بل تلاصقهما ، وآه لو أن كل ما بينهما فرسخ أو فراسخ ! إذن لأمكن أن يبتسم . وخطر له فى هذه اللحظة أن مما يعزيه ، لو أن هذا مما يعزى ، أننا سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا . وأن الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا ، وتخفق فيها قلوب أخرى ، وترهق عقول جديدة ، وأنها ستشهد أشجاء طريفة تندب ، ومسرات ومباهج حديثة تطلب ، ويستعز بها ، على حين نعود نحن ، كما سيعود كل شيء ، قبضة من تراب .

وقالت شوشو « لن أفعل هذا مرة أخرى » ؟

— لن تفعلى ماذا يا فتاتى ؟

— ألقاك هكذا ! إنك مخيف . هى الأولى والآخرة .

فابتسم إبرهيم ابتسامة فيها من الحنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صبابة الحب ، وقال وهو يتنهد :

— لا أدرى أى سحر ضربته علىّ حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لا تكاد عينى تأخذك حتى يتحلل العزم ! فى كل يوم أعالج أن أرد نفسى على مكروهها ثم ما هو إلا أن أراك ، أو تخطر فى القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شىء سواك ، ولا يبقى لى منى إلاك .

فابتسمت وسألته وقد سرها أن ينصرف عن السماء إليها :

— وماذا تريد أن تصنع بى !

— ماذا أريد ؟ ؟ أن أحملك معى وأخفيك حتى عن عيون أهلك . هذا ما أريد . إن رأسى ليدور حين أرى واحداً من الخلق ينظر إليك . ولكن لك قدرة على المباعدة والمجافاة حين تشائين . وفى هذا عزاء لى ، وإنى ليخيل إلىّ أحياناً أن تناسخ الأرواح حق وإنك أنت برونهيلده بعينها يحيط بها سور النار الذى حولها .

— ليتنى كنتها . ليت حول كل فتاة مثل هذا السور عن النار . تحمى به قلبها وتمتحن من ينشده .

— بحسبك غرائزك النسوية سوراً من النار .

— ولكن ألم تعرف ـ ألم أقل لك ـ إن ماتبغى عسير لا يقع فى الإمكان ، فما جدوى هذا الذى نحن فيه ؟

— أعرف ؟ من أين لى علم هذا ؟ كل ما أعلمه أن أهلك حمق وأنهم يضحون بك فى سبيل أختك . . . لا تضعى يدك على فمى ! دعينى أتكلم ! إنهم يحولون دوننا تقديماً لها عليك ، وقد علموا أنك لى لا محيد عن ذلك ! عن رضى منهم أو محمولين على مكروههم .

وفى هذه اللحظة دفعتها الريح إلى صدره فأسكره قربها ، وأخذ منه شذا شعرها ، فضحك ضحكة عصبية ، ورفع وجهها إليه ، وأهوى على فمها يقبله فى بساطة كأنما كان هذا حقاً له ، وهى تجاهد وتعالج أن تفلت من عناقه ويأبى هو أن يدعها .

ــ إنك . . .

وعضت شفتها وردت اللفظ الذى همت به .

ــ أنا أى شىء ؟ قوليها . اقذفى بها فى وجهى كما قذفوا .

ــ وحش . فظيع . هذا أنت . دعنى .

غير أنه لم يدعها ، بل ضمها وهو يضحك فى رقة وجذل وسكر حتى همست فى أذنه :

ــ لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم .

فقال : « لم تعنه أبداً بالطبع .

وقبلها ثانية .

وقالت وقد تخلصت من عناقه :

ــ كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟

ــ أنا ؟ متى وعدت ؟

ــ كيف تسأل يا . . .

ــ يا وحش . قوليها .

ــ ولكن أليس لك ضمير ؟

ــ ضمير ؟ ياله من سؤال . بالطبع لى ضمير .

ــ لا أراك تحفل به الليلة .

ــ أنا فى شغل عنه . قبلينى .

ــ أى فكرة . ماذا أصابك الليلة ؟

— افعلى .

— مستحيل .

— من فضلك .

— مستحيل . قلت مستحيل .

— إذن تعالى أقبلك .

— ولا هذا .

— ولم لا ؟ ألا يسرك أن تكونى محبوبة ؟

والتف حول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل إلى شفتيها ، فهل هذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هى له كما سمعته يقول بلهجة اليقين على الرغم من رفض أختها ؟ إنها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً أو قليلا ، فياليت من يدريها ماذا أصابها ففترها وأفقدها الإرادة والقدرة على ضبط نفسها ؟ وعلى أنها لم تعد تكترث لذلك أو تفكر فيه ، فقد كان الدم يتدفق كالمجنون فى عروقها .

— أمصغ أنت ؟

« نعم » بصوت تخنقه عربدة الشفتين فى نحرها .

— إنى أعلم عظم حبك لى وإلا مافعلت الليلة مافعلت على الرغم من الحيلولة بيننا . ولكن أى فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة ، وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ، ولا أن يسهل أن تلهيك عنى وتعللك بالدنيا ، ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — مايطيل ادكارك لى — ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلنى هكذا ؟ إنه الزهو والغرور والأنانية . . . »

— بل قولى إنه الحب .

— هو هذا وذاك بلا شك ، ولكنى أردت أن تذكرنى . . .

— أو تحسبين أن نفسى ستطيب عنك ؟

— أخشى .

— لماذا ؟

— كل امرىء ينسى القبلة بعد أن تبرد شفتاه .

— من علمك هذا يا . . .

التقت شفاههما فى قبلة طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت :

— دعنى أذهب الآن .

ولكنه ضمها وهو يقول : « أدعك ؟ كلا ! إنى أخشى أن تتسربى فى الهواء إذا تركتك »

— كلا لاتخف .

وعاطفته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهى تلح عليه أن يدعها فسألها :

— أواثقة أنت أنك تريدين أن تمضى ؟

— كلا ! ولكنى واثقة أنه « يجب » أن أذهب .

فخلاها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفتت إليه وهى تقول :

— لا يشق عليك ماتقول أختى . . وأيقن أنى . . . ولكن ليتنى أكون أنا على يقين من وفائك !

ومضت أخف من الفراشة .

وسافر هو فى الصباح إلى الأقصر .

الفصل الثامن

من هو جاهل فليمل إلى هنا ؟

أدار الدكتور محمود ظهره إلى المركز حيث عيادته وقصد إلى الأسكندرية. وكان عمله يضطره أن يجعل زيارته غبا لبيت الشيخ على فى القرية، ولم يكن يعنيه من بيت قريبه إلا شوشو على الحقيقة، وأمره معها عجيب، فهو حين كان يراها لم يكن يحس أن لوجودها أثراً عميقا فى نفسه أو أن طلوع وجهها فى مدار حياته قد أضاف إلى هذه الحياة شيئا، ولكنه بعد أن رحلت مع بقية الأسرة إلى الأسكندرية وجد نفسه كثير الشرود وأدرك أن ما كان سلوة فيما يعتقد لا أكثر ولا أقل قد صار حاجة ملحة وبعبارة أخرى مألوفة، إنه يحبها.

وهكذا أحب شوشو اثنان: واحد بمعاشرتها وتوالى النظر إليها، والآخر بالبعد عنها والانقطاع عن رؤيتها.

أما كيف أحبها الدكتور ومتى كان ذلك فهذا ما لم يستطع أن يهتدى إليه ويحل لغزه، والمحقق عنده على كل حال، أنه لما تركها آخر مرة — قبل أن تغادر القرية — لم يشعر بذلك الأسف والاكتئاب المعهودين ساعة الفراق. فهل بدأ يحبها يوم سمعها تغنى ورآها معتمدة على حاجز السلم؟ لقد أعجب بها حينئذ وتعلقت صورتها بذهنه وألحت على خاطره ولكنه يذكر مع ذلك أنه وجدها «جافة». أم ترى أحبها لما أكرهته بعد ذلك بقليل على مبارحة المنزل والعودة، على الرغم من المطر والأوحال،

إلى المركز ؟ ؟ لقد راقه حديثها قبل ذلك ولكن خبثها أفزعه ومكيدتها أسخطته. أم هو اكتئابها وتفترها وما عراها من الذبول بعد رجوع الشيخ على إلى القرية ؟ لقد وقع فى نفسه ذلك وأدركه عليها عطف عظيم حين رآها لاتكاد تتكلم أو تضحك ، ولا تميل إلى ترك غرفتها إيثاراً للوحدة.. ترى لماذا ؟ وقد كانت تصده عنها فى ملل وضعف فماذا كان يكربها ؟ وكيف حالها يا ترى فى الأسكندرية ؟.

والواقع أن حب الدكتور محمود لشوشو كان شاهداً على أن هذه العاطفة ليس من الضرورى أن تكون نتيجة لتلاقى العيون وتلامس الأكف ، ذلك أن قلبه لم يصب إليها إلا بعد أن نأى عنها واستحالت فى ذهنه خيالا ومعنى ، فأدرك أنه يحب روحها التى لازمته فى رقاده ويقظته واستبدت به حتى صار يرتجف إشفاقاً من العواقب التى قد تترتب على إدخال هذا العنصر الجديد فى حياته الهادئة المنظمة ، فاشتد قلقه واضطرابه ثم صار يشرد فكره ويتعلق بصورتها وراح يجد لذة فى التفكير فيها.

وكان يوما فى القرية يعود مريضا فلم يطق أن شوشو ليست فيها فصمم على الذهاب فى هذا اليوم إلى الأسكندرية ، واعتدل فى مقعده فى المركبة أو « الفيتون » على الأصح ورفع السوط ولوح به فوق رأس الجواد الأصيل فانطلق يخطف ، وسره عزمه الجديد ! وأنعشته المناظر على الجانبين وراح يتصور نفسه بطلا غازياً سيدخل الإسكندرية فاتحاً — يومىء بأصبع فيهرع إليه الخلق ويحرك شفتيه ، فينطلق مائة رجل فى خدمته ، ويبتسم فتشرق الوجوه وينعم الناس ببشره و . . .

وهنا صادف الجواد مصعداً وصار السير بطيئاً فتساءل من أين له هذه الثقة بالنجاح أولا وبالسعادة بعد ذلك ؟ ؟ وفكر فى النجاح أولا فما هى فرصته ؟ ؟ وقال لنفسه : « لا أدرى . . من أين لى العلم بما يبطنه هؤلاء

النسوة ؟ إنهن جميعاً يلاطفنني إلى آخر ذلك ، ولـكن هل هذا من المرأة له قيمة أو دلالة خاصة ؟ » وجره ذلك إلى التفكير فى السعادة ، فمضى يقول : « لست أذكر شيئاً معيناً قالته شوشو يبعث على الأمل ، نعم تجرى أحياناً لاستقبالى وتظهر السرور بوجودى ، وهذا كل شىء .وأحسبها تجاملنى لأنى قريب الشيخ على ، ثم أنى طبيب والمستقبل أمامى حسن ، ومكاسبي الحالية ليست بالقليلة ، فهل يتقدم لها من هو خير منى ؟ ؟ » .

وانتهى الصعود وبدأ الهبوط ، وعاد الجواد يخب ، ومضى هو فى مناجاته لنفسه « صحيح إنها لم تختصنى بشىء يروق ويعجب ، ولم تبد لى إيثاراً ، ولـكن ما دلالة هذا ؟ ؟ ، وماذا أنتظر غير هـذا الاحتشام من فتاة حسنة التربية ؟ ، وإذا كانت قد صـدتنى عن مغازلتها ، أفليس هـذا أولى بأن يرفعهـا فى عينى ؟ ، أكنت أحترمها أو أفكر فى الزواج بها لو أنها أسلمت لى قيادها ومنحتنى زمامها ؟ كلا ! وما على الآن إلا أن أتقدم لأفوز . . أمد يدى لأقطف الزهرة .. ومما يزيد سرورى أنها فيما أعلم لم تحبب أحداً قط . صحيح إن علاقتها بإبرهيم وثيقة ، ولـكن هذا ابن خالتها والأسرة كلها تـكبره وتحبه ، ثم إنه ضيف ولن يطول مقامه على كل حال . وهو بعد رجل جاد حـكيم قوى فمخالطته لشوشو تنفعها ولا تضرها ، تؤتيها الاتزان الذى ينقصها . وفيما عدا ذلك لم تقع عين شوشو على أجنبي ولم تخالط غريباً فهذه مزية ، فليس أبغض إلىّ من أن أتصور نفسى أحب امرأة جربت هذه العاطفة من قبل . نعم فإن من المستحيل أن يطمئن المرء إلى زوجة كانت لها برجل آخر علاقة حب .

وابتسم وهو يتصور شوشو خاليـــة القلب مستعدة أن تثنى عنان قلبها إليه.

وكان الجواد قد انتظمت خطواته وخفت سرعته ، فهبط أمل الدكتور

تبعاً لذلك فقد خطر له أن سميحة قد تكون عقبة فى طريقه وطريق شوشو. نعم إن الشيخ على رجل واسع الذهن ، طيب القلب ، ولكن الأمر فيما يتعلق بشوشو ليس إليه ، بل إلى زوجته ، وهى سيدة مؤدبة ولكنها لاتفهم شيئاً ، ثم إنها عنيدة جداً ، فهل تقبل أن يتخطى الدكتور سميحة ؟ هذه هى المسألة . لماذا لم يخطب أحد سميحة هذه ؟ إنها ليست أقل جمالا من أختها ؛ وإن كانت . . . أوه ! مالى أنا وما لها ؟ لتكن ماشاءت فليس لى بها شأن . ولكن هذا لايحل العقدة . ولست أرى أن أكلم الشيخ على فى ذلك فقد يسخر منى . . فمن أستشير ؟ ليس أمامى سوى إبرهيم . هو الرجل الذى له من الاحترام والتوقير مايجعله خير معين لى فى هذه الورطة . ولن أعدم لحظة أخلو فيها به فى الإسكندرية .

ولما صار فى الإسكندرية قادته رجلاه إلى دكان صائغ ؛ فانتقى منه قرطين من الذهب تتدلى منهما حبات من اللؤلؤ قال لنفسه أهديهما إليها ؛ واتخذ مجلسه فى قهوة وأخرج العلبة وجعل يقلب القرطين معجباً بهما مستغرباً من نفسه هذه الجرأة ؛ . . . الجرأة ؟ نعم . وهل يجوز أن يتقدم بمثل هذه الهدية إليها وليس بينهما مايسمح بالتهادى ؟ واضطرب وأضاع نصف ساعة فى التفكير فى هذا ؛ واستسخف نفسه جداً لأن هذا الاعتراض لم يرد على خاطره قبل أن يشترى الهدية ؛ فقد أيقن أن ماهم به ليس إلا عملا ينكره العرف والتقاليد بل العقل ؛ وكيف يفاجىء بهدية كهذه فتاة لايزال ينقصه أن يعرف ماتنطوي عليه له ؟ وكيف يتخطى أهلها ويقصد إليها مباشرة ؟ أمن أجل أنه أتم دراسته فى (ليون) ينسى بلاده وعاداتها والأصول المرعية فيها ؟ وتناول العلبة وفتحها آسفاً وجعل يقلب القرطين ويتأملهما فجرى بباله خاطر آخر كان تنغيصه أشد . هب شوشو لم يعجبها اختياره ، ولكن هل انتهينا من القبول حتى نفكر فى الذوق الذى حدا

إلى الاختيار . وكاد الشك يطير بلبه ويعصف بعقله فجعل طول النهار يتأمل القرطين من قريب ومن بعيد ؛ وفى الظل وفى ضوء الشمس حتى اقتنع بأنهما شر ما كان يستطيع أن يشترى — فضلا عن حماقة العمل فى ذاته .

والآن ماذا يصنع بهذين القرطين ؟ وتمنى أن يفقدهما ؛ وود لو يسرقهما منه لص ؛ وأخيراً استوقف مركبة وثب إليها وقد خطر له حل جميل . واشترى قرطين آخرين ؛ وخرج بالزوجين وقال أهدى كل فتاة واحداً ؛ فلا يبقى هناك اعتراض ؛ ويكون عملى هذا إشارة صريحة إلى أنى أفكر فى مصاهرة الأسرة . . . ولكن رأسه تدلى وقلبه هبط لما تنبه إلى أن أول ما سيخطر لأى امرىء هو أن سميحة هى طلبته .

مسكينة سميحة . . . لو عرف إبرهيم هذا لأدركه العطف عليها . . .

الفصل التاسع

«ابعدوا عني ياجميع فاعلى الاثم»

كانت شوشو راقدة فى غرفتها وعيناها مفتوحتان . تدير هما فلا ترى أثراً لإبرهيم ، لاصورة ولا هدية ولا رسالة ولا بطاقة زيارة . جاء وذهب كالعاصفة ولم يخلف إلا مثل ما تخلف من التحطيم ـ وأين هو الآن . فى الأقصر ! يدفن الحب الذى خيبته نجية ـ « نجية أختى ويحها ـ فكيف لو كانت امرأة أبى وضرة أمى ! » يدفنه بين أطلال طيبة ! وهو متكبر وعر الطبع فإما أن يخنق هذا الحب ويدفنه وإما أن يقضى نحبه معه . لاشك فى ذلك . ولن يرجع من طيبة ، إذا رجع إلا بقلب سليم . مافى هذا أيضاً شك . كرامته عنده فوق كل شىء وهى أحق بالمراعاة من كل عاطفة . ألم يقل للشيخ على حين أراد أن يقنعه بوجوب التسليم على نجية قبل سفره « قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه ؟ قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما ؟ » متمثلا بالتوراة .

وطفر الدمع من عينى شوشو وهى تتصور عناد إبرهيم وصلابته ومرارة نفسه وانتساخ كل أمل فى لينه أو تساهله ، وكاد يسخطها هذا على إبرهيم . إذ كيف يقسو عليها هذه القسوة ؟ ماذا صنعت هى حتى يحطم قلبها ويدوسه بحذائه ؟

وهمس فى أذنها الإنصاف « وقلبه هو ؟ ألم يتحطم ؟ أليس المحقق أنه إذ يحاول أن ينتزع حبها من قلبه ينزف ؟ »

فقالت « نعم . نعم » ودفنت وجهها فى الوسادة وتركت دموعها تنهمر .

وأفاقت . . . مريضة . كل أعضائها يخذل بعضها بعضاً . وماذا يكون المرض إن لم يكن منه ذلك ؟ قلبها تحسه هابطاً وروحها مسحوقة وأملها ضائع والعزاء لاسبيل إليه . نعم هو يحبها . وهل يمكن أن تنساه وهو واقف أمامها . النور الذى فى عينه ، والنبرة التى فى صوته ، ووفاؤه لها . إن فى وسعها أن تراهن بحياتها على حفاظه ؛ ولكن ما جدوى وفائه وقد محقت أختها حياتها ؟ ماخير أن يظل يحبها وقد ائتمرت بها أختاها ـ كلتاهما ـ ليقضيا عليها ! والشيخ على يقول : إن بها حاجة إلى قليل من الراحة ! آه لو علم ! إن حاجتها إلى ماهو أكثر من الراحة ! ولو رآها وهى تبكى وشعرها منفوش ووجهها على الوسادة وقلبها يتمزق لأدرك أن الراحة لاتغنى !

ولم يكن يمسكها فى هذا اليأس الأسود الذى يحيط بها والنقمة الماحقة التى تشعر بها لأختيها ، إلا يقينها بأنها محبوبة ، وإلا ذلك المقدار من السعادة الذى ينتجه هذا اليقين . بهذا الخاطر تشبثت بينما كانت عواطفها تزخر وصدرها تعيث فيه عواصف الألم . ومن الذى يستطيع أن يسلبها هذا الحب مهما حدث ؟ قد تكون الأقدار قد خبأت لها تجارب أخرى وآلاما جديدة فى حياتها ولكن الأقدار نفسها لاقدرة لها على حرمانها الشعور بأن إبراهيم يحبها ـ كلا ولا اليقين بأنه لن يحول أو يتغير ، فقد فطنت شوشو بسرعة إلى عنصر الثبات الهادىء الرزين فى أخلاق إبرهيم ، وحتى لو تغير إبراهيم أوحال عن عهدها فإن ذلك لايغير الحقيقة الراهنة ولايمحو السعادة الحاضرة ولا يحرمها كنزها الذى تضن به وتعيش عليه . وسألت نفسها وهى فى هذه الحالة النفسية التى يختلط فيها الجذل والألم « أكنت أستطيع أن أحس هذا السرور الخفى الدقيق بمثل هذه القوة لو لم أتعلم من سلوك سميحة أن أميز بين الصحيح والزائف ؟ لو لم تكن هناك عقبة ، لو أن سميحة لاتوهم أختها نجية أن بينها وبين إبراهيم حباً ؟ أكنت أعتز بحب إبراهيم كما

أفعل الآن ؟ أكنت أعتد حبه لى ـ لى أنا وحدى دونها ـ عزاء وذخراً لى، وكنزا أطويه فى أعمق أعماق قلبى ؟ وطلسما أدفع به الشقاء، ورقية يبلغ من قوتها وفعلها أن تسلى القلب لحظة وتنسيه أن كل رقية عبث وكل سلوى محال؟ »

ودخلت عليها أختها سميحة وهى على هذه الحال فلم تأخذها بها رحمة وصاحت!

« ماشاء الله. ماشاء الله . طبعاً ياستى . معذورة . ربنا يكون فى عونك »

فأحست شوشو بالرغبة فى خنق أختها ، أو على الأقل فى جلدها بالسياط . أليست مجرمة ؟ ألم تقض على نفسين ؟ ألم توكل بهما الشقاء طول العمر ؟ ألم تقمع حياتهما فى شبابهما ؟ ولكنها ملكت نفسها ومسحت دموعها واعتدلت وقد زهاها أنها هى المحبوبة دون سميحة ، وأن سميحة خسرت مثلها ولم تكسب ، ورمتها بنظرة احتقار مرة ونهضت متثاقلة إلى المرآة فأصلحت شعرها فى صقالتها ثم التفتت إليها وقالت :

— أنا المعذورة ؟ ربما . على أنى أرجو من فضلك أن لا تلعبى دور الأم . لست أكبر منى إلا بعام . فلست أقبل منك أن تعدى نفسك مربية لى . أكبر منى ؟ ليتك كنت الصغرى ! أعنى ليتك أنت مكانى . . أنت المطلوبة بدلا منى ، ولكن بختك هكذا وأحب أن تكونى واثقة أنى لاأعبأ بك ولا أحترمك . اعلمى هذا لتريحى نفسك وإلا فسأكون مضطرة أن أسىء أدبى عليك أمام الناس . إن ما يعنينى يعنينى وحدى .

ورضيت شوشو عن نفسها لأنها استطاعت أن تكبح عواطفها وأن تنغص على أختها انتصارها ، وأن تصمد لها على هذا النحو ، وطاف برأسها أن هذا تأثير إبرهيم ، تأثير روحه القوية التى تأبى أن تنهزم ، هى بلا شك روحه التى أوحت إليها هذا الموقف الحازم . ولم تكن سميحة تتوقع من أختها هذا التمرد لأنها ألفت منها الطاعة والانصياع والأدب ، فأذهلها

ما سمعت وصدمها ، وآلمتها الوخزة ، وكان فيها جبن — والجبن والمكر صاحبان — فأشفقت أن تسوء العاقبة وأن تفقد كل سلطان على أختها إذا لم تتراجع ، وأيقنت أن العصفور لم يعد فى القفص ، فأقبلت على شوشو تمسح لها شعرها وتلاطفها وتؤكد لها أنها آسفة وأن العطف عليها هو الذى أطلق لسانها بما قالت وأنها لا تحب لها أن تذبل زهرة حسنها بالبكاء .

ولكن شوشو لم تلن ولم تخدع بل زادها تحول سميحة إلى الملاطفة شعوراً بأنها وفقت إلى ما يجب عليها فنحت يدها عنها وقالت : « كفى نفاقا . لا تحاولى أن تخدعينى . ألست أقول لك بصراحة إنى لا أحترمك ؟ فماذا تبغين منى ؟ إن ملاطفتك أبغض إلىّ وأثقل علىّ من سلاطة لسانك . فاذهبى عنى من فضلك وإلا فأنا غير مسئولة .

ولكن سميحة كانت أقوى من أن تظهر الهزيمة ، فقالت .

— كل ما أردت أن أخبرك به هو أن الدكتور محمود جاء وسيبقى الليلة هنا . وقد يسأل عنك فماذا نقول ؟ إن الأوفق أن تنزلى فما يليق أن يطلع على شىء .

فضحكت شوشو وقالت :

— الدكتور محمود جاء . يا لها من فرصة . — أعنى لك طبعاً .

فغضبت سميحة لهذا التعريض وكان غضبها حقيقياً لا تكلف فيه ، وثارت بشوشو تعنفها على هذا الكلام الجارح وتحتج على هذه اللهجة .

ولكن شوشو كانت تجد لذة فى إيلام سميحة فسرها غضبها وعلمت أن الوخزة شكت قلبها وقالت :

— مهلا . مهلا . أليس الدكتور كإبرهيم .. أعنى رجلا ؟ ؟ كل ما أخشاه

هو أن أخرج للدكتور فيقع فى حبائلى وأقنصه كما قنصت إبرهيم فتضيع عليكِ فرصة ثانية . لذلك أكرر لك تهنئتى بالفرصة الجديدة وأعدك أن لا أرى الدكتور وجهى .

فلم تطق سميحة هذه المكايدة وخرجت .

وعجبت شوشو لنفسها من أين لها كل هذا الهدوء .

الفصل العاشر

(ثم سمعت صوت السيد قائلا : اذهب)

« آسفة ! » .

لم يستطع الدكتور محمود أن يصدق هذا .

« آسفة لأنها . . . ماذا قالت ؟ ؟ أوه لا أدرى ! لم يعد لي عقل أدرى به شيئاً . . آه لا تريد أن ترى أحداً . . هذا « الأحد » هو أنا ، هيه ، أنا ، لا سبب غير ذلك ، لا تريد والسلام . ما معنى هذا ؟ معناه ؟ وهل له غير معنى واحد ؟ أختها تخبرنى أنها متعبة فأظهر قلق وأعرب عن استعدادى لعيادتها فتبعث إليها بسميحة تبلغها أنى سأعودها . . سأعودها . . هيه ، ليست زيارة ولكنها عيادة . . عيادة طبيب لمريض ، شيء عادى جداً ، ولكنها ترفض رؤيتى ، تأبى أن ترانى ، لا تريد أن ترى أحداً . . . وأنا هنا واقف كالبغل ، ما معنى هذا ؟ ها ها ! »

كلا . لم يستطع الدكتور أن يفهم ما حدث ، وله العذر ، وكلما أطال التفكير فى الأمر زاد استغرابه واضطرابه ، وكان هذا أول ما حدث له من هذا القبيل باعتباره طبيباً ، وأول ما جرب من الصدمات لرغباته فى الحياة ، فراح يقطع « الصالون » جيئة وذهاباً ويحاول أن يضبط عواطفه ويقبض على الزمام الذى تفلت من يديه ويحدث نفسه بأن لهذا السلوك سراً لعله غير راجع إليه ، وعسى أن يكون هناك شيء يجهله هو ، ربما كانت الصدمة التى تلقاها ليس معنياً بها على وجه التخصيص ، وإنما هى صدمة كان أى إنسان عرضة لها بدلا منه ، لو اتفق أن أى إنسان آخر كان بدلا منه . ولكن الذى لا يفهمه

هو أن كل من فى البيت لا يستغرب أن ترفض شوشو أن يراها طبيب على الرغم من أنها متعبة ، وبعبارة أخرى مريضة . فهل هذا معقول ؟ كيف يتلقون رفضها بالتسليم المطلق ومن غير أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض، أو يبدو أى أثر للدهشة على أى وجه ؟؟ وليست هذه عادة الأسرة ، فإن الطبيب أول مايفكر فيه الكبار والصغار والنساء والرجال والخدم والسادة ، لأتفه انحراف ، حتى الزكام يستقدمون من أجله الطبيب إلى القرية ، ولو كانت المصابة به فاطمة الزنجية ! ولهم هنا فى الأسكندرية طبيب لا يعودهم سواه ، وينقدونه أجره فى المواسم الزراعية ، لا بعد كل زيارة ، فما معنى هذا ؟؟ ما الباعث لشوشو على الإباء ولأختيها على السكوت ؟ ؟

ووقف أمام البيانو ينظر إلى الصور واللعب المرصوصة فوقه ، وأخرج سيجارة وقدح عوداً من الكبريت ورفعه ليشعل به السيجارة ، ولكن خاطراً جال فى ذهنه فنحى السيجارة عن فمه قبل أن تشعل ، وسأل نفسه : « ولكن هل هى مريضة ؟ ؟ إن شكى عظيم ! كلا ! لا يمكن أن تكون متوعكة وتأبى أن يراها طبيب . كل ما أعرفه عنها وعن الأسرة كلها يحملنى على الاعتقاد بأن المرض دعوى » . وهز رأسه كأنما أوشك أن يهتدى إلى السر ويقع على حل للغز ، وأشعل السيجارة وزم شفتيه وأرسل الدخان خيطاً طويلا إلى فوق كما يفعل المرء وهو يفكر ، وكاد يبتسم ابتسامة الرضى عن النفس والارتياح إلى ما أبدى من الذكاء والفطنة ، ولكنه عبس ولم يبتسم ، عبس لأنه تذكر هيئة نجية وهى تشكره على اقتراحه أن يعودها ، وتقول له : « أيوه يابنى والنبى كترخيرك ، أحسن البنت مش عارفه جرالها إيه . لو تشوفها ماتعرفهاش . مابقلهاش شكل . روحى يا سميحة ياختى قولى لها الدكتور جاى يشوفها . إياك على الله يابنى امال ، لحسن موريانا الصديد »

فكيف لا تكون مريضة وهذا كلام أختها ، وتلك لهجتها ؟

ووقفت فى هذه اللحظة سميحة فى مدخل الباب وقطعت عليه التفكير بسؤال :

— يا دكتور ابن عمى هنا ؟

فالتفت إليها وقال : « لا . اسمعى . »

فدخلت وحار كيف يسألها عن شوشو وكيف يتقى أن يثير شكوكها بسؤاله ، ولكن مهنته أسعفته فقال :

— كيف أختك الآن ؟ أرجو أن تكون حقيقة فى غنى عن الطبيب .

فقالت وهزت كتفها :

— أختى وو . .

فلم يفهم هذه اللغة ، لغة الأكتاف المهزوزة ، والشفاه الممطوطة ، ولم يدر أيطمئن لما يتبينه فى لهجتها من الاستخفاف أم يقلق لما تنم عليه حركتها من الامتعاض والضيق .

فقالت سميحة « لا » ممطوطة جداً - « إنك لا تعرف شوشو يادكتور هى هكذا دائماً . دعك منها فلا أمل فى إصلاحها »

فقال : « إنى آسف لسماع هذا ، فقد كنت أظن أنها أعقل . . . »

فقاطعته : « أعقل ؟ ها ها ! ليس فى رأسها رائحة العقل . هل يغرك منها ظاهرها ؟ آه لو عاشرتها ! ولكن الكلام عيب ، أرجو أن تدع سيرتها ، فإنها تؤلمنى ، إنى أتحسر كلما رأيتها تزداد كل يوم . . ولكن ماذا نقول ؟ ربنا هو الهادى ! »

فلم يدر الدكتور ماذا يقول رداً على كلامها وتنقصها لشوشو وآلمه أن يسمع هذه الزراية ، ولكن كيف يدخل بين الأختين ؟ وسميحة هى

الكبرى ، فأسفها معقول إذا صح أن شوشو كما تصف ؟ ؟ كيف يمكن ؟ ؟ إنها تبالغ ولاشك . . .

وكأنما أدركت سميحة أن الشك يخالج الدكتور فقالت :

ــ أنت معذور إذا لم تصدق ، لأنك لاترى شيئاً . ولو كنت غريباً عنا لما كاشفتك بما فى نفسى من الأسف والألم ، وقد ضاق صدرى ولم أعد أعرف ماذا أصنع ، حتى أختى نجية وهى كأمى أعيتها الحيل ، بالطبع ليس هناك شىء معيب ، هذا بديهى ولكن تصور أنها مثلا لا تعرف شيئاً عن شئون البيت وتدبيره ولوازمه ، يكون معها الشىء فتلقيه حيثما اتفق ، وتكون غرفتها « كسوق الكانتو » والخادمة مشغولة فلا تكلف نفسها كنسها أو ترتيبها ، ولو ظلت شهراً على هذا الحال ، وتعطيها مبلغاً فإذا سألتها عنه كيف أنفق اكتفت بأن تقول لك « فى البيت » ، حتى كتبها التى تحبس نفسها فى غرفتها أياماً لتقرأها أنا التى أرتبها وأنظفها وأنفض التراب عنها ، ولا تستطيع أن تشترى لنفسها منديلا أو تفصل ثوباً . وهذا كل ما استفادته من المدرسة ! الكتب ليس إلا ، وماذا أقول ؟ ؟ أقول تتفكر تتحسر ؟ » .

وتنهدت .

ووقف هو كالأبله .

وظهر الشيخ على فى الباب فسد فضاءه .

وتسللت سميحة فخرجت من باب آخر .

وقال الشيخ على وهو يدنو من الدكتور ، أو على الأصح صاح به :

ــ فى الحديقة يكون منظرك أحسن . ليس هنا مكان التماثيل ، الغرفة أضيق من ان تتسع لتمثال كبير ! فى الحديقة . تعال نختبر المواقع وننتق أوفقها ، أوه ما هذا ؟ .

ومد يده فجس جيب الدكتور فصار وجهه كالجمرة .

وقال الشيخ على : « أتفاح هـذا ؟ لمـاذا تحمله فى جيوبك ؟ لا ، ليس هذا تفاحا . أهو فحم كوك ؟ » .

وضحك وقد أعجبه منظر الدكتور يحمل فى جيبه فحم « كوك » .

فابتسم الدكتور وقال « فحم ؟ لالا » ولـكنه لم يمدد يده إلى جيبه ، ولم يخرج مافيه ، وكيف يخرج علبتى الحلقان ويريهما للشيخ على ؟ ومع ذلك لمـاذا لا يفعل ؟ هل كان ينوى أن يقـدمهما سراً ؟ كلا ! ولـكنه لم يكن يفترض أن يكون الشيخ على حاضراً ساعة الإهداء ، ولا بأس بأن يعرف الحكاية بعد أن يتم الأمر أو يكون هو قد رجع إلى المركز .

واستحيا أن يخفى الأمر عن الشيخ على ، وخطر له أن هذه قد تـكون فرصة أتيحت للتخلص من الحلقان التى أنسيها لمـا صـدمته شوشو برفض عيادته ، فاخرج العلبتين ، ومد بهما يده للشيخ على ففتحهما هذا وقال :

ــ حلقان ؟ ها ها ! تـكاثرت الظباء على خراش ! ! بل على العكس ، تـكاثر على الظبية الخراشون .

فلم يفهم الدكتور ، وخيل له أن قريبه يهذى : خراش وظباء ماذا يعنى؟ ورفع إلى الشيخ على وجها كله علامة استفهام .

فقال الشيخ على ، وهو يدق كتفه بيـده الـكبيرة « لم يخطىء ظنى ياصاحبي ! وسأصف لك دواء هو خير من كل طلبك الذى لا ينفع أحداً ، طبك الذى يخونك الآن ، طبك الذى ترفضه شوشو ... آه . . لقد فضحك وجهك . . . فاسمع : دواؤك أن تخرج إلى البحر وهو من هنا قريب ، مائة خطوة ، ومعك هذان الحلقان ، فتلقيهما فيه وتلق نفسك وراءهما . هذا هو دواؤك . فلا أمل لك فى شوشو . ومتى قال الشيخ على هذا فيجب على قريبه أن يصدقه فاذهب إلى البحر . تعال معى فقد تحتاج إلى معونتى » .

القسم الثالث

لأنى دعوت فأبيتم ، ومددت يدى وليس
من يبالى ، فأنا أيضا أضحك عند بليتكم

الفصل الأول

كيف أصفح لك عن هذه ؟

لو رأى القارىء إبرهيم فى الاقصر بعد الذى سردناه لك فى الفصول السابقة لحسبه من طلاب الآثار أوعلى الأقل من المولعين بدرس العاديات المصرية . فقد كان يقضى نهاره كله فى الهيا كل والمقابر ، والهزيع الثانى من الليل مكباً على الكتب ، أو مدوناً ملاحظاته وآراءه فيما شهد فى يومه ، وقد استغنى عن الأدلاء بطائفة متخيرة من الكتب التى وضعها العلماء والكاشفون عن الآثار أو المفتشون الأجانب التابعون للحكومة المصرية ، وكان يحلو له أن يجلس على صخرة بين الأطلال ويذهب يفكر - لافيما يحيط به من المعاهد الدارسة ، بل فى هذه الصحراء العارية التى تكتنف كل شىء ، والتى عظم وقعها فى نفسه حتى لراح يتمنى أن يرزقه الله القدرة على نقل هذه الصحراء وحملها معه فى حله وترحاله ، وفرشها وبسطها حوله فى حيثما يكون من الأرض — نعم ليت هذا فى وسعه ! إذن لاستطاع أن يطويها كلما غادر بقعتها ؛ وأن يلفها مع ثيابه وأشيائه فى حقائبه ، حتى إذا نزل مكاناً واستوحشت نفسه أنس بأن يخرجها وينشرها أمامه ويتأملها ويذكر بها لياليه فيها بما اشتملت عليه - فقد صارت نفسه فيما يرى كهذه الصحراء : تربة بكراً تغذوها الشمس ولكن خيرها دفين فيها ؛ فظاهرها مجدب ووجهها أجرد ؛ ولا علم لأحد بما فى جوفها وبما كان يمكن أن يخرج منها لو أن الحياة لم توسعها حرماناً مما أغدقته على غيرها من رقع الأرض : وكذلك هو : أخطأه الحظ فى ناحية ؛ فأجدب ظاهره وبقى باطنه زاخرا بقوة الحياة المكنونة فيه .

ولم يستغرب إبراهيم نشوء هذه «العاطفة» في نفسه للصحراء ، فقد قرأ — أين ياترى ؟ ما أخون ذاكرته في هذه الأيام — أن بعضهم كان يقرأ وصفاً للصحراء الكبرى فأدهشه أن يحس أن أنفه قد غطته البقع فأمسك عن القراءة مخافة أن تخرج على بدنه الحصف من لفح مايصف الكاتب .

وهز رأسه وتساءل وهو يدير عينه في الفضاء والخراب حوله .

— ماهي هذه المدنية ؟ أهي شيء مرتبط « بالإنسانية والمروءة» ؟ بانقطاع العذاب أو التعذيب ؟ كلا فقد كانت آشور على حظ عظيم من المدنية وكان أهلها مع ذلك يسلخون جلود الأسرى من أعدائهم وهم أحياء ، وكانوا يقعدونهم على الخوازيق » وكانوا يتركون الآلاف من الجرحى يتعذبون ويموتون في حومة القتال !! وروميه أيضاً كانت مركزاً للحضارة في أيامها، ومع ذلك كان أبناؤها يلتذون مناظر الفتك — فتك الحيوان بالإنسان والإنسان بالحيوان ومشاهد الدماء سائلة منهما كليهما . ومصر التي تبهرني آثار مدنيتها ماذا تقول نقوشها على جدران هياكلها ؟ ماذا يقول الهرم وحده ؟؟ في كم سنة بنى وكم روحاً زهقت في سبيل حجارته ؟

« أم ترى للمدنية علاقة بحقوق الفرد في ظل الديمقراطية ؟ ولا هذا أيضاً فإن أوربة وأمريكا متحضرتان ولكنهما تستخدمان الجموع المدربة والجماهير المنظمة في جيوشهما وفي اتحادات الحرف فيهماوبذلك يتيسر تحقيق مآرب القليلين باستغلال طاعة الكثيرين ، ويبلغون غايتهم كما يفعل زعماء قبائل « الزولو » المستوحشة بقوة « العدد » ، وبفضل الكثرة المدربة على الطاعة . والرأي العام ماذا يبقى للفرد من الحقوق في ظل الديمقراطية ؟

« أم المدنية مرتبطة بالشرف والنزاهة ؟ حتى ولا هذا فإن الفساد والرشوة فاشيان في أرقى الجماعات مدنية حتى لكأن المدنية تعين على استفاضتهما .

« ماذا إذن ؟ أترى علاقتها بالفضائل الجنسية ؟ »

وهنا ابتسم وقال لنفسه « إن جو المدنية أصلح مايكون للرذائل الجنسية » وتلفتت عينه إلى ناحية الفندق الذى ينزل فيه .

ومل هذا السرد والنفى ، ونهض وهو يقول « إلى أن يجىء ذلك اليوم الذى يدرك فيه الناس — كل أحد — أن الرقى العقلى وحده — أن الكولتور الذى صدع رءوسنا به الألمان — أن المدنية التى نلهج بها ليست هى الآخر بل الأول ، ولا النهاية بل الابتداء ، ولا الغاية بل الوسيلة ، ولا الحصاد بل التربة — إلى أن يجىء هذا اليوم فلن يكون رقى الإنسان مستحقاً للذكر . إن روح الإنسان هو المهم » .

وانحدر إلى مقبرة امنحوتب الثانى وهبط الدرج المنحوت فى الصخر وعبر الجسر الذى أقيم فى هذا العصر فوق البئر ، ودخل القاعة ذات العمودين ونزل سلالم أخرى إلى قاعة ذات ستة عمدان ، وجدرانها مغطاة بالنقوش والمناظر المنقولة عن « كتاب مافى الآخرة » ومضى إلى آخرها وأطل على تابوت الملك ، وأشار إلى الحارس فأطفأ الأنوار الكهربائية ولم يبق إلا المصباح الذى يلقى ضوءه على مومياء الملك الراقد وكأنه نائم . وقال لنفسه وهو يتأمله .

— إن هذه الأعضاء النحيفة المعروقة كانت فى حياة صاحبها مكسوة باللحم قوية العضل ، وكان هذا ملكا قوى الجسم وكان ينزع قوساً لا يقدر أحد من حاشيته أو جنوده أن ينزعها . وكان حاكما قويا شديد البطش عظيم البأس ، ولقد وسعه أن يضم شتات الدول العديدة والشعوب المختلفة التى أدخلها هو وأبوه من قبله فى دائرة ملكه ، وكان قاسياً على خلاف أبيه حتى لقيل عنه إنه ذبح بيده عدداً من الأمراء الذين ثاروا عليه وربط واحداً من رجليه وعلقه مقلوباً يتدلى من السفينة — رأسه إلى الماء ورجلاه إلى السماء

— هذا كله كان منذ ثلاثة وثلاثين قرناً ومع ذلك يحس المرء وهو ينظر إلى نضارة ألوان التابوت ودهان الجدران كأن مصر القديمة ليست بعيدة منا كما كان يتصور ـ ثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة فوقها ليست شيئاً ـ يعبرها الخاطر بسرعة وسهولة ولا يحس مسافتها ولا يشعر بمشقة هذه الرجعة ! فهل كل هذا الزمن لاشيء على الحقيقة ؟؟ هل مسافة هذه الحقب الطويلة المديدة التي تشبه الأبد ، وهمٌ ليس إلا ؟ عجيب . عجيب ! »

وانثنى إلى غرفة صغيرة فيها ثلاث موميات مجهولة الأصحاب : مومياء عجوز لا يزال شعرها الذي أشابته الأيام يلمع كالفضة ، ومومياء فتى لا يتجاوز الرابعة عشرة على صدغه خصلة من الشعر إيماءا الى شبابه ، ومومياء امرأة تناهز الثلاثين . . .

ونحى إبرهيم عينه وهو يقول : « آخر كل شيء هذا . . . آخر الحزن والسرور . . آخر السعادة والشقاء . . . آخر المجد والعزة والذلة والخمول آخر الشهرة وآخر الخفاء . . . باطل الأباطيل الكل باطل . . . صدق ابن داود . . صدق سليمان . . . »

وخرج من القبر وعاد إلى الفندق .

— ٢ —

ولم تبارحه صورة شوشو لحظة ، ولم تخمد وقدة حبه لها ولا انقطع حنينه إليها ، ولكن بضعة أيام بين هذه الأطلال والمقابر والمومياءات والصحراء فلت من حدة غضبه على أختها نجية وإن لم تنقض عزمه المبرم ، ومكنته من أن يتدبر ما حدث وهو ساكن . فاستطاع أن يقنع نفسه بأن ردها عليه ليس فيه ما يسوء ولا هو يجهز على الأمل ويمنع الرجاء أن يكون له محل . وماذا قالت له ؟ إنها لم تزد على أن قالت ان ابرهيم كشقيقها وليس أبعث على سرورها من أن يكون زوج أختها ، ولكن شوشو هي الصغرى ،

وهناك سميحة وهى أكبر منها ، فإذا تزوج شوشو فقد قطع الطريق على سميحة ، وخليق بألسنة السوء أن تذهب تختلق أسباباً شائنة لتخطى سميحة . فهل يرضى هو هذا ؟ وهما أختان ولا فضل فيما ترى لشوشو على سميحة ، فإذا شاء أن يتزوج سميحة فهى له بلا مهر ولا قيد ولا شرط .

هذا كل ماحدث ، وهو عين ما كان يتوقع ، وصحيح أنه بلغه أن نجية حلفت أن لاتعطيه شوشو ولو ملأ لها حجرها ذهباً ، ولكن لماذا قالت ذلك ؟ ما الذى أنطقها بهذه الكلمة الجارحة ؟ إنه الشيخ على ! نعم هو ، فقد أراد أن يحملها على القبول والتساهل ، وكان عنيفاً كعادته ، وهاجها بسخره ، فغضبت وقالت ماقالت ، فلا يزال صحيحاً أن عدواً عاقلا خير من صديق جاهل .

وابتسم الشيخ على صديق جاهل؟ كلا ! إنه الإخلاص مجسداً ، والذكاء مصوراً ، ولكن ذكاءه خانه هذه المرة ، فندت الكلمة الجارحة عن صدر نجية بكل ماتنطوى عليه من مرارة وخيبة أمل كانت سميحة مناطه . ومن يرد الكلمة بعد أن تخرج ؟ من يعيد العصفور بعد أن ينطلق من قفصه ؟ .

هذه هى المسألة ، فلا سبيل إلى إعادة الكرة . نعم لم يذهب الأمل ، ولكنه هو لايستطيع أن يتقدم مرة أخرى طالباً أو خاطباً . كلا . هذا محال ، ومحال مثله أن يرى شوشو ... وكيف يراها وأين ؟ وإذا لم تفىء نجية إلى الرضى ولم تتقدم من تلقاء نفسها إلى إبرهيم ، فكل رجاء عبث ، ويجب أن تراض النفس على مرارة الحرمان ؛ واحتمال البعد .

وشعر بالدم يغلى فى عروقه وهو يفكر فى كلمة نجية . كيف يستطيع أن يرى وجهها بعد الآن ؟ ؟ كيف يمكن أن يصفو لها قلبه مرة أخرى ؟ ؟ لو ملأ لها حجرها ذهباً ؟ ؟ نجية تقول هذا . . . وهى مع ذلك مستعدة أن تزوجه سميحة بلا مهر ! ! ها ! وأدار وجهه كأنما أراد ليتقى أن يراها ،

وتصلب وجهه وثبت حملاق عينه وصرت أسنانه وهو يقرضها من الغيظ وصار منظره مفزعاً ، وكانت فتاة مصرية تمر به وهو لا يراها ، فوقفت وارتفعت يدها البضة إلى قلبها ، ثم رجعت من حيث جاءت ، وولت هاربة.

وزايلته النوبة ، وعاوده السكون ورجع يسأل نفسه « كيف ؟ كيف ؟ كيف تكون رياضة النفس ؟ هذه هي المسألة ، لاتلك . كل شيء يهون إذا استراح القلب إلى الفراق ووطن المرء نفسه على احتمال عذابه .

غير أن هذا الاضطراب لم يطل ، لأنه كان أصح تفكيراً وأسلم نظراً من أن يدع نفسه يتخبط ، فلم يلبث أن سخر من نفسه وقال يعنفها « ماسؤالى هذا عن الكيف ؟ إنه لامحل له . وسواء استراح القلب إلى الفراق أم لم يسترح ، فالفراق موجود ، أما العذاب فهل لم أحتمله إلى الآن ؟ لا أدرى كيف ، ولكن الذى أدريه أنى احتملته والسلام ، ولست أرى أنى خرت أو وهنت ، فيجب أن أضع حداً لتخليط النفس . نعم لايجوز أن أسمح لها بأن تحيلنى امرأة لاتعرف إلا البكاء » .

وشوشو! مسكينة مسكينة ! حزنها دفين فى صدرها . وليس لها مايعينها على التسلى ، بل كل شيء يؤجج النار التى فى قلبها ، ولا صديق بجانبها أوصديقة ، كل ماحولها عدو لها ، ماخلا الشيخ على وهو لايسعه كثير ، ولو كان فى مقدوره شيء لماحدث ماحدث ، نخطبها أدهى ، ومصيبتها أعظم « ألا أبرق للشيخ على أوصيه بها خيراً ؟ يحسن ولا يحسن ، ولو أمكن أن ترسل البرقية إلى غير بيته .. ولكن هذا غير ميسور ، وإذا وصل التلغراف فسيعلمون جميعاً بأمره ويسألونه عنه ، وربما كان الآن فى القرية فيفتحونه ويطلعون عليه فيقع المحذور . كلا . ومع ذلك ما الحاجة إلى إيصاء الشيخ على؟ ثم إنى ... نعم يجب أن أقطع الصلة الآن . . كل القطع . . وفى خلال ذلك ماذا ؟ .

« لا أعلم سوى أن قول القائل :

إن من ساءه الزمان بشيء   لحقيق إذن بأن يتسلى

يدور بنفسي . صدق . ولكن ذهني لا يسعفني باقتراح . فلندع الأمر للمصادفة ، وبحسبي الآن كأس من الويسكى .

وصفق .

الفصل الثانى

كل طرق الانسان نقية فى عينى نفسه

— ١ —

كان الشيخ على لايزال راقداً فى سريره وإن كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، ولم يكن نائماً ولكنه يتسمع ، وكان سريره يسد باباً مؤدياً إلى غرفة مجاورة ، وكانت سميحة وأختها الكبرى نجية فيها ، وكانت سميحة تقول وهى تخلع برقعا أسود تسدله على وجهها حين تريد أن تخرج متنكرة ، لأنه كثيف يغطى الوجه كله ماعدا العينين :

— أعوذ بالله من البيت ياأختى ! لم أر فى حياتى أقذر منه ولا أضيق : غرفة واحدة فى الدور الأول لها نافذة مفردة مسدودة بالحصير والهواء ينفذ منها . والبرد فيها شديد ، وهى جالسة على وسادة فوق الحصير ، وفى أصابعها خواتم من الفضة ، وفى أذنها قرطان كبيران من الفضة أيضا ، وعلى ساقيها خلخالان من الفضة كذلك . لاشىء من الذهب أبداً . كل ماتتحلى به من فضة . ووجهها سمح ونظراتها حلوة . وقد كنت أول من دخل ولكنها لم تنزل إلا بعد أن ازدحم البيت — الغرفة والسلم — بالنساء ، وكان النساء يتناولن طعامهن — بعضهن جئن به معهن — طعمية ودقة وكسرات من الخبز المقدد — وبعضهن اشترين سميطاً وجبناً أو بيضا من رجل يبيع ذلك فى سلة كبيرة جلس بها إلى جانب الباب . وماذا أقول لك ؟ لقد كان المكان كالزريبة ! أما الضوضاء فأعوذ بالله منها ! لقد صدعن لى رأسى . ومع أنى

كنت لابسة هذا الإزار الخلق الذى استعرته من فاطمة ؛ فقد أحسست أنى غريبة بين هؤلاء النسوة .

فقاطعتها نجية قائلة :

— وماذا قالت لك ؟ .

وكانت سميحة قد كورت البرقع وهى تتكلم فألقته على الكنبة وهمت قليلا لتسحب الإزار من تحتها ثم جمعته وكومته وقذفت به وراء البرقع وتنهدت ثم قالت :

— قالت ؟ لقد قالت لى كل شيء ! روت لى الماضى كله وكشفت لى عن المستقبل. أيضاً كيف عرفت يا أختى ؟ إن هذا لغريب ؟ والله لكأنى كنت فى حلم ! حتى ما كنت نسيته أذكرتنى به . لقد ذهبت إطاعة لك فقط ، ولم أكن أعتقد أنها ستعرف شيئاً ، أو أنها ستنبؤنى بماض أو حاضر ، وكنت أقول لنفسى فى الطريق : ومن أين لها العلم بشيء ؟ إن هذا كله دجل ولكنى لم أكد أجلس إليها وأناولها المنديل حتى قلبته فى كفيها وقالت : « هيء ! لاتصدق ! ايش عرفها دى رخره ؟ معلهش ! يمكن يعطى سره لأضعف خلقه . مين عارف ! أهو حانشوف بعينا ونسمع بودننا . » وأقول لك الحق ياأختى لقد دهشت وخجلت من إنكارى قدرتها على الإنباء بالغيب، وضحكت مستغربة لأنها كانت تتكلم وهى مطرقة وكأنها تقرأ فى كتاب .

فقالت نجية :

— ألم أقل لك ؟ ليس مثلها ، كل من رآها يروى عنها الغرائب . ولكن ماذا قالت لك ؟ .

« قالت لى ؟ وهل تركت شيئاً لم تقله ؟ حدثتنى عن شوشو وعن إبرهيم ابن خالتى وعن الدكتور محمود . ليس بالاسم طبعاً ولكن بالوصف :

أيوه . قالت لى « آل غاضبانين آل ! طيب ماعلهش ! بكره نعقل ونرجع نقول يريت اللى جرى ما كان ! لكن نقول إيه ونعيد إيه ؟ هو الضفر يطلع من اللحم ؟ هىء ! لكن ده مش ممكن . ولا لما تشوف لبن العصفور . وازاى ده يجى ؟ ده كلام عقلا ولا مجانين ؟ لأ برده عقلا بس المكتوب على الجبين ، وأهو عمل عملوه ولاد الحرام والسلام »

نجية مقاطعة « شوفى . شوفى يا أختى ناصحه صحيح ! وهل لم تصف لك شيئاً يفك العمل ؟ »

فقالت سميحة « آه ! قالت لى فى الآخر هاتى حاجة اقرأ لك عليها ثم خذيها وأعطيها له ليأكلها فيفك العمل بإذن الله . فقلت لها إنه مسافر وبعيد جداً . فقالت إنها تعرف ذلك ، فهاتى الحاجة أولا وبعد ذلك تكون إرادة الله .

فوضعت نجية كفها على خدها واتكأت بكوعها على ركبتها وقالت :

— ولكن أى حاجة ؟ ألم تفكرى فى شىء يصلح .

فوقفت سميحة وهى تقول بصوت أعلى قليلا :

— لقد فكرت فى كل شىء ، وهل يربكنى شىء ؟

ثم مالت فوق أختها وقالت :

« فكرت أن أشترى شوكولاته — صندوق كبير يصلح أن يكون هدية ، أقدمه لها تقرأ عليه ثم أرسله له فى البوستة إذا كان لا يزال باقياً فى الأقصر . فما قولك ؟ »

فمدت نجية يدها حتى لمست رأس أختها ومسحته وقالت بلهجة الاعجاب :

« يحرسك ربى من العين . يحرسك ربى من العين »

وتفتفت يميناً وشمالا .

— ٢ —

قال الشيخ على لما سمع هذا :

« هممم ! شكولاته مسحورة ! تحبب فيها إبرهيم ! »

واستوى قاعداً على السرير . وكان الشيخ على — على الرغم من نشأته الأزهرية واختلاطه الدائم بالفلاحين والعوام وخرافاتهم وأوهامهم — لا يؤمن بشىء من ذلك ولا يطيق الصبر عليه ، وقد هاجه أن عرف أن زوجته أغرت أختها بالخروج خلسة فى البكور والالتجاء إلى امرأة سوقية دجالة ، وأنها هدمت بذلك كل ما بناه التعليم الحديث ، وزاد غضبه أن زوجته تتغفله وتدور من وراء خديعته ، وتلجأ إلى مثل هذه السخافات معتقدة أنها ستجديها وأنها ستحمل إبرهيم على الاقتناع بالتزوج من سميحة ، فهى إذن لم تعبأ برأيه ولم تكترث لنصيحته ولم تحفل بما أمرها به من الكف عن محاولة التقريب بين إبرهيم وسميحة ، ولم تصدقه حين قال لها إن إبرهيم لا يطيق سميحة وأنه إنما يحب شوشو ، ثم هى لا يكفيها أنها حالت بين شوشو وإبرهيم ، وأنها رفضت وساطته وكان واجبها أن تطيعه ، وأن أطلقت لسانها بما أطار إبرهيم إلى الأقصر وهو موغر الصدر مهيض الكرامة ، وأن جعلت إبرهيم حقيقاً أن يعتقد أن الشيخ على لا رأى له ولا إرادة ولا سلطان له فى بيته ، لا يكفيها كل هذا ، بل يجب أيضاً أن تتعلق بالسحر « والكتابة » وتجر أختها معها ، وتعلمها هذا الكلام الفارغ وتغريها بهذه المساخر التى لا تليق .

وهز الشيخ على رأسه ، وهو يفكر فى هذا ، ويتأمل ما صار إليه أمره مع زوجته من الفتور ، ومع سميحة من الكراهة والنفور ، وانثنى خاطره إلى شوشو المسكينة التى لا صديق لها ولا معين سواه فى هذا البيت ، والتى لا تبارح غرفتها مادام هو بعيداً عن البيت ، حتى حال لونها وغارت عيناها وتهضم وجهها وفقد جسمها نشاطه ولينه ومرونته .

وصفق .

فلم تدخل زوجته ، فقد صار لا يحب أن يراها وإذا جاءت إليه صرفها من غير أن يرفع وجهه إليها وأمرها أن تدعو الخادمة .

ودخلت الخادمة فقال وهو مطرق :

« شوشو » .

فخرجت فى طلبها .

ودخلت « زوزو » ابنته وقالت :

— بابا .

— نعم .

ورفعها إليه وأجلسها على رجليه — فوق اللحاف . وقبلها .

— متى تذهب إلى أبو قير ؟

— اليوم .

— صحيح ؟

وصفقت بيديها الصغيرتين ثم نهضت على ركبتيها وطوقته وأوسعته تقبيلا فى عينيه وأنفه وخديه وأذنيه .

ونقرت شوشو على الباب ثم دخلت متثاقلة متحاملة تجر رجليها ، وعلى شفتيها ابتسامة ليست فى عينيها فمد لها الشيخ على ذراعيه وقد فاض لها قلبه الكبير بالعطف والحب فأسرعت إلى يمناه وأهوت عليها تلثمها ، فانتزعها وقال وهو يتكلف الابتسام :

— بل هنا . أسرعى فإن جلدة وجهى تأكلنى .

فابتسمت له وقد شعرت بشىء من التسرية فى حضرته ، وطبعت على خده قبلة بنوية صامتة ، ثم مالت إلى زوزو وعانقتها ولثمتها كأنها تفيض عليها من ذلك الحب الدفين فى صدرها المحبوس بين ضلوعها ، واغرورقت عيناها

الشيخ على وهو يراهما وقد تعلقت كل منهما بالأخرى ، ثم رفع وجهه إلى السقف وقال متمتماً : الله يجازيك يا نجية . الله يجازيك يا نجية ! »

ثم ضبط نفسه وكبح عاطفته وقال :

— شوشو .

فلفتت إليه وجهها الساكن الحزين وقالت :

« نعم » ولم تزد .

فقال وهو يرد عنها زوزو :

— زوزو تقترح أن نذهب إلى أبى قير ونقضى بقية النهار هناك ، وقد وعدتها فما قولك ؟ .

فقالت « أمرك » .

فقال وهو يميل نحوها ويكاد السرير يميل معه :

— وأنت معنا ؟ قولى نعم .

ولكنها لم تقل نعم ، وإنما قالت كالمستغربة .

— أنا ؟ حاضر .

فأحس الشيخ على كأن بعض ضلوعه يتقصف من فرط التوجع لها ، غير أنه ملك نفسه وقال :

— لا أراك يسرك هذا .

فقالت بلهجة من ينكر أن شيئاً يسره أو الساخر من أن فى الدنيا مايسر .

— يسرنى ؟ أوه . لماذا لا يسرنى ؟

فلجأ الشيخ على إلى المزاح ليرفه عن نفسه وعن شوشو أيضاً وقال وهو يقلد فتورها ويبالغ فى التقليد .

— لأنك تقولين « أنا ! حاضر ! » هكذا .

فابتسمت شوشو — بشفتيها فقط ، فقد خبا الضياء الذى كان فى عينيها ولم يبق لهما إلا ظلام العمق ، وقالت :

— ماذا كان ينبغى أن أقول إذن ؟

فمضى الشيخ على فى مزاحه وإن كان قلبه يتمزق وقال :

— لا تقولى شيئاً . كان ينبغى أن تقبلى على وتطوقينى بذراعيك وتقبلينى . هنا وهنا . هيه ؟

فضحكت ، ورنت ضحكتها فضية النبرات ، ولكنها كانت ضحكة قصيرة وكأنما اختصرتها شوشو ، واستغربتها ، ولكن الباعث على الضحك لم يكن قد انقطع مع الضحكة ، فنظرت إلى ذراعيها ممدودتين أمامها كأنما كانت تقيسهما لترى أيكفيان لتطويق هذه « الدبة » ، وجال برأس الشيخ على خاطر كهذا فقهقه، فارتج السرير وفزعت زوزو فى أول الأمر ثم أدركت أنه إنما يضحك فتهافتت على اللحاف ودفنت وجهها بين طياته وهى تضحك مسرورة جذلة .

الفصل الثالث

« من هذه الطالعة من البرية ؟ »

— ١ —

مضى أسبوع على إبرهيم وهو فى الأقصر — وحده — لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد سوى موظفى الفندق الذين أفضى إليهم — كما هى العادة — باسمه ومهنته وما إلى ذلك ، حتى طعامه كان يتناوله وحده فى أوقاته على مائدة صغيرة أصر على أن ينفرد بها على الزغم من ازدحام الفندق بالأجانب من كل أمة وبالمصريين كذلك، وقد لفت الأنظار إليه إيثاره العزلة وحرصه عليها وذهوله عن كل ما يجرى حوله كأنه لا يرى ولا يسمع ، وإكبابه على القراءة والكتابة ،وعنايته بالآثار، وقد التقى به كثير من النزلاء — رجالا ونساء — فى معبدى الأقصر والكرنك وفى وادى الملوك ولاحظوا نفوره من الناس وشرود نظرته ، واستغراق خواطره له ، فلهجوا بأمره فيما بينهم وتلاغطوا بحديثه وهو غافل معرض عنهم كأنه ليس من بنى الإنسان ، وتساءلوا عنه ودفع الفضول بعضهم فسأل عنه كاتب الفندق فعلموا منه كل ما هو مدون فى سجله - وما أقل ذلك - وما كادوا يعرفون أنه أديب وكاتب حتى استفاض الخبر وتجسم الأمر وصارت لإبرهيم شهرة واحترام لم يكن يدرى بهما فى هذا الفندق ، ولو عرف الحقيقة لرحل للتو والساعة .

واتفق أنه كان عائداً مرة من وادى الملكات ، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فلما وصل إلى حيث التمثالان الكبيران قائمان بين الزروع ، حانت

منه التفاتة إليها فإذا على الحشائش فتاة مصرية الوجه ولكنها فى ثياب أفرنجية وقد مدت رجليها وأسندت ظهرها إلى قاعدة تمثال وحدجت الأفق بنظرها ، فكبح البغل الذى يجر عربته ـ وكانت من النوع الذى يسمونه «السنكاره» ، وهى مركبة مكشوفة تسع اثنين على عجلتين عريضتين ـ ووثب إلى الأرض وقد طاف برأسه أن الفتاة متعبة وأنها تستريح ، وتقدم إليها وعرض عليها مركبته ، ولكنها شكرته ورفضت ، مؤكدة له أنها لا متعبة ولا تائهة وأن له أن يطمئن وأن يثق أنها ستعود سالمة .

وكانت الفتاة أقرب إلى الطول منها إلى القصر ، وكان قدها نحيلا ولكن جسمها ناضج ، ووجهها ظريف الحركة حلو التعبير ، وليس فى مظهرها ولا فى ثيابها ما يدل على العامية ، وكان لونها على سمرته رائقاً صافياً ، ومع أنها كانت فى رأى العين صغيرة السن فقد كان فى سيماها ماينبىء أنها فكرت كثيراً وعرفت فوق ما يعرف أترابها ، وكانت معارف محياها دقيقة جميلة ، ولكنه محياً أجمل مافيه ماينطق به ، ولعل السر فى ذلك أو الفضل فيه راجع إلى عينيها وفمها ، فقد كانت العينان عسليتين وأهدابهما طويلة ، ولم تكن العين واسعة ولكنه لم يكن فيها شىء من المنكر ، وكانت إذا رفعتها فجأة بباعث من الدهشة أو السرور أو الغضب أو غير ذلك لا يسع المرء إلا أن يقتنع بجمالها وفتنتها ، وكان حاجباها كثيفين ومقوسين ، وجبينها واسعاً عريضاً يخيل للمرء أن لصاحبه ملكة شعرية ، وعليه من شعرها الأسود خصل متلوية يعبث بها النسيم . ولكن أغرب ما فيها فمها ، ذلك أنه لم يكن من الصغر بحيث يفسد تناسب الوجه وحسنه ، ولكن الشفتين كانتا حادتين حاسمتين باردتين ، وكان لونهما سرياً ولكنهما لا تفتران عفواً مع كل خاطر ، وإنما تتحركان بالإرادة . وفى هاتين الشفتين ، وفى صلابتهما على الرغم من لينهما ، شىء يجعل الفتاة تبدو أكبر مما هى فى الواقع ، فعيناها البراقتان

العسليتان وخداها المستديران ـ هذه هي كل معارف الفتاة الصغيرة . أما جبينها وفمها فتلك معارف المرأة التي خلفت الشباب وراءها ودبت بها الرجل بين وعور الحياة .

وشاءت الأقدار أن تمطر السماء في ذلك المساء رذاذاً ضعيفاً بعد أن ركب إبراهيم الزورق وهم صاحبه أن يدفعه إلى شاطىء الأقصر قبالة الفندق، وقلما ينزل من المطر كثير أو قليل هناك ، فذكر إبرهيم الفتاة الجالسة فوق الحشائش المستندة إلى التمثال ، فأسرع إلى سائق المركبة وأمره أن يعود إليها ليقلها ، ومضى هو بزورقه دون أن ينتظرها أو يفكر فيها بعد ذلك .

— ٢ —

دخل إبرهيم حجرة الطعام الفسيحة متأخراً في تلك الليلة ، وجلس إلى مائدته كعادته من غير أن يلتفت يميناً أو شمالا ، وكانت الفتاة على مائدة أخرى قريبة منه ولكنه لم يرها ولعله لو رآها لما حفلها، وكان جائعاً وألوان الطعام شهية والنبيذ حسناً ، فأقبل عليه يلتهمه بشره غير معهود فيه، ولما قارب الانتهاء طلب أن ترسل إليه القهوة في حجرة المطالعة ونهض .

وكان يريد أن يكتب رسالة إلى ابنة ، فتناول القلم فجرى بضعة سطور بلا توقف ، ثم أمسك وأبى — أي القلم — أن يخط حرفاً . فقرأ ما كتب وزاد نقطة هنا ووضح حرفاً هناك ، وإنه لكذلك وإذا بالخادم يضع أمامه صينية عليها أبريق فيه القهوه ، وإلى جانبها فنجانتان . وخرج الخادم وإبرهيم يفكر في رسالته التي استعصت كتابتها عليه فجأة ، ثم هم بأن يصب القهوة فرأى الفنجانتين فصده هذا ، وخطر له أن الخادم ربما كان قد أخطأ وجاءه بقهوة سواه ، ثم قال لنفسه « سيرجع الآن بعد أن يفطن إلى خطئه » وراح ينتظر، ولكن الخادم لم يرجع ومضت دقائق خيلت إليه أطول مما هي ، وخاف أن تبرد القهوة وتفسد ، وهو يحبها حارة ، فقال لنفسه « أنظر في

أبريقها فإن كان ما فيه قليلا فهولى وحدى ، وإن كان كثيراً فلا شك أن هناك خطأ . » وتناول الإبريق ورفع الغطاء فإذا به ملآن .

ولما رفع وجهه عن الوعاء التقت عينه بعين الفتاة التى صادفها فى الطريق وأرسل إليها المركبة ، فارتد إلى الوراء وكاد الأبريق الصغير يسقط من يده، ولكنه استطاع بجهد أن ينهض والأبريق بين أصابعه وقال :

« لقد كنت أنظر فى الأبريق هل مافيه لواحد أو لاثنين »

فنظرت إليه مستغربة ، ثم رأت الفنجانتين ففهمت وابتسمت وقالت :

« ما أغباه ! لقد أمرته أن يرسل لى القهوة هنا ، فاختصر المسألة على ما يظهر ! وقد انتظرت كل هذه المدة ؟ »

فقال إبرهيم « لقد كنت أفحص الإبريق الآن . وكان ذلك أشبه بالمقامرة . فإذا كانت القهوه لواحد أهملت الفنجانة الآخرى ، وإذا كانت لاثنين انتظرت » .

فابتسمت مرة أخرى وجلست قبالته فقال :

— بسكر ؟

فقالت : « كلا ! لقد كنت أريد أن أشكرك »

فقال مغالطاً : « على الانتظار ؟ »

قالت : « كلا . بل على . . . »

فقال مقاطعاً وقد أدرك مرادها :

— على أنى لم أشرب القهوة كلها ؟

فابتسمت مرة ثالثة وقد راقها أنه يحاورها فراراً من الشكر وقالت :

— ألم تمر بى اليوم عائداً من وادى الملوك ؟

قال : « نعم . برغمى ! »

ففتحت عينيها جداً وقالت : « برغمك ؟ »

قال : « لقد أردت أن أعرف لماذا تجلسين عند التماثيل على الحشائش في المطر ؟ أتسمحين لى أن أدخن ؟ »

فأذنت له بابتسامة ، وفتحت حقيبتها وأخرجت منها علبة سجائر مذهبة ، وقالت بعد أن أشعل لها السيجارة :

ـــ ولماذا لا أجلس هناك . . . فى المطر ؟

فقال : « لا أدرى . سوى أنى لا أعرف أن الناس يحبون التعرض للمطر . على أنك لم تكونى تعرفين أنها ستمطر . »

فقالت : « هذا صحيح . ولكنى أحب المطر . وما أقل من يحبونه أو يذكرونه بالخير . والفلاحون . . .

فقال : « إنه فى مصر دائماً ، إما أكثر من اللازم وإما أقل من اللازم . »

فقالت : « إن المطر يعبد فى بعض البلاد . »

فقال وهو يرسل الدخان ولا ينظر إليها :

ـــ إن ذلك يتوقف على المطر .

قالت : « ماذا تعنى ؟ »

قال : « هل يفيد الأرض خضرة أو يفيد الناس الرماتزم . أما أنا فأصارحك أنى أحب أن أنظر إليه منهمراً ـ ولكن من وراء زجاج النافذة »

وكانا قد شربا القهوة ـ باردة ـ فنهضا وذهبا يتمشيان فى حديقة الفندق الواسعة والناس ينظرون إليهما فى دهشة ، كأنما استغربوا أن يروا إبرهيم ومعه إنسان ، والتفتت إليه فجأة وقالت :

ـــ لقد كنت أفكر . . .

فقال : « وأنا كذلك . »

فمضت فى كلامها غير أن تعبأ بمقاطعته :

ـــ كنت أفكر فى أنك أقل الناس فضولا أو أكثرهم عدم مبالاة .

فقال : « أنا ؟ ربما ! أعنى أنى حقيقة لا أبالى سوى ما أنا فيه، ولا يجاوز فضولى ما تأخذه عينى . »

فالتفتت إليه لتتبين فى وجهه هل يتكلم جاداً أو هو يريد أن يثنى عليها ضمناً ، ولكن وجهه كان خالياً من كل أمارات المزاح ، فصمتت هنية ثم قالت :

— لقد كان ينبغى أن تسألنى عن السبب . إن المرأة حين تتهم الرجل بقلة الفضول أو قلة المبالاة يكون معنى هذا أنها تريد أن تخبره بشىء .

فقال : « أهذا صحيح ؟ »

فهزت رأسها أن نعم ، وخيل إليه أن هذه الهزة قد رفعت ما بينهما من الكلفة .

وقال : « إذن أرجو أن تخبرينى » .

فقالت : « إنك تتعب المحادث — لا تنتهز فرص الكلام التى يتيحها لك »

وابتسمت ، فقال :

— ولماذا ترينى رجلا عادياً جداً ؟

قالت : لم أقل ذلك . إنما قلت إنك قليل الاكتراث ، قليل الفضول »

فقال : « ولماذا ؟ أعنى أرجو أن تذكرى لى السبب »

قالت : « ألم يخطر لك أن تعرف من أنا ؟ »

فقال بلهجة الجد : « ولكنك عابدة المطر . فماذا أريد أن أعرف فوق ذلك ؟ »

فضحكت وهى تقول :

— لكن أبى لم يسمنى هذا الاسم !

فقال : « إن آباءنا لا يعرفوننا كما نحن » .

فهزت رأسها موافقة فقال :

— إذا كنت تحبين أن أعرف من أنت ، فما عليك إلا أن تخبريني .

فقالت : «إذن أنت لا تعرف اسمي ؟»

فقال : « لا أعرف الاسم الذي اختاره لك أبوك » .

فقالت : « اسمي . . . اسمي . . . ليلى . . .

فقال : « اسم جميل ولا شك . . . ليلى . . . نعم ، ولكني أرجو أن تظلي عابدة المطر ؟ »

فقالت : « لماذا ؟ » .

قال : « أخشى . . . أخشى . . . أن أصبح أنا المجنون » .

فضحكا ، وعرفها بنفسه وهما راجعان إلى الفندق .

الفصل الرّابع

« إن تكن سوراً فنبني عليها برج فضة ،
وان تكن باباً فنحصرها بألواح أرز »

— ١ —

بدأ إبرهيم يلاحظ أن الناس — ونعني النازلين فى الفندق — يتبعونه نظراتهم ، وأن رءوسهم تتدانى حين يظهر فى مدخل الفندق أو على سلم الحديقة ، فظن أن معرفته بليلى هى التى يرجع إليها اكتراثهم له والتفاتهم إليه ، وصافح مسمعه كلمات من هنا وههنا تبين منها أن نزول هذه الفتاة فى الفندق حادثة ، ولكنه لم يستطع أن يفهم لماذا ، لأنه لم يكن يعرف عنها أكثر من أن اسمها ليلى وأنها صارت على الأيام تصحبه فى روحاته وغدواته .

ومن العسير أن نقول ماذا كان إحساس إبرهيم نحوها على الدقة ، فقد كان يجد فى محضرها روحاً وإيناساً ، ويحس أن الوحشة قد زايلته ، ولكنه لم يكن يشتاقها حين تغيب ، وكان ربما قضى النهار كله وحده فلا يفتقدها ، حتى إذا التقى بها شاع فى نفسه السرور ، ولم يعن هو بأن يحلل عواطفه ، لأنه ، على الأرجح ، لم يشعر بالحاجة إلى ذلك ، ولم يحس بأن لهذه العواطف إلحاحاً أو ضغطاً ، وكل ما هنالك أن وقدة نفسه كانت تهدأ حين يراها ويحادثها ، وأن الاضطراب الذى فى صدره كان يسكن ، وأن ألسنة الهواتف كانت تنقطع ، وأن النجاوى كانت تخفت ، وأنه كان كالذى صهدته الشمس ورأى شجرة فنواء فمال فيها يستروح فى ظلها .

وراق إبرهيم بعد أن فطن إلى اهتمام الناس بليلى أن يلاحظ مظاهر

ذلك . وإن كان قد ظل عاجزاً عن تعليل هذا كله ، لأن الفتاة مصرية وأكثر النزلاء أجانب ، على أن الأجانب كانوا محتشمين فى التفاتهم إليها ، وكان الأمر لا يعدو التهامس و النظر — خلسة — على الأكثر — أما المصريون فكانوا أجرأ ، وكان أمرهم معها يشبه المطاردة ، وقد رأى إبرهيم أحدهم مرة يعترض طريقها ويخرج من جيبه منديلا ، فسقطت ورقة نقدية من فئة الخمسة الجنيهات كأنها كانت فى هذا الجيب مصادفة أو كأنما صاحبها قد نسيها فيه ، فسارت ليلى فى طريقها وداست الورقة بحذائها كأنما كانت بعض ما فى البساط من النقوش، ولم تعر لا الورقة ولا صاحبها أدنى نظرة .

وفى مرة أخرى كانت ليلى تتكلم على التليفون فاندفع شاب إلى غرفته وفتح بابها ولما رأى ليلى شرع يعتذر إليها ، كأن ماوقع منه كان عفواً ، ولكن ليلى مضت فى حديثها على التليفون وكأن الباب لم يفتح وكأنما لا أحد فى مدخله يكلمها معتذراً متأسفاً .

وكان هناك آخر لاتجلس ليلى فى مكان إلا دار به ينظر حوله باحثاً عن شىء كأنما من خواص مايفقد أن يكون على مقربة من ليلى .

ورجل آخر فى سن الكهولة كان يخيل لإبراهيم أنه يتحين فرصة ليخلع طربوشه ويضعه على الكرسى الذى تهم ليلى بالقعود عليه ، ليجرها إلى الاعتذار أو إلى الإصغاء إليه وهو يعتذر لها . وهكذا . . .

وعنى إبرهيم بأن يحصى هؤلاء المصريين الذين يتحككون بليلى ، فعد منهم تسعة عشر ، فأطلق عليهم رقمهم ، وسماهم التسعة عشر ، وكانوا جميعاً تنقصهم شجاعة الإقدام على مخاطبتها ، أو لعل الأصح أن الشجاعة لم تكن تعوزهم ، ولكن شيئاً فى وجه ليلى وهيئتها كان يصدهم ويزجرهم ، فقد كان فى هيئتها احتجاز ، وعلى وجهها وقار مستغرب ممن هى فى مثل سنها ، وكان الناظر إليها لايسعه إلا أن يحس ذلك .

ومن غريب ماحدث أن فرص التعرف بالمصريين كثرت فجأة بعد أن نزلت ليلى فى الفندق وصاحبت إبرهيم ، فلم يمض يومان حتى عرف إبرهيم مواطنيه جميعاً وصار له بينهم احترام لم يعهده من قبـــل ، فإذا دخل الصالون ؛ ألح عليه كل من يكون موجوداً منهم أن يجلس مكانه ، وكثر عرض السجائر عليه وتقديمها إليه ، والتبرع بإشعال الكبريت له ، وكان هو يعجب لهذا فى أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن عرف السر لما تعددت الأسئلة عن ليلى ، فعلم أنه ليس محترماً لذاته ، وأن مجده مستعار ، والضوء الذى عليه منعكس عن تلك المرآة . . .

وفى رابع يوم لاتصال إبرهيم بليلى ، كان عائداً قبيل الظهر من حديقة الفندق فقابلها على السلم فقال لها وهما يعودان إلى الحديقة ، بعد كلام متقطع :

— اسمحى لى أن أوكد لك أنى لاأريد أن أثقل عليك بوجودى، ولكنى أحب أن أسألك كم ساعة فى اليوم تستطيعين أن تحتملى ظلى ؟

وكان يبتسم ، وفى وجهه على مايدل أن للسؤال غرضاً آخر ، وأنه ليس سوى تمهيد لسواه ، فقالت وهى حائرة عاجزة عن التكهن ، فقد ألفت منه اللف والمحاورة والمفاجأة :

— إنى هنا كما تعلم وحدى .

فقال وهو ينكت الأرض بكعب حذائه أثناء السير :

— إن هذا لايكفى ، ثم إنه خبر لا جديد فيه . فهل لك أن تجيبى ؟

فقالت بلهجة رقيقة :

— ألا تختصر الطريق وتفضى إلى بالغرض من السؤال ؟ »

قال : « حسناً . سأفعل . إنى أريد أن أختار أحد الشرين ؟ »

فرفعت حاجبيها مستغربة وفتحت عينيها جداً وقالت :

— أحد الشرين .

فابتسم وهو يقول: « معذرة . لقد كنت أريد أن أقول إن عليك أنت أن تختارى أحد الشرين » .

قالت : « هذا أبعث على الدهشة . أى شرين ؟ »

قال : « أنا أو التسعة عشر » .

فرددت قوله « أنت أو التسعة عشر ؟ ماذا تعنى ؟ »

قال : « نعم . فإن فى وسعى أن أدخن كالمدخنة ، وأن أسبح فى الخمور كالسمكة ، وأن آكل وأنام وأفعل ما بدا لى — كل ذلك من غير أن أنفق مليما » .

وسكت فقالت: « كيف ؟ وما علاقة هذا بسؤلك ؟ » .

قال : « انتظرى . ولكن هذا يكلفنى جهداً إذا كان لا يكلفنى مالا ، وأخلق بالمدخنة أن ينقطع مددها، وببحر الخمر أن يجف ، وبالموائد أن يطير عنها كل ما عليها من الألوان إذا لم أفعل ما هو متوقع منى فى نظير ذلك كله . . . أعنى بعبارة صريحة إذا لم أعرفك بالتسعه عشر ! »

فصاحت « ما أفظع هذا ! » .

قال : « لاتفزعى . فلن أفعل شيئاً من هذا، ولكن هنا تسعة عشر مصرياً يريدون أن يعرفوك . . . لقد عددتهم . . . واحداً واحداً . . . وهناك غيرهم ولكنهم — معذرة — لا يعبأون بك . . . فإذا عرفوك . . . »

فقاطعته صائحة « لاتتم هذا الكلام . . . أرجو . . . من فضلك »

قال : « إذن فلنتعاهد » .

فصمتت قليلا ثم قالت « نتعاهد ؟ »

قال : « نعم نتمشى معاً نحو ساعة كل يوم هنا أو فى أى مكان آخر تختارينه ، وفى مقابلة ذلك أتعهد بأن لا أعرفك بأحد من التسعة عشر » .

فأطرقت هنيهة كأنما تفكر وقال وهو يستحثها :

— اختارى أخف الشرين : أنا واحد وهم تسعة عشر .

فقالت : « لا بأس . قد قبلت المعاهدة . ولكن يجب أن تقيني هؤلاء (وضحكت) التسعة عشر ! »

قال : « لا تخافى . سأشترى مدفعاً رشاشاً إذا احتاج الأمر إلى ذلك » .

— ٢ —

وانتقلت بعد ذلك إلى مائدته وصارا يتناولان الطعام معاً ، وتوثقت أواصر الصداقة بينهما وصارا لا يفترقان إلا ليستريح كل منهما أو ينام فى غرفته . غير أنه بقى لا يعرفها إلا باسم ليلى ، وهى لا تعرفه إلا باسم إبرهيم ، والغريب أنه لم ينشأ ما يشعرهما بالحاجة إلى استيفاء الأسماء ، ولم يعرض بينهما مايدعو إلى التحدث عن الماضى . وكانا يتنزهان ليلة فى النيل فى زورق فقالت وهى مدلية يدها للماء :

— إنى أكره الرجال !

فمضى إبرهيم ولم يجب كأن الأمر لا يعنيه والخطاب ليس موجهاً إليه ، فالتفتت إليه وعلى شفتها ابتسامة عذبة وقالت :

— أحسبنى أسأت الأدب ؟ .

فقال : « كلا وإنى لأعذرك كلما ذكرت التسعة عشر — وأعطف عليك أيضاً » .

فالتمعت فى عينها نظرة خبيثة وهى تقول :

— من حسن الحظ أن الرقم لم يبلغ العشرين .

فقال ، وعينه إلى السماء ، وعلى وجهه آيات الذهول :

— من يدرى ؟ على أن الواحد المتمم للعشرين . . .

وسكت .

فسألته وهى تدنو منه :

— لماذا تقول من يدرى ؟ .

فأرسلها ضحكة مفرقعة وقال : وهل فى الدنيا من يدرى شيئاً ؟ قد يكون مذهب المرء واضحاً والطريق أمامه ظاهراً ، ولكن الغاية التى يصل إليها بعد الجهد والعناء من الذى يستطيع أن يقول إنها هى التى كان يقصد إليها حين أخذ الطريق ؟ .

وأحس أن كلامه فيه من الجد أكثر مما ينبغى فقال : « ليس لنا إلا الحاضر ياليلى ، والواحد الذى يمكن أن يصبح متمها للعشرين مصمم على اغتنام الحاضر الذى هو فيه » .

ولم يعودا يريان الفندق و (المعبد) ، والقمر يريق ضوءه على صفحة النهر ، والنسيم البليل يصافح خديهما ، وأخذت الأقصر تنأى عنهما وتغيب فى الظلام كأنما أسلمتهما الى النهر الخالد . وتناول إبرهيم المجدافين بعد أن استراح قليلا ، فضرب بهما الماء فانطلق الزورق يشقه ويعوم على ضوئه مخلفاً وراءه خطاً طويلا .

فقالت ليلى ، وقد أحست فجأة أن قوة لاتغالب قد استولت عليها واستبدت بها :

— دعنى أجدف فإنى أحب ذلك .

فابتسم وقال : « إذن فاجلسى أمامى . . . هنا . »

ونهض هو ووقف فى وسط الزورق ، ومد إليها يده ليساعدها على الخطو ، وجلست تجدف ، ولكنها كانت تخالط ، وتضرب الماء خفقاً خفيفاً بمجداف بعد مجداف ، وكان ضربها ، لخفته على وجه الماء ، فكان رشاشه يطير إلى إبرهيم ، فيضحك والزورق يضطرب ويميل كل مميل ، وهكذا سبحا على متن النهر ، والقمر يرسل أشعته على وجهها الأسمر الصافى وحاجبيها الكثيفين السوداوين ، وعينيها الضيقتين البراقتين ، فخيل لإبرهيم وهو قاعد أمامها أنهما مقبلان على أرض مسحورة منعزلة عن الناس خارجة عن دائرة القانون والعقل أيضاً .

وقالت ليلى وقد أراحت طرفى المجدافين على ركبتيها :

« ما أجمل هذه الليلة ! »

فقال إبرهيم بصوت خفيض ولكنه متهدج :

« نعم . أليست كذلك ؟ »

فانفجرت ضاحكة وقالت وهى ترد قصتها عن وجهها إلى رأسها :

« هل تعلم ؟ إنى . . »

قال « ماذا ؟ »

قالت « أحس برغبه ملحة فى أن أخلع هذه القبعة وألقيها فى الماء وأرسل جمم شعرى — أرسلها للنسيم والقمر . . »

فقال إبرهيم بلهجة فيها من الحنو نبرات :

« إذن فافعلى »

ولكنها صمتت قلقه ، ولم تستطع أن ترسل نفسها على سجيتها فقال إبرهيم :

« إنك تخجلين أن تطيعى رغباتك ، وليس خجلك لأنى معك وأنى أرى ماتفعلين ، فلو كنت وحدك لما اجترأت أن تطلقى لنفسك العنان ، وأن تفعلى ما يهتف به جسمك ، لأنك كغيرك — مثلى ومثل الناس جميعاً — تؤثرين أن توهمى نفسك أنك فوق الحياة وفوق دواعيها وإن كنت تعلمين فى أعمق أعماق سريرتك أنك لست إلا مظهراً ضئيلا من مظاهرها ، وأن كل مقاومة منك لطبيعتها وسننها الخالدة وأحكامها المبرمة التى لا مفر منها ، مجلبة للشقاء والألم . لماذا تحسبين الخجل والعار من رغباتك الطبيعية ؟ لماذا تخفينها ؟ إن القوى المحبوسة فى النفس تتطلب منفذا ، والجسم ينشد السرور واللذة ويتعذب من جراء صده وحرمانه »

فقالت ليلى « نعم . نعم . »

وغزت رأسها كتائب من الخواطر الجديدة ، وتلفتت حولها ، وعينها تضىء ، وتغلغل إلى أعماق نفسها جمال الليل والقمر الساهم وحسن النهر

الجارى بين القفار الحالمة ، ولج بها الشوق إلى تجربة القدرة على إفادة السرور بلا خجل أو تردد .

ومضى إبرهيم فى كلامه فقال « إنى أحلم — أحلم فقط مع الأسف — بعصر لا يحول فيه شىء بين الإنسان وسعادته ، عصر يستطيع فيه أن يباشر حريته التى لا تعتدى على حرية سواه ، عصر يستقطر فيه ويعتصر من الحياة كل متعها فى جرأة وحرية »

فسألته : « ولكن كيف يكون ذلك ، أنرجع إلى الهمجية الأولى ؟ »

فقال : « من قال ذلك ؟ كلا . ذلك كان عصراً سخيفاً ، ولم يكن الإنسان فيه يقدر حريته أو يعرف قيمتها أو حدودها فكانت الحرية فوضى ، وكان هو لا يستحق الحرية التى لا يفهمها ولا يحترمها ولا يحسن الاستمتاع بها ، وعصرنا الحاضر أيضاً سخيف ، لأن التقاليد الخاطئة تتحكم فى العقل تحكمها فى الجسم ، ولأنه تنقصه الهمة والذكاء والرشد . وإنما أحلم بعصر لا يستحي الإنسان فيه من نفسه ومن غرائزه المهذبة ومن مطالب هذه الغرائز ، لا يخجل أن يرمى طربوشه إذا شاء ذلك وأن يمشى عارى الرأس إذا أحس أن هذا أكفل بإشعاره الغبطة والروح ، ولا أن يثب فى الطرقات ويرقص فى الشارع أو يجلس بثيابه الأنيقة على الحجارة أو التراب إذا اشتهى هذا ، لأن الوثب والرقص والجلوس على التراب لا يضير أحداً »

فسألته بلهفة كأنما خافت أن يسترسل من غير أن يعرج على ما فى رأسها :

— ولكن ماذا عن الحب ؟ ألا قيود له يفرضها علينا ؟

فاكفهر وجهه ولكنه ضبط نفسه بسرعة وقال :

— الحب يفرض قيوداً ؟ لماذا ؟ ؟ ليس الحب هو الذى يفرض القيود علينا يافتاتى وإنما هى الغيرة ، أتفهمين ؟ إنها الغيرة ؟ وليست الغيرة وحدها هى التى تفرض القيود ، بل فضول الناس أيضاً وتدخلهم فيما لا يعنيهم ،

وخوفنا نحن من فضول الغير ، ذلك الفضول الذى نعبر عنه برأى الناس فينا . ما دخل الناس فى حبى وبغضى وهو شىء يعنينى وحدى دونهم ؟ لماذا نخاف رأى الناس أو فضولهم ؟

فقالت لنفسها « لست أشعر بأى خوف الآن وأنا معك » .

ونظرت إلى إبرهيم كأنما تراه لأول مرة ، واستغربت أنها تحسه قوياً طاغياً وإن كان فى رأى العين ضعيفاً يابس اللحم على العظام ذابل الشفتين ساهم الوجه . وانكشف لعينها ، وهى تنظر إلى إبرهيم ، عالم بأسره من القوى الزاخرة والعواطف الفائرة، فهل تدخله؟ ؟ وابتسمت لهذا السؤال ، وارتجفت أيضاً وهى تتخيل هذا العالم الذى تفتحت أبوابه لها . وكأنما أعدته بخاطرها أو أوحته إليه ، فأسرعت أنفاسه هو أيضاً فصار يلهث كأنما كان يجرى . ولكنه كبح نفسه وتناول المجدافين وأهوى بهما على الماء يضربه بسرعة وقوة، فانطلق الزورق يفرق الماء ، وصار خريره منغما فى مسامعهما ، واقتربا من الشاطىء الغربى، فأراح إبرهيم أحد المجدافين وضرب بالثانى فمال الزورق.

وبلغا الشاطىء ، فوقفا ووثب إبرهيم أولا ، ثم مد يده لليلى فوثبت إلى جانبه، ولكن الوثبة إلى أرض غير مستوية أفقدتها توازنها فمالت إلى إبرهيم وأمسكت بكتفه ووقعت بين ذراعيه . وطال التصاقها به على غير قصد منها أو منه فاندلعت النار فى دمائها وخرجت من بين شفتيها آهة دهشة وسرور حارة، واحتضنها وشد عليها، ومادت الأرض بهما وغامت الدنيا فى أعينهما، وهمست فى أذنه وهو ينحنى بها على دهس الشاطىء « ماذا تصنع ؟ دعنى بالله! » ولكن الصوت كان خافتاً والأنفاس كانت سريعة ، وصدرها كان يعلو ويهبط ويبغى صدره ، ولم يكن حولها إلا الليل المقمر وإلا رائحة النهر والأعشاب البليلة على حفافيه ، وإلا الجو يسخن تارة ويبترد أخرى وسكون عميق ، وفقد كلاهما وعيه . وتراخت أعضاؤهما بعد قبلة طويلة اعتصرا فيها كل ما فى دمائهما من نار .

الفصل الخامس

كانت عيني من الحزن، وأعضائي كلها كالظل

«يوجد باطل يجرى على الأرض أن يوجد
صديقون يصيبهم مثل عمل الأشرار»

— ١ —

رسالتان بعثت بهما شوشو إلى إبرهيم، ومضت الأيام ولم تتلق عليهما رداً، وثالثة أنبأها الشيخ على أنه كتبها إليه، ولا جواب أيضاً، فما معنى هذا؟؟ أيمكن أن يتلقى إبرهيم رسائل منها وأن يهمل الإجابة عليها ويدعها تمزق قلبها؟؟ لم تعهد شوشو فى إبرهيم هذه القسوة، نعم فيه جفوة ولكن لمن يكره، وإنه لقاس ولكن على نفسه حين يريد أن يحكمها ويردها على مكروهها، وما ألفت منه شوشو إلا الحنو والرقة والترفق بها حتى فى ساعات ثورته وغضبه، وهل تنسى ليلتهما على سطح البيت، وكلاهما يعلم أن لا أمل هناك وأن الفراق لامحالة غداً؟ ألم يعاطها الحب صرفاً؟ ألم يكن أحنى عليها من أمها؟

ولما جاء الغد ودعها وحدها دون أختيها، حتى الخدم لم ينس أن يصافحهم واحداً واحداً وهو يبتسم ويمزح، ولم يتجهم وجهه إلا حين دعاه الشيخ على أن يسلم على نجية. حينئذ فقط عبس وقال: «قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه؟ قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما؟» ولم يعبأ حتى بشعور الشيخ على ولم يحفل أن نجية زوجته؟؟ فالذنب ذنب نجية وسميحة، وسخط

إبرهيم عليهما وحدهما ومقته لها دونها ، فكيف يعقل أن ترد إبرهيم رسائلها فلا يرد عليها .

لا بد إذن أن يكون إبرهيم قد زايل الأقصر ورحل عنها إلى أسوان أو إسنا أو غيرهما ، بل هذا هو المحقق ، فما يستطيع إلا أن يمل كل مكان ليس هواه به ! ولو كان يسعها هى أن تنتقل مثله لما أطاقت الإقامة فى مكان واحد إلا أياماً قليلات ، ولكانت تذهب من بلدة إلى بلدة ، لعل التنقل يفيد سلوى ! آه ليت هذا فى وسعها ! إذن لأمكن أن تتجمل بالصبر ! إذن لهان عليها أن تحتمل التمزيق الذى فى صدرها ، والأظافر التى تقطع قلبها ، والنار التى تندلع فى عروقها وتصليها الجحيم فى الدنيا ! إذن لنجت من رؤية أختيها كل يوم — كل ساعة — كلما شاءتا هما أن تراهما لا كلما شاءت هى ! إذن لما اضطرت أن تحتمل ما تكايدها به أختها سميحة التى صارت كأنها فى عرس : تلبس كل يوم معرضاً من معارضها تتجلى فيه ، ولا تدع شيئاً من زينتها وحليها إلا لبسته وبدت فى حفله وفى عينيها سرور تلتمعان به ، وفى قلبها حبور ينضح به وجهها ، هو سرور الشماتة وحبور الانتصار والفرحة بالخيبة التى منيت بها . وهى أختى ! بنت أمى وأبى ، وأنا وهى من دم واحد ، وقد انحدرنا من أبوين اثنين ! من يصدق ؟ بماذا أسأت إليها ؟ أى شىء جنيته عليها ؟ ما ذنبى أنا إذا كان إبرهيم لم يحبها ؟ نعم ، أنا أيضاً أحبه ، ولكن هذا ليس من ذنوبى لديها ، فما أرى حبى له قد نفعنى ، وإنما ذنبى لديها أنه يحبنى ، وذاك مالا حيلة لى فيه لو أن لى حيلة فى نفسى ، ولقد جاهدت — علم الله — أن أصرفه عن طلبى وعن التقدم إلى أختى بخطوبتى ، ولكنه لم يسمع لى ولم يعبأ بى ، وليته كان قد أطاع ! إذن لأمكن أن أصبر ، واثقة أنه يحبنى ، راجية أن يجىء يوم يقرب فيه البعيد ويسهل فيه الصعب . أما الآن فلا أمل ! لا أمل ! حتى ولا فى سطر منه أتعزى به .

يا لهول الظلمة الراكدة التي تحف بي وتجثم على صدري وتخنقني ! ظلمة لا يضطرب فيها خيط ضئيل من النور ، ظلمة متحجرة لا ينفذ منها شعاع واحد من الأمل !

ولا بد لي من احتمال أختي هاتين . أختي بنتي أبوي ، أختي اللتين قضتا عليّ ، وسحقتا نفسي وخنقتا قلبي — لماذا ؟ لماذا ؟ ؟ وارتمت على السرير وبكت ، وراح كيانها كله يهتز ويرتجف ، وامتدت كفاها إلى شعرها المرسل فشدتاه كأنما أرادت أن تقطعه ، وصرفت أسنانها وهي تحاول أن تملك نفسها وتزجر عينيها عن البكاء ، ثم استوت قائمة وهي تقول « لماذا ؟ لماذا ؟ »

ونقر الباب ففزعت إلى المرآة فطالعها في صقالها وجه محتقن وعينان منتفختان من البكاء وشعر منفوش فذعرت وأدركها العطف على نفسها ، ولم تدر ماذا تفعل ، ولكنها أسرعت إلى القلة فأخذت منها ماء في حفنتها مسحت به وجهها وعينيها وتناولت منشفة ومضت إلى الباب تفتحه .

لم تخدع المنشفة والماء عين الشيخ علي ، فتناول كتفيها بين يديه وهو يقول لها بأرق لهجة وقلبه يتفطر :

« هنا إلى جانبي على السرير . »

وتولى هو عنها مسح وجهها بيمناه بينما كانت يسراه تربت لها على كتفها اليسرى . ثم أسند رأسها إلى صدره وجعل يمسح لها شعرها بكفه الكبيرة ويسويه ويرقده ، واستراحت هي إلى ذلك فتركت رأسها كالطفلة على صدر أبيها ، ولكن الشيخ علي لم يستطع أن يحبس حنوه الفائض فاغرورقت عينه وسقطت دمعة على جبين شوشو — حارة حامية ، فانتبهت ورفعت رأسها ، فأخذت عينها الدموع المترقرقة في جفنيه .

هذه الدمعة — هذه القطرة التي نزلت على جبينها — كانت لشوشو عزاء جميلا ، أدهشتها وأفرحتها وأحزنتها أيضاً ، وكانت على النار التي في قلبها برداً

وأشعرتها شيئاً من السلام والسكينة فنسيت نفسها لحظة ،وذهلت عن آلامها هنيهة ، ولم يبق أمامها إلا هذا الرجل الضخم يبكى لها ويستعبر من أجلها ، وقلبه الكبير يحنو عليها ويتوجع لها ، فدهشت كما يدهش المرء أن يرى جبلا يتقلع ، وفرحت بعطفه وتحننه ،وإن كان لاشك عندها فى رثائه لها ، وأحزنها أنه يتألم ، وليست بنته كزوزو ، وأكبرت منه رقة قلبه ومروءة نفسه ، فنهضت وتناولت وجهه الكبير بين يديها الدقيقتين وطبعت بين عينيه قبلة شكر صادقة .

وقال الشيخ على وهو ينهض : « زوزو تنتظرنى فالحق بنا »
وخرج وتركها تصلح من شأنها .

— ٢ —

لم يكن أغرب من منظر الشيخ على وبنته زوزو ، وهما يتقاذفان كرة صغيرة من المطاط ، وزوزو تحاوره بها وتلقيها إليه فى حيث لايكون ، إلى اليمين جداً إذا كان هو إلى اليسار ، وإلى اليسار إذا كان هو إلى اليمين ، أو تقذفها عالية فيتطلع إليها مترقباً هبوطها ليلقفها فتتسلل هى وتكون إلى جانبه فإذا دنت الكرة منه فى سقوطها ، صاحت به « إيه » ودفعته بيديها وفى ظنها أن تقلقله ، وهو يلهث من الجرى إلى كل ناحية وينفض عرقه وإن كان الجو بارداً ، ويخجل أن يقول لابنته « تعبت » ويعز عليه أن يخيب أملها فيه ، فيغالطها ويقترح لعبة أخرى لا تكلفه جريا ولا تتقاضاه وثبا ، وهى تصر على الكرة وتروح تدب برجليها على سبيل التأكيد أو الخوف من أن لا يوافقها، وتقول بسرعة كأنما تريد أن لا تدع له فرصة للكلام والاعتراض، ووجهها مرفوع إليه حتى لتكاد تقع على ظهرها :

— لا يابابا ، لا يابابا ، الكورة أحسن ، ماليش دعوة ، أنا مالى ، تقف هنا وانا هناك ، لك على ماحدفهاش بعيد ، بشويش ، هيه ؟ اعمل معروف .

ولكن الحظ كان مؤاتياً لأبيها فقد ظهرت شوشو على رأس السلم ، ورآها الشيخ فنجا وفرح بنجاته ، وبهذه الفرصة للخلاص من غير أن يحتاج أن يؤلم ابنته برفض رجائها وتوسلها فانحنى عليها وتناولها ورفعها إليه بلا جهد ، وقبلها وأدار وجهها إلى السلم وهي معلقة بين يديه فى الفضاء وقال :

— خالتك شوشو .

فصفقت زوزو ، ونسيت كرتها وتوسلاتها وسرورها الذى كانت تفيده من رؤية أبيها الضخم يعدو ولا يدرك الكرة ، ويلهث من هذا الجهد وإحدى يديه على وجهه يمسح بها العرق المتصبب والأخرى ممدودة لتلقف الكرة ، وإن كانت لا تزال بعيدة — نسيت ذلك كله لما رأت شوشو خالتها ونازعتها نفسها أن تجرى إليها وأن تستقبلها عند السلم ، فراحت تحرك رجليها فى الفضاء بسرعة وتحاول أن تتخلص وتنظر إلى الأرض فتراها بعيدة فتناشد أباها أن ينزلها ، وهو يعابثها ، ويدعى أنه يطيعها فيدنو بها من الأرض حتى إذا كادت تلامسها قذفها فى الهواء وتلقفها بيديه ، وهى تصيح وتصرخ وتضحك أيضاً .

وصارت شوشو قريبة منهما فالتفتت زوزو إلى أبيها وقالت :

— وحياة خالتى شوشو .

فوضعها على الأرض فى رفق ، وابتسمت شوشو وقد سرها هذا الدليل الصغير على سمو منزلتها عند الشيخ على ، وأن زوزو الصغيرة تعرف هذا وتدركه ، وحنت عليها تقبلها ، ثم همت بأن تعتدل وتستوى واقفة ، ولكن زوزو دفعت ذراعيها فجأة وطوقت عنقها ، فلانت لها شوشو ، وتلقت قبلاتها الحلوة على شفتيها وخديها وعينيها ورأسها — من فوق السكبة [1] — وأذنيها ثم خرجوا .

---

(١) السكبة مايغور للرأس كالشبكة .

— ٣ —

وكانت سميحة تنظر من سجفى الستار ، ونجية وراءها وقد اتكأت بيدها على كتف سميحة ، وراحت تميل رأسها ذات اليمين وذات الشمال ، وتشب محاولة أن تنظر كأختها من الفرجة التى بين السجفين . ولكن سميحة كانت قد جمعت طرفى السترين ولم تدع إلا شقاً صغيراً لعينها، ولما لم يبق شىء تنظر إليه، أرخت يدها وتنهدت وهى تدور وتواجه نجيه . وقالت :

— خرجوا . استريحى بقى .

وكانت لهجتها تنم على الأسف ، ونبرة صوتها تشى بالكمد المكتوم ، ولا أسف هناك ولا كمد ، وإنما كانت تتكلف ذلك وتتصنعه لتستثير نجية وتغذى عنادها . ولم تكن تبالى فى سبيل ذلك أن تمشى بالوقيعة بين نجية وزوجها . فقد كانت الغاية عندها تبرر كل وسيلة ، فلم تحجم عن أن توقع فى روع نجية بالتلميح المتوالى أنه لا يبعد ، إذا ظل الشيخ على وشوشو كما هما ، أن ينتهى الأمر به إلى تطليق نجية والتزوج بشوشو ، وكانت أذكى من أن تصرح بهذه الدسيسة ، وألبق من أن تزيد على الإشارة فكانت ربما تنهدت فجأة وقالت :

— الأمر لله .

فتقول نجية « ماذا يا أختى ؟ »

فتقول سميحة : « لاشىء ! ربنا يستر . »

وتنصرف عن أختها وتدعها تفكر وتخمن وتقلب الأمر على كل وجوهه المحتملة .

ثم بعد ساعتين ، أو يوم ، تعيد الكرة فتقول :

— إن إقامتنا معك يا أختى لا يعلم إلا الله ماقد تؤدى إليه .

فتقول نجية : « كيف يا أختى ؟ لماذا تقولين هذا الكلام ؟ لماذا تتكلمين كأنى . . . أستثقل وجودك ؟ »

فتقول سميحة « وجودى أنا ؟ ياريت ؟ نهايته ! ربنا يسلم . »

فتلح عليها نجيه وتقول : « ألا تقولين ماذا فى رأسك هذا ؟ إنك تفهمين أكثر مما أفهم . . . فهل . . هل . . . هل . . . قولى . . . تكلمى . . .

فتقاطعها سميحة حتى لايبلغ الأمر درجة المصارحة وتقول :

— ربنا وحده هو العالم بما فى رأسى . . . ده تبقى مصيبة . . . لكن هو جنان ؟

وهكذا حتى اتجهت خواطر نجية شيئاً فشيئاً إلى هذه الناحية ، وعميت عن السبب فيما يبدو من عطف زوجها على أختها شوشو ، وساورتها الوساوس ودبت فى صدرها الغيرة ، وإن كانت قد ظلت قادرة على مغالبة الظنون ومدافعة ماتهمس به ، وبقيت تعتقد أن هذا بعيد الوقوع بل مستحيل ، غير أن مجرد التفكير فى هذا المستحيل غيض من وجهها كل بشاشة لشوشو والشيخ على ، وأغراها بالتجسس عليهما ، وكان من الطبيعى أن تكل ذلك إلى سميحة ، وأن تفتح أذنها لكل ماتشاء أن تصبه فيها ، وزاد الفساد لأن الشيخ على أصر على جفوته وإهماله لنجية ، ومنح شوشو عطفه وعنايته وصار لا يفارقها مادام فى البيت ، وكثر استصحابه لها حين يخرج للرياضة والتنزه ، وكان الشيخ على يتوقع ، بعد أن أعلن إلى نجية سخطه على مسلكها حيال إبرهيم ، واستياءه لرفضها العمل برأيه ، ونقمته منها أنها حقرت شأنه فى نظر إبرهيم بأن أظهرته له رجلا لاسلطان له ولا إرادة فى بيته ، ـ نقول إنه كان يتوقع من نجية بعد أن أعلن إليها هذا وجافاها من أجله ، أن تندم وتحاول استرضاءه وتسعى لتتألفه من نفرته ، ولكنها لم تفعل لأن سميحة تكفلت بتوسيع الهوة بينهما ولم تقصر فى الدس والوقيعة ، وكانت سميحة تدرك أن الشيخ على لن يفىء إلى الرضى أو يصفح عن نجية إلا إذا نزلت

على حكمه وعادت إلى رأيه ورضيت بتزويج شوشو لإبرهيم ، ولا بد أن ينتهى الأمر إلى ذلك إذا تنبهت نجية إلى واجب العمل على ترضى زوجها ، فلا اطمئنان لسميحة إلا مع استمرار الجفاء — على الأقل إلى أن ترى لها وسيلة أخرى وتهتدى إلى حيلة جديدة .

ومن الأوهام الشائعة أن الأطفال آخر من يفطن إلى الحوادث التى تقع حولهم والبواعث التى تفضى إلى وقوعها ، وكثيراً ما يطمئن الكبار إلى جهل الصغار وعجزهم عن الإدراك والنظر والتمييز ، ولكن الأطفال كثيراً مايخزنون فى رءوسهم أسراراً يقفون عليها ، لو اطلع عليها الكبار لراعهم عمقها ولعجبوا لقدرة الأطفال على التقصى والاستنتاج ونفاذ البصيرة ، وليس بالنادر أن تكون سعادة الأسرة رهناً بما يبديه هؤلاء الصغار من الحكمة وصدق النظر والصمت ، وهى صفات قد يكون مرجعها إلى الإلهام وما أحرى كثيرين من الكبار بأن يتلقوا درساً فى الكياسة من هؤلاء الصغار المستجهلين .

ومن أجل هذا لم يكن عجيباً أن عمى الشيخ على وشوشو عن حقيقة ماصار إليه الموقف فى البيت ، وأن راحت زوزو الصغيرة تجمع نتفاً من هنا وطرفاً من هناك وتضم هذا إلى ذاك وتستخلص وحدها سر الأزمة وطورها الجديد ، وإن لم يخل الأمر من أغلاط غير قليلة متعلقة بالوقائع والأسباب ، ولكن النتيجة التى إنتهت إليها كانت فى جملتها صحيحة ، غير أنها ألهمت أن تمسك على ماخزنته فى رأسها الصغيرة فلم تثرثر به .

وهكذا صار البيت معسكرين . وتم انفراج الحال ووقوع النبوة لما عاد الشيخ على إلى القرية بغتة وأخذ معه شوشو وزوزو . .

الفصل السادس

هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو فى مقصورة القمر تمسيت ؟

— ليلى !

— نعم .

— لا أدرى ماذا أقول ! ولكنى أدرى أنى أريد أن أقول شيئاً ... أظن أنك عطوف ياليلى .. ولو أنى كنت شيخاً هرماً لردنى النظر إليك شاباً يافعاً — شاباً بإحساسى على الأقل ، ولو أن شكسبير عرفك لأكثر نظم الأغانى وأقل من الروايات ..

فأشارت ليلى بكفها البضة ناهية عن الاسترسال وانحنت له مازحة وقالت :

— أشكرك ، وأسمح لنفسى أن أشك فيما تقول ، ولكن شيئاً واحداً أنا على يقين منه ، فلو أن شكسبير عرفنى لنا ولنى سيجارة .

فاعتذر لها ومد يده بعلبة السجاير ، وأشعل عود الثقاب .

وكانا جالسين فى معبد الأقصر فى الصحن المتسع الذى تحيط به الأعمدة ، وإليه يؤدى الباب مباشرة ، ويعرفه رجال الآثار بساحة أمنحوتب الثالث ، وكان إبرهيم قد رشا الحارس فأذن لهما أن يدخلا فى الليل ، فاتخذا مكانهما إلى جنوب الصحن ، وكانت الليلة مقمرة ، والأعمدة أكثرها سليم ، فجلسا يتصوران ماكانت عليه هذه الساحة من الأبهة والرونق فى أيامها وأيام هذا الملك — أمنحوتب الثالث — الذى بلغت البلاد فى عهده ذروة الغنى

والرخاء ، وانطلق إبرهيم يحدثها عن هذا الملك وكيف أنه وهو يبنى هذا الهيكل اغتنم الفرصة فرسم لشعب طيبة على الجدران سلسلة من المناظر تتعلق بارتقائه العرش وتبرره أيضاً ، وذلك لأن الشريعة المصرية كانت تقضى بأن يكون الذى يتولى الملك زوجاً لبنت الملك الكبرى أو ابناً لها ، ولكن أباه — تحوتمس الرابع — لم تكن له ، على ما يظهر ، بنت فيتزوجها أمنحوتب ، ليصير ملكا شرعياً ، ولم تكن أمه — موتموا — على الأرجح إلا بنت ملك لأقليم صغير فى سورية اسمه ميتانى ، وقد تزوج أمنحوتب وهو صغير — تى — وهى ليست من أسرة ملكية ، وأكبر الظن أنها لم تكن مصرية ، ولهذا شاد أمنحوتب هذا المعبد ليتألف قلوب الرعية ويرضى كهنة طيبة ، وقد أريد بالرسوم والنقوش التى تصور ميلاد الملك وتتويجه محو كل شك فى حقه فى ارتقاء العرش .

وقال إبرهيم بعد أن أفضى إلى ليلى بهذا التاريخ القديم :

— أحسب هذا مثالى . . .

فعطفت إليه وجهها وابتسمت وهى تتوقع أن يفاجئها بملاحظة مضحكة ، أو مفارقة غير منتظرة ، على عادته ، ومضى هو فى كلامه فقال بلهجة جادة :

« . . . أنا أيضاً أرتقى عرشاً أكبر ظنى أن ليس لى فيه حق شرعى ، فليتنى أستطيع أن أشيده معبداً ضخماً لإلهى المعبود ، أسوغ به ما استوليت عليه ، ولم تكن ترتقب منه هذه اللفتة الجادة فغاضت ابتسامتها ، وعجبت لتعاقب الوجوم والبشر على وجهه ، والصحو والغيم فى سماء نفسه ، وأحست أن هذا لا بد له من علة ترجع إلى مالقى فى حياته ، وأنه لا شك قد قاسى وتعذب ، فرق له قلبها ، وأرادت أن تجلو صدره فقالت :

— مالوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟ .

وزمت شفتيها وكانتا ترتجفان ، فألقى إليها إبرهيم نظرة عتب ، ولم يقل شيئاً ثم التفت إليها فجأة وأمسك بكتفيها المستديرتين ، فانتفضت للمسه ، وقال :

— ليلى . ستشقين بسببي غداً ، غداً ! . وهز كتفيها بعنف ، فقالت :

— كلا ! لن أشقى ، أو فلأشق ! سيان ، إنما تنشأ الأحزان لأن الإنسان يفرض لسعادته ثمناً . ولست أتقاضاك ثمناً ، فدع هذا ، على أنك أديت ولا تزال تؤدى لى ثمن سعادتى . . .

فقال : « كيف ؟ » مستغرباً

قالت : « ألست تحميّ من التسعة عشر ؟ » .

فابتسم ، ولكنه قال :

— ليلى . واجهى الأمر جادة . أرجو »

فقالت من غير أن تعبس :

— ماذا كنا نستطيع أن نفعل غير ذلك ؟ ؟ كيف كان يسعنا أن نقاوم ؟ لقد كانت لحظة شعرنا فيها أن كل حاجز بيننا تداعى ، وأنها لحظة إذا أفلتت فهيهات أن تعود ! ويجب أن تبقى ليلتنا تلك فى ذاكرتينا أنفس ما ندخر وأجمل ما استمتعنا به . فبالله عليك لا تمط وجهك ولا تفسد علىّ تلك الذكرى ! »

فوجم إبرهيم وحار ماذا يقول ، وجلست هى على رجله وقالت لخده ، وذراعها حول عنقه :

— لعلك فكرت فى الزواج ؟ هيه ؟ لا أستغرب أن تكون قد فعلت فإن رأسك هذا دائب العمل كالزمن ، لا ينى ولا يتوقف ، كلا ياصاحبى ، إن الزواج نقلة إلى حالة أخرى . . . لا نعود بعده ليلى وإبرهيم ، كما نحن الآن ، ولا تبقى هناك متعة نستفيدها من تلاقينا ومن خلواتنا . . . لا زواج

بيننا . . . فلنبق هكذا . . . دائماً . . . أنت إبرهيم لا أكثر . . . وأنا . . . ليلى . . . لا قيد . . . ولا رباط . . . سوى هذا الحب ! . الحر . . . الطليق كالعصافير . . . إن عينيك دهشة . . . أليس هذا بعض ما علمتنى ؟ ؟ أيحذق التلميذ درسه وينساه أستاذه ؟ أوه لا ! لا ! لست وحدك معلمى ... لاتخف... الدنيا كلها علمتنى . . . الحياة هى التى أجرت إرادتى وخواطرى فى هذا المجرى ، وما كنت أسألك كالتلميذة إلا لأنى كنت أحب أن أسمع منك خواطر نفسى وهواجس ضميرى بلسانك وبقوة بيانك . وكنت أخشى أن تخيب أملى فيك ، فلما صدقت فراستى كنت أصغى إليك وأنا أنتفض من السرور والدهشة أيضاً . . . لقد خلقنا — أنا وأنت — لنحيا هكذا . . . لسنا نصلح لذلك الحب التقليدى . . . ولكنك لم تقل لى قط إنك تحبنى أو . . . لا . . . لا تقلها . . . لا تبتذل المعنى . بلفظه . . . لا تقيده . . . دعه يطل من العين فقط ويختلج على الشفة . . . ويضطرب به الجسم كله . . . هذا أحلى . . . أو تتكلم العصافير ؟ ؟ والحمائم ؟ ؟ لا تقل شيئاً . . . قبلنى . . . مرة أخرى . . . ؟

ولم يكن إبرهيم قد سلا شوشو ، ولكنه تسلى ، ولم ينقص حبه لها ولكنه تعزى بحب سواها . وقد ينكر القارىء أن يتسع القلب الواحد لحبين ، غير أن الواقع كان كذلك ، وعلى أنهما كانا حبين من طرازين متباينين ، لا يمنع أحدهما الآخر ولا يزاحمه ولا يصعب لذلك أن يعيشا فى القلب متجاورين متناوحين كما يتجاوز فى القلب حب الوالدين ، وحب البنين ، وحب الأخوة ، وحب الزوجة ، وحب الصديق ، وحب الأدب أو الفنون أو غير ذلك ، وكلها محاب ولكنها مختلفة فى مصادرها ومظاهرها وآثارها . واختلافها هو الذى يوسع لها ضمير الفؤاد . والنفس الإنسانية أعمق وأرحب وأغزر موارد من أن تشق أو تضيق بمعاشق شتى متنوعة ،

وأين ذاك الذى سبر غور النفس وغاص إلى أعمق أعماقها ونفذ إلى كل شعابها وتغلغل إلى أخفى كهوفها وزواياها حتى يجوز له أن ينكر أن يتجاور فيها حبان لإنسانين كما يتجاور حب لواحد وبغض لآخر ؟ من الذى مسح هذا « التيه » المضل ودرس طرقه وأحاط بمنعرجاته ، وألم بمباديه ونهاياته ؟

وهكذا كان قلب إبرهيم يعمره حبان : حب شوشو الرائعة التى تستولى على النفس محاسنها « جملة » — وكانت شوشو كما أسلفنا القول فى ذلك « فتاة » لا يحس الرجل مادتها ، ولا يلتفت حين يحادثها إلى « الشكل » وكانت قدرتها هذه على صرف الجليس عن التأمل المادى لمعارف وجهها وخصائص محياها ، ليس مرجعها إلى لباقة أو كياسة مكتسبة ، وإنما كان مردها إلى تلك السذاجة المحببة التى تذيب القلب وتشيع السرور فى الصدر وتثير كرم النفس ومروءتها . وكان لها كل جرأة النفس الغريرة وحرارتها وخفتها ، وكان إحساس المرء حيالها أشبه بإحساسه حيال الطفولة الجميلة البريئة .

أما ليلى فخلق آخر . وجمالها مختلف جداً . وفتنتها مستمدة من عناصر غير هذه . فقد كانت أولى مزاياها اللين والمرونة حتى لكانت تبدو ساكنة وهى تنساب ، وكان جليسها لا يسعه إلا أن يشعر أن لهـا عينين اثنتين . والمرء فى العادة لا يجعل باله إلى هذا الازدواج ولا يلتفت إلى تلك التثنية ، حتى ليغلب أن يستعمل لفظ المفرد ، والمعنى مثنى ، فيقول العين ويريد العينين ، ويذكر الجفن وهو يعنى الاثنين ، لأن النظرة من كلتيهما واحدة . وهما توأمان ، ومعناهما فى الذهن مندمج . ولكن ليلى كان لكل من عينيها إيماضها . ولا اختلاف بين اللمعتين ، وإنهما لمتجاوبتان ولكنهما على ذلك فيما يحس الرجل ، مستقلتان . وكانت أمارات التفكير الكثير المرتسمة على محياها ربما أطفأت هذا الالتماع ، وإن لم تعف مع ذلك — إلا قليلا وإلى بضع دقائق — على شىء من الدلال فيها لم يكن على هذا بادى التكلف

بحيث ينفى صدق السريرة . وكانت شفتاها — كحاجبيها — خطين حاسمين حادين ، وإن كانت تقويستهما لينة رقيقة . والمرء يتوقع — ولا يستغرب منها — حين ينظر إلى جبينها الوضاء الذى ترد عنه الشعر ولا تدعه ينسدل عليه — الصراحة والجرأة : صراحة النفس التى تأنف أن تغالط فى الحقائق ، وجرأة القلب الذى ذاق وجرب ، والعقل الذى فكر وتعب .

فبينما كان إبرهيم ينعم بحب ليلى وقربها ، وكانت هى تساقيه الهوى صرفا غير مقطب ولا مكدر ، وبلا قيد أو تحرج ، كان قلبه يتلفت إلى شوشو . وينثنى بالصبوة إليها والتحرق عليها والتوجع لفراقها والبعد عنها . وكان فى كلا حبيه مخلصاً : يجرى فى هواه الجديد بغير لجام ، ويرتد إلى شوشو بالقلب الكسير المستهام ، فكأن حب ليلى الخمر يعب فيها العاشق الولهان يحسب أن سيغرق فيها وجده . فتستعر جوانحه وتضطرم النار بين جنبيه وتتقصف أضالعه . وكان تحرر ليلى يفتنه ، وسذاجة شوشو تسبيه ، وكان حب شوشو يتمثل له حاسما كالزهادة لمن لم يجد لعلة نفسه شفاء فى الرياد والضرب فى زحمة الحياة . وكان يبدو له — بعد أن انتهى إلى ما انتهى إليـه — بمثابة الرفض للحياة . ورفض الحياة — على كل سحره — لا يزيد النفس إلا إحماء . والزهادة قد تكون منجى ولكنها يأس ، وهى ، على كل ما تدل عليـه من القدرة على التسامى فوق مغريات الحياة ، قلما تفضى إلا إلى أن تخسر النفس طيبها ورضاها ، والسعادة لا تجنى فى الحياة بأن يرد المرء يده ، بل بأن يمدها إلى الثمار ليجنيها .

وكان حين يفكر فى حبه لليلى يتصور الهروب من النفس ، ويخيل إليه أنه يسوم ذكاءها إطفاء ، وأنه يبلدها وينشر الضباب على صفائها . ولم لا ؟ أليس اللبيب هو الذى يمحض نفسه مراحا ؟ أليس السعيد هو الذى يقهر نفسه باللذة ويضنيها ؟

فهما حبان مختلفان يمثلان فى مظاهرهما وفى جوهرهما مذهبين مختلفين: رفض الحياة والاستغراق فيها ، ولكنهما من حيث النتيجة سيان .

وسواء من قال ليس سوى الأرض ومن قال لن تنالوا السماء

وأبيقور — بعد — كزينون ، كلاهما مخطىء وكلاهما مصيب ، وقد التقيا بأعجوبة من أعاجيب الحظ الساخر فى نفس إبرهيم .

بل هناك حب ثالث كان ملقى فى زاوية من نفس إبرهيم ، ولكن كونه غير طاف على اللجة ليس معناه أنه غير موجود . وما أكثر ما كان إبرهيم — حين يجيش صدره وتفور نفسه وتختلط الأعالى بالأسافل ويندفع الراسب إلى مستوى الطافى — يذكر « مارى » ويشتاقها ، مارى الضعيفة التى تشعره بقوته ، المذعنة التى تؤكد له قدرته على القهر وتبرز له لذة الغلبة ومتعة السيطرة ، فيبتسم ويود لو أنها إلى جانبه ليوحى إليها إرادته وليشعر بلذة الإسراع إلى الإجابة والامتثال .

وقال إبرهيم وهو يفكر فى ثالوث قلبه :

« عجيب . . عجيب . . حين أذكر « مارى » أحس سطوة القوة ، وصيال العزم ، وعتو الجبروت ، وأتصور شوشو فأحس وقار التجربة وسمت العلم وأبهة الشيخوخة وحنو الأبوة ، وأكون مع ليلى فأرانى كأنى أتعلم رقصة الحياة على إيقاع الشباب . . عجيب . . عجيب . . »

الفصل السابع

« حوط طريقي فلا أعبر ، وعلى سبلي جعل ظلاماً »

لم يسع الدكتور محمود إلا أن يبتسم ، وهو يقرأ الرسالة التي بعث بها إليه قريبه الشيخ علي مع أحمد الميت ، يأمره فيها أن يحضر ولا يذكر سبباً موجباً لذلك ، ويؤكد له فيها - بلا مناسبة - أن كونه طبيباً ، مثل كون أحمد الميت ميتاً - كلاهما كذب على الله والناس !

وكان الدكتور محمود يجاهد مذ عاد من الأسكندرية ، أن يروض نفسه على السكون إلى اليأس من شوشو ، ولم يكن يدري لماذا ينبغي أن يقنط ، ويثني عنان الأمل ، ولكن الشيخ علي صده عن الرجاء ، والشيخ علي بطبيعة الحال أدرى ، وهو ناصح غير متهم ، غير أن المسألة مع ذلك غير مفهومة ، فهل كل مافيها أن شوشو أصغر من سميحة ، وأن الكبرى تتقدم الصغرى وتسبقها إلى الزواج ؟ قد يكون هذا هو السبب ، ولكن لهجة الشيخ علي تنبىء بأن هناك شيئاً خلافه لم ير أن يفضي به إليه ويطلعه عليه ، فما عسى أن يكون هذا الشيء الآخر ؟ ؟

وكان الدكتور محمود أشرف من أن يخطر له أن يتسقط الأخبار أو يستدرج الخدم ومن إليهم ، لعله يظفر منهم بما يحل هذا اللغز أو يهدي على الأقل إلى طريق الحل ، فوطن نفسه على الصبر وترك ظلمة الجهل التي هو فيها تحيط به من غير أن يحاول تبديدها أو إراقة شيء من الضوء عليها ، وضاعف جهده في عمله ليكون ذلك أعون له على الاحتمال ، وساعدته طبيعته وظروف حبه لشوشو على أن ينتقل بها وبنفسه إلى دائرة الأحلام

والذكر المحببة التى تتشبث بها القلوب .

وكانت ساعة القيام من النوم فى الصباح أقسى الأوقات عليه ، فهو فى النهار ينصرف إلى عمله وإذا ثقلت عليه وطأة الوحـــدة لم يعدم جليساً يسامره ، أما فى الصباح فالأمر على خلاف ذلك :

تبدو له الحياة أول مايفتح عينيه عليها لمتثائباً ، وردية ذهبية ، ولكنه لايكاد يفرك عينيه حتى تكر إليه الذكرى الأليمة بكل قوتها ، وقد زادها تكرار الهجوم منها وتكرار التضعضع أمامها ، قوة على قوتها ، ففى كل صباح يفتتح حياته بالشعور بمراره الحرمان وقسوة الأقدار ، وفى كل صباح يهمس فى أذنه قضاء الحظ أن حبه يجب أن يموت ، وفى كل صباح يرتد فزعاً من هول هذا القضاء الذى لا لطف فيه .

ولو كان الدكتور محمود أصلب عوداً لقاوم وكافح ورفض أن يذعن لهذا القضاء الذى فرضه عليه الشيخ على ، أو على الأقل جدا ، لطلب من الشيخ على إن يبين له السبب فيما يقضى به عليه ليعرف فى أى طريق يسير ، ولو كان من ذلك الضرب المرح الطروب الذى لايعنيه من الحياة إلا مقدار مايطلب من متعة تعود أمتع إذا كانت أخشن ، لهز كتفيه ساخراً ولطابت نفسه بسرعة عن شوشو ، ولكنه كان من ذلك الطراز الذى يسعه أن يعبث ولا يعبأ بالصدمات إذا كان لا يشعر بعاطفة قوية ، حتى إذا صار الأمر جداً ، انقلب حيياً ضعيفاً غير كفء لما تتطلبه العاطفة . وكانت مهنته ـ بما تنطوى عليه من تبعات جسام ـ قد عودته الشعور بالمسئولية وأفرغت عليه روح الجد الصارم فى شبابه ، وعلمته أن ينظر من أتفه الأسباب إلى أخطر النتائج ، فلما أدرك أنه قد أحب شوشو وأنها قد استولت على هواه واستبدت بقلبه ، استحال إنساناً آخر .

وقال الدكتور لأحمد الميت فى الطريق إلى القرية :

هل مرض أحد ؟

فقال الميت: «لا ، أبداً ، كلهم بخير.»

فقال الدكتور كأنما يناجى نفسه :

— إذن لماذا يدعونى الشيخ على ؟

فهز أحمد الميت كتفيه ولوح بيده وقال — كأنما كان الخطاب له - : «تسألنى أنا ؟ حصانك هذا أدرى منى . لقد تطوعت لحمل الرسالة لأهرب من وجهه» ، وضحك .

فنظر الدكتور إليه بسرعة ، ولم تعجبه هذه الضحكة العصبية ، وشد اللجام ثم أرخاه فأسرع الجواد وانطلق يخطف ، فكاد أحمد الميت الذى فاجأته هذه الحركة يقع على ظهره ، وارتفعت يده بسرعة إلى قفاه ليرد العمامة إلى جبهته ، ثم لف العباءة فوق ركبتيه وانحنى إلى الأمام قليلا .

وكان الدكتور يفكر فى أمر رفيقه وغرابة اعتقاده أنه مات ، وأنه الآن غير حى ، وسلامة عقله فيما عدا ذلك ، فسأله :

— أحمد . كم عمرك الآن ؟

فابتسم أحمد كأنما فطن إلى الغرض مما ظنه مداعبة ، ولم يجب فأعاد الدكتور سؤاله :

— كم عمرك يا أحمد ؟ لماذا لا تجيب ؟

فرفع أحمد وجهه إليه مستغرباً وقال :

— عمرى إيه ؟ سبحان الله العظيم . حتى أنت يادكتور !

فافتر ثغر الدكتور عن ابتسامة العارف وقال :

— دعنا من عمرك الآن وقل لى كم كان عمرك لما مت ؟

فارسلها أحمد نظرة طويلة ساكنة إلى الطريق . ثم طأطأ رأسه وثنى عينيه إلى حجره وقال :

— إيه . . . سبحان العالم . ده شيء مضى وراح . لو كان فى العمر بقية ما وافى الأجل ؟

فلم يستطع الدكتور أن يتابعه فى أسلوب تفكيره . أو أن يدرك البواعث على هذا التعليق ، فسأله :

— ألا تذكر شيئاً من حياتك . . . أعنى قبل أن تموت ؟

فأدار أحمد وجهه وقال بلهجة حادة :

— أذكر إيه ؟ أنا مت واللى كان كان .

فقال الدكتور : « أعرف ذلك . ولكن ألم تحلم قط . أعنى ألا ترى فى منامك شيئاً من حوادث تلك الحياة الأولى ؟ »

فلم يعجبه هذا السؤال وهز رأسه مراراً قبل أن يجيب .

— أيوه بحلم . لكن يعنى إيش درانى إن اللى بشوفه هو إللى كان . . . أهى منامات تهاليس .

فألح عليه الدكتور :

— وماذا ترى فى منامك ؟

— كتير ماتعدش . مين فاكر ؟

فقال الدكتور :

— هل تتكرر أحلام معينة ؟ هل ترى الحلم الواحد مرات ؟

فصمت أحمد هنيهة وهو مطرق ثم قال :

— أى والله برضه يحصل .

ثم رفع رأسه وقال :

— وانت إيش دراك ؟

فابتسم الدكتور وقال :

— ألا تذكر واحداً من هذه الأحلام المتكررة ؟

فظل أحمد مطرقاً ، ولكن وجهه ظهرت عليه آثار الكد والتعب وهو

يجاهد أن يذكر ثم قال :

— مش جادر وحياتك يا دكتور . هم الدنيا بينسي الواحد نفسه .

وعاد الدكتور يسأله :

— ألا تتكلم وأنت نائم يا أحمد ؟

فقهقه أحمد وقال :

— يعنى منين أبجى نايم ومنين أسمع نفسى ؟

فسكت الدكتور ولم يسأله شيئا بعد ذلك .

ولما قابل الشيخ على قال له :

— أحمد الميت يستحق أن يراقب وهو نائم ، فلا يبعد أنه يتكلم بما هو مستكن وراء الوعى ، والعلم بذلك وبأحلامه أيضا قد يفيد فإن شفاءه فيما أعتقد غير بعيد .

— ٢ —

اضطربت شوشو لما علمت أن الدكتور محمود قد جاء ، وكانت مع زوزو تلاعبها وتضاحكها ، وكانت الأيام القليلة التى قضتها فى القرية بعيدة عن أختيها قد ردت إلى خدها صبغته الأرجوانية وإلى عينها اللمعة التى أطفأها الكمد الباطن ، واستراحت من مكايدة سميحه وبلادة نجية ، ونعمت بعطف الشيخ على وحلاوة روح زوزو ، وشعرت وهى معهما كأن المستقبل ليس حالكا كما كان يبدو لها فى الأسكندرية ، وكانت تقضى أكثر وقتها مع زوزو ، وكانت زوزو طفلة ولا بد للأطفال من الثرثرة ، ولا سيما مع من يطمئنون إليه ويحبونه ، فأفضت زوزو إلى خالتها ببعض ماتعلم ، ومالا تستطيع أن تعلله أو تفسره على الوجه الصحيح ، ولم تكن تحلم ، وهى تطلعها على أسرارها الصغيرة ، أن ستكون لها عواقب كبيرة ، فمن ذلك أنها أنبأتها أن

خالتها «سميحة» ذهبت إلى امرأة «تبين البخت» وأنها بعد ذلك اشترت صندوق «شكولاته» وأعطته للمرأة التى تبين البخت وتركته عندها ثم عادت فأخذته بعد أن سحرت المرأة الصندوق، وقد سمعت فيما بعد أن الصندوق أرسل إلى «خالها إبرهيم» فى الأقصر.

وقصت زوزو أيضاً على شوشو ماسمعته من الحوار بين سميحة والدكتور محمود، وكانت زوزو تراهما من الحديقة وهما لا يريانها لأن الشجرة تحجبها، وروت لها ماتذكر من كلام سميحة وما قالته فى أختها شوشو.

فسألتها شوشو: «وماذا قال الدكتور لها؟».

فقالت زوزو: «لم أسمع كلامه ياخالتى ولكن خالتى سميحة كانت محتدة فى ردها عليه. لا لم يكن كلامها يعجب الدكتور ومن الذى يعجبه هذا الكلام، إنه عيب أليس كذلك؟».

وقبلتها بين عينيها ثم مضت فى روايتها فحكت لها أن أباها أخرج من جيب الدكتور محمود علبة كبيرة فيها حلقان من الذهب لهما فصوص من اللؤلؤ، وضحكت زوزو وقالت: «كان بابا يحسب فى جيبه فحم كوك!».

ثم دنت منها حتى صار فمها على أذنها وتلفتت أولا ثم قالت:

«أقول لك ياخالتى؟ بس اوعى تقولى إنى أنا اللى قلت؟ هيه! بالك الدكتور كان جاى ليه فى اسكندرية؟ — (وخفضت صوتها جداً) بس اوعى تقولى (وألصقت فمها بأذنها) كان جاى يخطبك وبابا قال له روح ارمى نفسك فى البحر».

وبديهى بعد الذى أطلعتها عليه زوزو، أن تضطرب شوشو حين يجىء الدكتور، وأن يدور فى نفسها ماكان من مغازلته لها قديماً، وأن تسر وتدهش وتحزن فى آن معاً، وأن تتوالى أمام عينيها صفحات حياتها، بكل ماحفلت به وما انتهت إليه، وأن تتوجع لصمت إبرهيم الذى أعياها تأويله

إلا على أنه قد غادر الأقصر ، وذهب إلى مكان آخر ، وأن تسأل نفسها فيم يجيء الدكتور ولا مريض هناك ؟ وهذا الدكتور مسكين أيضاً ، هواه لا سبيل إليه كهواها ، وقد احتمل الصدمة فى صبر وأخفى الجرح الدامى الذى فى صدره ، وعاد يمشى بين الناس كأنه سليم معافى ، وكأن دم القلب لا ينزف . فليست وحدها فى محنتها ! وأحست شوشو بالعطف على الدكتور ، وشعرت كأن ما أصابه قد اختصر المسافة بينهما وأدناهما وجعل من الممكن أن يتصادقا وإن كان عسيراً أن يتحابا ، أو على الأقل أن تحبه هى ، وهو لاشك يعذرها . . . يعذرها ؟ ولكن هل هو يعرف ؟ أتراه قد علم أنها تحب إبرهيم وأن إبرهيم يحبها وقد خطبها وأبتها أختها عليه بدس سميحة ؟ الأرجح أنه عالم بذلك كله ، فما يعقل أن يصده الشيخ على من غير أن يطلعه على السبب . ولكن الشيخ على ربما كان قد اكتفى بمثل عذر نجية — بأن شوشو هى الصغرى وأن سميحة أولى بالتقديم . غير أن هذا عذر لا ينهض ولا يقنع الدكتور الذى لعله يجهل أن الشيخ على عجز عن تذليله . . .

ولم يدعها أحد إلى مقابلة الدكتور ، ولم تنزل هى إليه ، فقد كان الوقت نهاراً ، والشيخ على فى السلاملك ، ومعه رجال كثيرون وحسبها هذا عذرا ، وبقيت طول النهار وحدها لا أنيس لها إلا الخادمات تراقبهن وهن يقمن بواجباتهن المنزلية وتتلقى أوامر الشيخ على من حين إلى حين بواسطة زوزو ، وكانت شوشو ربما تمنت أن يصعد إليها الدكتور لتراه ولتقرأ فى وجهه مافعلت الصدمة فى نفسه ، ولكن علمها بما أفضت إليها به زوزو كان يجعلها تخجل حتى أن تتصور أنه سيصعد للسلام عليها ، فيحمر وجهها ثم يعود فيمتقع .

وجاء الليل فلصقت زوزو بشوشو أمام الموقد ، ثم رفعت إليها وجهها الصغير وقالت :

— خالتى !

— نعم .

— خالى إبرهيم . . .

فانتفضت شوشو وقاطعتها ، صائحة بها .

— أين هو ؟ هل عاد ؟ أهو هنا ؟ هل تعلمين شيئاً ؟

فضحكت زوزو وقالت :

— دعينى أتكلم ؟ ماهذه الأسئلة كلها ؟

فكبحت شوشو نفسها بجهد واضح وإن كان صدرها قد ظل يعلو ويهبط كالبحر وانتظرت فقالت زوزو :

— هنا ؟ لا لا ! سيكلمه الدكتور الليلة .

فلم تفهم شوشو وقالت :

— يكلمه كيف ؟ وأين ؟ وهل عاد حتى يكلمه ؟

فقالت زوزو وهى تضحك مرة أخرى :

— أوه ! ألا تصبرين يا خالتى ؟ كلا لم يعد — الدكتور سيكلمه فى التليفون : اتفق بابا معه على ذلك .

فسألتها شوشو :

— فى أى شىء يكلمه ؟ ولماذا لا يكلمه بابا ؟

فهزت زوزو رأسها وقالت :

— وهل أنا أعرف ؟ اسألى بابا .

— اسأل بابا ؟ ؟

فقالت زوزو بخبث :

— آه ! اسأليه . لم لا ؟

فأغضت شوشو عن هذا وقالت :

— ولكن لماذا يكلمه فى التليفون ؟ ألم يكن خيراً من ذلك أن يكتب له خطابا ؟

فقالت زوزو :

— خطاب إيه ؟ وهل هو يرد على الخطابات ؟ ؟ لقد سمعت بابا يقول إنه بعث إليه بثلاثة خطابات وبتلغراف ولم يتلق أى رد ، ويقول ، بابا إن الأوفق أن يتكلم الدكتور بالتليفون ليعرف هل هو فى الأقصر أو سافر .

إذن ابرهيم لا يرد على أحد ـ لا عليها ولا على سواها . وما أطيب قلب الشيخ على الذى لا يزال معنيا بها ؟؟ وما أقساه حين يكلف الدكتور أن يقوم هو بهذا العبء ؟؟ لاشك أن الدكتور يجهل ما كان .

وانتفضت شوشو وقد خطر لها أن إبرهيم فى الأقصر وأنه يهمل الرد على هذه الخطابات عامداً . . من فرط مرارة نفسه . وعناده . . وكبره .

وسقطت من عينها دمعة على خد زوزو النائمة على حجرها فهبت تقول

— خالتى !

— نعم .

ومسحت لها دمعها ولم تتكلما .

الفصل الثامن

(ما اسمه واسم ابنه إن عرفته)

— ١ —

عاد إبرهيم وليلى مساء من الكرنك فى مركبة الفندق الضخمة فلما دارت ووقفت أمام السلم استغرب إبرهيم من نفسه أنه لا يكاد يعبأ بذلك وأنه لا يحس القدرة على الترجل والنزول وكأنما وطن نفسه على البقاء فيها فاضطجع وأغمض عينيه .

فالتفتت إليه ليلى وسألته :

— ألا تنزل ؟ مالك ؟ .

وأحس هو فى هذه اللحظة أن الدمع سيطفر من عينه ، وسرت فى بدنه رعدة ، فانتفض وزرر الجاكتة ، وتلفت حوله كأنما يبحث عن معطف ، ولم يكن الجو بارداً ، وأنكر من نفسه هذا الضعف الذى استولى عليه لغير سبب ظاهر ، فقد كانت صحته حسنة ، وكان يجد مع الصحة القدرة على امتلاك النفس وضبطها وحكمها ، فلماذا يحس بالحاجة إلى البكاء ؟ ماهذا الذى يأخذ بمخنقه ؟ مالصوته يتهدج ؟ ماله يحس كأن عمره قد زاد بغتة عشرين سنة ؟

ولحت ليلى هذا التغير المفاجىء الذى نم عليه امتقاع لونه وتهضم وجهه وذبول جفنه وفتور نظرته ، فأعانته على النزول ، وألهمت أن تدعه وشأنه وأن لا تثقل عليه بالكلام ، وأن تتركه يستعيد حالته الطبيعية على مهل ، فقد

خطر لها أن لما بدا عليه سبباً متعلقاً بماضيه الذى تجهله ، وأشاحت بوجهها عنه وهى تصعد معه وإن كانت قد ظلت تراقبه خلسة من حيث لا يشعر ، وكان هو يجاهد أن يسترد ظاهر السا كن وابتسامته الساخرة ، وبعد لأى ما استطاع أن يتكلف مايشبه المألوف منه .

وصعد السلم بمشقة واضحة ، وكانت رجلاه كأنهما مثقلتان بالحديد ، وأحس القرة فى عظامه ، وابتردت كفاه فنفخ فيهما ، ودخلا « الصالون » وهى إلى جانبه ترعاه بنظرها ، ويحنو عليه قلبها ، وتكاد تحوطه بذراعها من فرط إشفاقها عليه ، وقد أدركت أن علة ماطرأ عليه ، برد أصابه أو نحو ذلك ، وجلسا ، وطلب هو كأساً من الكونياك ثم أخرى وثالثة ، وشعر بالدفء فانبسطت أسارير وجهه .

وقال فجأة وبغير مناسبة ظاهرة :

— لست أشاطرك حبك للمطر . كلا ، أحب شىء إلى أن أستلق على ظهرى وأن أنسى . . .

فسرها أنه عاد يتكلم وأن أول كلامه إشارة إلى أول لقاء وإن لم تدر بماذا تجيب فقالت :

— أعرف ذلك . . أعنى منك . . ولكن ما أكثر ما تمنيت أن أكون فى قافلة . . . حبى للمطر لا يمنعنى أن أشتهى ذلك . . . قافلة من الجمال فى الصحراء . . أصوات الليل لابد أن تكون بديعة .

فسكت قليلا كأنما يفكر ثم قال كالذى يحدث نفسه .

— إن الذى يفعله المرء ليس مهماً وإنما المهم أن يستطيع تسويغه .

فلم تفهم ليلى ولم تر أى علاقة قريبة أو بعيدة لهذه الملاحظة بما قالته ، وازداد ذهوله ، وتكرر منه الكلام الذى يشبه مناجاة النفس ، فنصحت له بأن يذهب إلى غرفته ويستريح ، ورافقته إليها ودخلتها معه وحتمت عليه

أن يتناول قرصاً من « الأسبرين » وتركته لتأمر له بالشاى بينما يكون هو قد خلع ثيابه ورقد فى سريره .

* * *

رقد إبرهيم وهو يسعل قليلا وينكر من نفسه هذا السعال الذى لم يعانه من قبل على إفراطه فى التدخين ، وأحس وهو مستلق بألم فى عظام صدره وبصعوبة فى التنفس وبرعدة تعاوده ، ولكنه عزا هذا كله إلى البرد والتعب ولم يعره اهتماماً وشرع يتسلى بالتفكير ، غير أن ذهنه كان يأبى أن يخضع لإرادته ، وكانت الخواطر تمر برأسه بلا نظام ويقع بعضها فوق بعض كأنها الجيش المنهزم .

ودخل الخادم يحمل أدوات الشاى لاثنين ووضعها على منضدة صغيرة أدناها من السرير ثم خرج من غير أن يتكلم كأنما لم يكن فى الغرفة أحد .

وكان إبرهيم أثناء ذلك لا ينظر إلى الخادم بل إلى السقف كأنما يفتنه منه شىء ، ولكنه قال لنفسه « إن الخجل من أن أكون مريضاً فى الأقصر - وفى فندق أيضاً - هو الذى جعلنى أتقى النظر إلى الخادم . أليس عاراً أن يصيبنى برد فى الأقصر ، فى هذا الجو الذى يستشفى به الناس ؟ وليت من يدرينى كيف أصابنى ؟ »

وسعل ، وشعر بأن التنفس يوشك أن يصير عملا متعباً ، فانصرف عن التفكير ونسى معرة المرض فى الأقصر ، ليتفرغ لهذا الجهد الجديد الذى يفرضه واجب التنفس ، وأحس بكسل عن الشاى وبفتور عام فأغمض عينيه ومضى يعالج أن يتنفس بانتظام وهدوء .

ولم يشعر بليلى لما دخلت ، وإنما انتبه على يدها تجس يده فقال وهو يتكلف الإبتسام :

— أوه أنت هنا . لم أشعر بك .

فابتسمت له ولم تقل شيئاً بل دست فى فمه ميزان الحرارة وقعدت على السرير عند قدميه ، ثم مضت بالميزان إلى الشباك ووقفت هنيهة تتأمله ثم نفضته ليسقط الزئبق ، وقالت :

— لا شيء يستحق الذكر . . نصف درجة بل أقل .. أربعة خطوط ... والآن فلنشرب الشاى .

ورفعته فى رفق كأنما كان وليداً ، وسوت له الوسائد ليتسنى له أن يضطجع وهو قاعد ، فبدأ يخالجه الشك فى صحة ما أنبأته به عن درجة حرارته وقال لها :

— فيم كل هذا إذا كانت المسألة أربعة خطوط ؟

فابتسمت وزحفت إليه وقالت وهى تناوله ميزان الحرارة .

— إذا كنت لا تصدقنى فما عليك إلا أن تعيد الميزان إلى فمك ثم تقرأه بنفسك . . . هذا هو .

فخجل وقال :

— معذرة ، إن هذا ذنب الحمير .

قالت « الحمير ! »

قال « نعم . حمير الأقصر . ليس فى رأسى غيرها .

فقالت « لست أفهم » . . »

قال « لك العذر ولكن الواقع أن أبرز الخواطر فى رأسى وألحها على منذ دخلت هذه الغرفة ، كثرة الحمير فى الأقصر . . .

. . . أحسب الأقصر قد أعدتنى بحميرها ! فقد صارت الحمير هى كل ما فى رأسى .

فسر ليلى أنه يمزح ، ولم تكن تعلم أنه جاد ، واطمأنت إلى أن مابه ليس

أكثر من برد بسيط تزيله الراحة والدفء.

ونقر الخادم على الباب، فأذنت له ليلى فدخل يحمل بضع زجاجات ووقف ينتظر ما تأمر به.

فنظر إبرهيم من الخادم إلى ليلى مستغربا وقال:

— ما هذه الزجاجات كلها؟ ليست بنبيذ أو شمبانيا؟

فضحكت وقالت:

— كلا! ماء ساخن للتدفئة.

وأومأت إلى الخادم فوضع اثنتين إلى جنبيه وثالثة بين فخذيه والرابعة إلى قدميه ودس أطراف الغطاء تحتها لتثبت ثم خرج.

فقال إبرهيم:

— ما أسرع ماصرت ممرضة! من أى مستشفى جئت؟

فضحكت وقالت وهى ترفعه لتعد الوسائد لنومه:

— والآن ينبغى أن تنام.

فقال وهو يطيعها «ليس ينقصك إلا أن تقضى الليل إلى جانبى على هذا الكرسى.. ولكن كيف أنام من العشاء؟ أدجاجة تحسبينى؟

فقالت «عالج. إن بك حاجة إلى النوم. أما أنا فسأتركك برهة لأعطيك فرصة»

فعجب وسألها: «برهة؟ هل تعنين أنك راجعة؟»

فحنت عليه وطبعت على جبينه قبلة وقالت:

— نعم.

* * *

ولكنها لم تعد إلا بعد ساعة، ذلك أن انتقالها إلى الغرفة المجاورة لغرفته

استغرق من الوقت واستدعى من الأخذ والرد أكثر مما كانت تتوقع. وكان الباب الذى بين الغرفتين موصداً والمقتاح ليس فيه ، فاحتاج الأمر إلى البحث عنه ، يضاف إلى ذلك أن أشياءها كانت مبعثرة فاضطرت أن تقضى زمناً فى ترتيبها فى الحقائب قبل نقلها . ولم تشأ أن تجلس وحدها إلى المائدة فى حجرة الطعام لئلا يثير ذلك لغطاً لاضرورة إليه ، فأوصت بأن يرسل إليها فى غرفتها الجديدة ، وأن يعد لإبراهيم مرق يرسل مع طعامها ليصيب منه فى الليل إذا أحس بالجوع . وأمرت بأن لا يزعجه أحد فى أى حال من الأحوال ، ثم مضت إلى الغرفة وفتحت الباب المتوسط ودخلت على أطراف أصابعها فألفته نائماً . وأشعلت فى غرفتها سيجارة وراحت تفكر ماذا يكون العمل إذا اشتدت عليه وطأة المرض ؟ إن البوادر ليست حسنة لأن درجة الحرارة تسع وثلاثون لانصف درجة كما كذبت عليه ، ولم تشأ أن تدعو الطبيب حتى لاتزعجه . ولكنها ستضطر إلى ذلك فى الصباح إذا لم يتحسن . ولن تنقصه العناية والحدب ، فإنها قائمة بخدمته ساهرة عليه ولو احتاج الأمر إلى دمها لبذلته له راضية مسرورة . ولكنها على كل مابينهما من الحب والمخالطة لم يخطر لها يوماً أن تعرف عنه أكثر مما عرفت أول يوم . أكثر من اسمه ! وهو أيضاً لم يعن بأن يسألها شيئاً ، وقد قنع كلاهما بصاحبه واستغنى عن كل سؤال ، وقد كان هذا حسناً ولذيذاً إلى الآن . غير أن المسألة تغير وجهها فصار لامفر من أن تعرف بعض ماتجهل.

ولما وصلت فى تفكيرها إلى هذا الحد ، انتفضت كالمحمومة فنهضت وهى تقول :

— كلا كلا ! إنه بخير ، بخير ، ولن أسأل عن شىء ! يالله ! لماذا تغزو رأسى هذه الخواطر المزعجة ؟ كيف يطاوعنى قلبى أن أتصوره بسوء ؟ لا لا لا ! هذا محال ، محال محال .

وانكفأت على السرير ودفنت وجهها فيه ويداها ممدودتان عليه ، وجاهدت مستميتة أن تنفي من رأسها كل خوف وأن تفرغ على نفسها السكينة وترد إلى قلبها الطمأنينة ، ولكنها عبثاً كانت تحاول ذلك ، فقد ظل الحب المستغرق ، يوسوس لها بالخوف ويجسم الأمر فلم تطق صبراً ، وعادت إلى إبرهيم تنظر وكان لا يزال نائماً ، ولكن ابتسامة كانت على شفتيه ، كأنما سره في منامه حلم ، فنازعتها نفسها أن تقبله غير أنها كبحت رغبتها بجهد مخافة أن توقظه ورجعت .

وهكذا انقضى الليل في وساوس وهواجس ، تتخللها إغفاءات قصيرة وأصبح الصباح ولم تذق طعاماً ، ولا نوماً هنيا .

— ٢ —

لم يتغير جو الغرفة وإن كان إبرهيم قد أصبح أسوأ حالا مما بات ، على أنه سرعان ما وطن نفسه على المرض وراض نفسه على احتمال متاعبه ومقتضياته ، وكف عن المكابرة من غير أن يفقد سكينة نفسه ، وكان التنفس سريعاً شاقاً والسعال قد صار أسوأ والألم في جنبه أحد ، ولكنه مع ذلك كان يبتسم للطبيب الذي دعته ليلي ويسأل ، وكان الأمر يعني إنساناً غيره :

— والآن يا دكتور ألا تحدثني عن هذه البنيمونيا ؟ إن اسمها لا ينقل لي أي معنى ولا يحدث في ذهني أي صورة ، وأحسب أن من حقي أن أعرف شيئاً عن عدوي الذي يهاجمني إذا كان يراد مني أن أقاومه .

وكان صوته ذير ضعيف ، ولكن الألفاظ كانت تخرج متقطعة فقال الطبيب :

— لا صعوبة في إفهامك ما هي . الرئتان مكتظتان بالدم — على الأقل واحدة منهما عندك ، والهواء مضطر أن يخلي المكان للدم ، فالرئة لذلك لا تكاد تعمل ، ومعنى هذا أن واجب الرئة الأخرى مضاعف ، وعلى

القلب يقع عبء هذا الإجهاد . أظن هذا كل ما هناك ،

فقال إبرهيم وهو ينظر إلى السقف ويرسم بخياله عليه صورة قلبه المكدود ورئتيه اللتين تهيب إحداهما بالأخرى أن تبذل أقصى ما فى طوقها لإمداد صاحبهما بما يحتاج إليه من الأوكسيجين وقال :

— إن هذا ممتع جداً ولا شك .

فسأله الطبيب وهو لا يكاد يفهم :

— ممتع ؟ كيف .

وقال لنفسه : «إن البنيمونيا هى البنيمونيا ، وكل شىء فيها إلا الإمتاع »

فسأله ابرهيم :

— وما هو العلاج ؟ اذكره لى بدقة . فإنك كلما زدتنى بياناً كان ذلك أعون لى على مساعدتك . ألا تريد أن أساعدك على العلاج ؟ » .

فابتسمت ليلى كأنما تباهى بعليلها وقال الدكتور :

— ليس شيئاً كثيراً : مسكن فى الليل ، وآخر لمساعدة القلب ، وقليل من الكونياك كل بضع ساعات ، ولزقة لتخفيف الالتهاب وتهوين الألم الذى فى جنبك . وأهم من هذا كله أن تكف عن الكلام ، فإن الحرارة عالية والكلام يضرك ولا ينفعك .

فقال إبرهيم :

— لاتخف . ولكن الأمر فيما أرى يحتاج إلى ممرضة فهل من سبيل إلى واحدة فى الأقصر؟ .

فتدخلت ليلى وقالت للطبيب .

« لاداعى لهذا — اليوم على الأقل ، وعسى أن لانحتاج غداً إلى شىء » فإنه كما ترى مريض لايتعب » .

فابتسم إبرهيم وقال :

« مهلا ! سترين كيف أتعبك ! فلا تكونى واثقة جداً ! » .

وأحس إبراهيم وهو يقول ذلك كأنه انتقل إلى عالم جديد لا تبالى فيه المرأة أن تضيف إلى ليلتها الساهرة، ثانية وثالثة إذا احتاج الأمر، غير عابئة بأنها تقضى نهارها وليلها مع مريض مقضى عليه بالصمت . أهو الحب الذى يقويها ويشد أعصابها ؟ وطافت برأسه صورة شوشو وتمنى لو أنها إلى جانبه ترعاه وتحنو عليه وتغمره بطهارة نفسها — وابنه ؟ ابنه ؟ هل كتب عليه .؟ وكبح نفسه متشجعاً متصبراً ، وأراد أن يتكلف البشر ويتصنع الاطمئنان كما فعل وهو يحادث الطبيب . ولكنه هز رأسه متأففاً ومط فمه مستنكفاً . فإن التكلف لا يكون بين المرء ونفسه . ومن عسى أن يخدع ؟ إنه مريض طريح . وليس فى بدنه ذرة من الصحة . كل من حوله أصحاء إلا هو فإنه أسير المرض . . . هو وحده الذى يحمل عار هذا . . . وسيقول كل من يسمع بمرضه سيقول « مسكين مسكين ! » حتى نجية إذا اتصل بها الخبر ستقول إنه مسكين . وسيدركها العطف عليه ، لقد أرادت أن تحطم له قلبه وأن تقصف له ضلوعه ولم تعبأ بذلك ولم تبال ماتهدى إليه من آلام العمر كله . ولم تحس أنها صنعت أو يمكن أن تصنع سوءاً . ولكن قلبها سيتفطر إذا علمت أنه مريض وأنه مصاب ولو بزكام ! أليس هذا عجيباً ؟؟ بل سميحة أيضاً ! سميحة التى لا شك أنها تبغضه ستتألم مخلصة . نعم مخلصة . ما فى هذا ريب . . . وإن كانت هى التى جنت عليه وعلى شوشو . . . إذن سيعطف عليه الناس ؟ ألا إنه لمسكين حقاً ! وعز عليه أن يكون موضع عطف أحد من الناس — قريباً كان أو غير قريب — وأنف أن يرثى له أحد . واستكبر أن يكون ذكره مقروناً بالشفقة عليه فإن العطف يضع المرء فى منزلة دون الناس فبأى حق يعطفون عليه ؟ ما شأنهم هم ؟ ليكن مريضاً وليكن مشفياً على الموت

أيضاً فإن هذا أمر لا يعني أحداً سواه ! وأقسم في سره لئن كان لابد من الموت ليفعلن . . .

ولكن ما الداعي إلى التفكير في الموت ؟ ألم يقل له الطبيب :

« إني أهنئك مع ذلك . فإنك مصاب بأهون أنواع البنيمونيا لا بذلك الطراز الحديث منها الذي نسميه « برونكو — بنيمونيا » وهو ضرب لا نعرف أين نحن منه لأن الحالة لا تكاد تتحسن في موضع حتى تسوء في موضع آخر : أما « اللوبار بنيمونيا » فأبسط . تبدأ بسرعة ويطرد الأمر فيها إلى الأزمة بغير تقلب وبدون محاورة ، وقد تستمر ثمانية أيام أو عشرة ، والمهم هو الأوكسجين والنشاط ، الحيوية على الخصوص . الإرادة . فلا تنفق حيويتك في شيء آخر . ولا تبعثر إرادتك وقوتك ونشاطك . وسنعطيك كل ما من شأنه أن يزيد حيويتك أو على الأصح يحفظها ويدخرها . ولكنك أنت العامل الأكبر في الشفاء فلا تقلق ولا تنزعج لأن الانزعاج يضعف الحيوية » .

ولم يعجب إبرهيم هذا الكلام ، ولم يرقه أن يكون هو العامل الأكبر في الشفاء ، وود لو أن الطبيب اعتمد على عنصر أجنبي عن نفس المريض ، عنصر لا يتأثر بخوالج النفس وعواطفها وما تجيش به من الذكر والآمال ، وجعل وهو ينظر إلى السقف ينحى على الطبيب ويتهمه ويظلمه ، وكان واثقاً وهو يفعل ذلك أنه ظالم له ، ولكنه شعر أن الظلم لذيذ ، وقال لنفسه إن هذا الطبيب قوى صحيح ففي وسعه أن يحتمل مقداراً عظيما من الظلم من غير أن يضيره ذلك .

وقال لليلى ، وهو ناظر إلى السقف ، كأنما يخجل أن ينظر إليها وهو مريض :

— ألا تظنين أن الأوفق أن تطلبي ممرضة لتساعدك ؟ .

فقالت وهي تدنو منه وتمسح له فمه بالمنديل :

— غداً نرى . لاداعى لذلك اليوم ، وقد وافقنى الدكتور ، وفى هذا ما يطمئن . ولذلك أصر على الإرجاء .

فسره تعلقها بما يطمئن ، ولكن الحاجة إلى الاطمئنان معناها أن هناك داعياً إلى القلق ، فلم يرتح إلى هذا الخاطر . وذهب من أجل ذلك يلح عليها ويقول :

— أنا أرى أنه لابد من ممرضة . إن المريض يجعل الغرفة كالسفينة الجارية . أعنى أن آلاتها لا بد أن تظل دائرة ليلا ونهاراً ، بلا توقف ، والليل والنهار ليسا فى البحر سوى اسمين .

وابتسم لنفسه وقد أعجبه هذا التشبيه ، وخيل إليه أن تشبيهه هذا جعل مرضه يبدو طبيعياً . وذهب يفكر فى غرفته كأنها سفينة ، ولكن ليلى أصرت فكف عن الكلام وأغمض عينيه وقد أسخطه على نفسه أنه أظهر ضعفاً بإلحاحه على ليلى أن تدعو ممرضة . ونسى أنه تعهد للطبيب أن يساعد نفسه ، وهاهو الآن يبدو لليلى جباناً خواراً ويفضح نفسه أمامها ! ولماذا؟ هل كل من يصاب بهذا المرض يموت ؟ كلا ؟ فلماذا يخشى هو أن يموت ؟ وهبه مات فماذا إذن ؟ إنه سيلقى أجله على كل حال ، فما الداعى إلى هذا الوجل السخيف ، أى معنى لهذا القلق المزرى ؟ وعلى أنه سيشفى لا محاله . نعم فإن أكبر عامل فى الشفاء هو المريض نفسه . ولو أن الشيخ على مكانه لتغلب على المرض بقوة الإرادة — إرادة الفوز . ولو أن أمه هو كانت هى المريضة لغلبت المرض بقدرتها المدهشة على الاستخفاف به، أو إذا شئت فقل بعجزها عن إدراك حقيقته ومدى خطورته ـ لا بل بقوة الاستخفاف ، بالاستهانة ، بالإيمان القوى الذى يجعل النفس تتلقى كل ما يصيبها باطمئنان وابتسام وقلة مبالاة بما يكون ، وبثقة بأن المصير خير على التحقيق ، وأنه لا موجب للاكتراث .

وسكنت نفسه وهو يتصور أمه تبتسم للموت وتهش لاستقباله وتهز كتفها استخفافا به وفرحاً بما بعده من جنة الله ورضوانه، وأحس بأنه قد صار أهلا لأن يكون ابنها، وخلصت أنفاسه، وخف الألم الذى فى جنبه، وارتاح وهو يشعر بما أحدثته فضيلة الإرادة، وبنجاحه فى تغليب العقل على الجسم وتحكيم الروح فى البدن فقد كانت فكرة واحدة كافية للتأثير فى أنسجته بل فى عضلات قلبه.

وقال وهو يبتسم.

— إنى الآن أحسن ... لقد أفادتنى ! »

فقالت ليلى وهى تحنو عليه :

— ماذا ؟ ماالذى أفادك ؟ .

فقال من غير أن يحول عينه عن السقف .

— أمى !.

— ٣ —

من الممكن أن يغتفر القارىء لليلى أنها فتحت عدة خطابات باسم إبرهيم واطلعت على مافيها . ولاشك أن هذا غير جائز ولكنه لاشك أيضاً أنها ألفت نفسها مرغمة على ذلك فقدكان إبرهيم لانائماً ولا مستيقظاً، ولم يكن فى وسع أحد وهو ينظر إليه أن يعلم أيهما هو، أما الواقع فذاك أنه كان بين اليقظة والمنام — يهذى، وكان يحلم بشوشو ويرى نفسه فى بيته مع أمه وابنه، وكانت شوشو تتراءى له فى حلمه كأنها سيدة البيت، وسره هذا الحلم فراح يعجب لماذا لم يخطر له أن يرى هذا الحلم من قبل ؟ وكانت شوشو تبدو له رائعة بينة العطف بارعة فى إدارة البيت كفؤا لمطالبه، وكان هو يحس أن مجرد وجودها شفاء، وأن نظراتها سماوية وأن حركاتها تفتر أعضاءه وترخى جفونه وتشعره السعادة، وأن كل امرىء يعبدها ويستوحيها ويستمد منها الهداية والإرشاد.

وتعلق إبرهيم بهذا الحلم وصار يتشبث بصوره ويسحر نفسه بمناظره . وكانت أنفاسه كأنما تعالج الخلاص من شرك وكانت مناظر هذا الحلم تروح وتجيء بين خيوط هذا الشرك فالأمر مختلط ولكنه على هذا لذيذ .

ولم يكن يدرى أن ليلى واقفة إلى جانبه تنظر إلى وجهه وتلاحظه وهو يربدّ ثم يصفو ، وتسمعه وهو يناجى شوشو . ولا كانت هى تدرى من عسى أن تكون شوشو هذه التى يذكرها فى منامه . وقد حسبتها — ولها العذر — أختاً له وإن كانت الغيرة قد همست فى أذنها أنها لعلها زوجة أو حبيبة . ولكنها لم تسمع إبرهيم قط يذكر أحداً من أهله أو أقربائه . وأغرب من ذلك أنها كانت تراه يتلقى الخطابات فينظر إلى الظروف ثم يدسها فى جيبه من غير أن يفتحها ، وكان هذا يسر ليلى منه لأنها اتخذته دليلا على أنه لايريد أن يشغل نفسه عنها حتى ولا بخطاب . فلو أن له زوجة أو حبيبة لدفعه الشعور بالواجب أو الحب إلى قراءة هذه الكتب ولما وسعه فى كل مرة أن يصبر حتى يخلو بنفسه ، وكيف يمكن أن تكون له حبيبة أخرى ؟؟ ألم يهبها نفسه كما وهبته نفسها ؟ ألم يقطعها قلبه كله ؟ أكان من المستطاع أن لايزل لسانه أوتشى حركة واحدة بأن له سواها ؟ كلا !

وصرفها طول هذيانه ، وهى إلى جانبه ، عن هذه الخواطر الشخصية ، فعادت تفكر فيه هو وفى واجبها حياله . فلم يبق عندها شك فى أن واجبها الأول أن تتصل بأهله إذا كان له أهل ، وصحيح أن الطبيب قد طمأنها قليلا ولكنه لم يستطيع أن ينفى مخاوفها كلها ، وقد علمت منه أنه لا يزال أمامه بضعة أيام قد تكون خمسة وقد تزيد ، قبل الأزمة ، ولاسبيل إلى الجزم بشىء قبل ذلك ، وإن كانت الحالة العامة ، وحالة القلب على الخصوص ، لا تدعوان إلى القلق .

ومن غير المعقول أن تسأل إبرهيم عن أهله وهو يكابد كرب هذا

المرض ، فإن مجرد السؤال قد يضعف حالته النفسية ويوقع فى روعه أن صحته ساءت وأنه فى خطر ، فالطريقة الوحيدة للعلم بما تجهل أن تبحث بين أوراقه لعلها تهتدى إلى شيء .

ولم يكن أسهل من ذلك لأنها تتولى كل ما تقوم به الممرضة والأهل ، تعاونها فى ذلك إحدى خادمات الفندق كلما هد السهر قوتها ، فهى التى تسقيه الدواء وتقدم له الغذاء المسموح به وتغير له ثيابه ، وتفعل غير ذلك كل ما يحتاج إليه ، ولا تكل أمره للخادمة إلا بضع ساعات فى الليل تنامها فى غرفتها المجاورة له ، وقد استغربت وهى تبحث فى حقائبه أن ترى كل الرسائل غير مفضوضة ، وزاد عجبها أنهـا جميعاً موضوعة فى ظرف كبير أصفر، فليس عدم قراءتها براجع إلى نسيان ، فإن آية العمد هنا لا خفاء بها، ولا بد أن يكون لذلك سر ، واحمر وجهها وهى تقول لنفسهـا وفى يدها الرسائل ، أترى لشوشو التى يهذى بها علاقة بهذا السر ؟ ؟

وننصف ليلى فنقول إنها طردت هذا الخاطر وهى تمضى إلى غرفتهـا بالرسائل ، وآلت أن لا تقرأ منها إلا بقدر ما تتطلب الضرورة ، ولكنها لم تكد تفض واحدة حتى ألفت نفسها تسترسل فى القراءة وقد ذهلت عن كل شيء — حتى عن مريضها — إلا سطور الشكوى المرة والفجيعة القاسية التى ينطق بها كل حرف مما كتبت شوشو فى رسائلها التى لم تتلق عليها ردا ، وننصف ليلى مرة أخرى فنقول إنها لم تشعر بذرة من الغيرة ، كلا ، ولا بشيء من الشماتة أو السرور الذى كان خليقاً أن يفيدها أياه علمها ـ الناقص ـ أن إبرهيم لا يجازى شوشو حبا بحب ، بل إنه لا يعنى لسبب ما حتى بقراءة رسائلها ، ومن أين لها أن تعلم أن حب إبرهيم لشوشو دفين فى صدره وان البركان كأحر مايكون وإن كانت فوهته لا تقذف بالحمم ؟؟ وإنما الذى شاع فى نفس ليلى هو العطف على شوشو ، عطف هو من كرم النفس لا من

الشماتة المتنكرة ، حتى لقد بكت عيناها وهى تتصور الهول الذى تقاسيه شوشو والذى تنم عليه رسائلها .

وأضحكتها رسالة الشيخ على ـ أضحكتها عباراتها وإن كانت مع ذلك قد كشفت لها عن جانب العناد والصلابة من نفس إبرهيم ، وأرتها مبلغ ما فطرت عليه هذه النفس من الوعورة ، فلم يلبث ابتسامها أن غاض ، فذهبت تفكر فيما تدل عليه هذه الرسالة العجيبة . ولم يخالجها شك فى أن إبرهيم يطوى بين أضلاعه حكاية غريبة الأطوار .

ولكن اطلاعها على هذه الرسائل لم يفدها شيئاً ولم يدنها من حل المشكل وكل ماعرفته أن هناك فتاة أو امرأة — فتاة على الأرجح فإن الجرح جديد ـ تحب إبرهيم ، وأن أهلها واقفون فى سبيلها ، وأنها فى جحيم من العذاب والمكايدة ، وان هناك رجلا اسمه «على» ظاهر من بين السطور أن له دالة على إبرهيم وأنه يحاول أن يتألفه من نفرته ، ورسائل شوشو من الأسكندرية ورسالة « على » من بلدة اسمها « م ... » وقد تكون أولا تكون هناك علاقة تنتظم هؤلاء الثلاثة : « إبرهيم ، وعلى ، وشوشو »

وطوت الرسائل وهمت بإعادتها إلى حيث كانت وإذا بالخادم ينبهها أن إبرهيم مطلوب إلى التليفون ، فبماذا يجيب ؟

فسألته « من الذى يطلبه ؟ »

قال « أبى أن يذكر لى اسمه . ولكنه يتكلم من بلدة م ... »

فنهضت وقد طاف برأسها أن لعله « على » صاحب الرسالة وقالت :

— حسناً . سأخاطبه بالنيابة عنه.

ومضت تعدو إلى التليفون ، وكان الذى يخاطبها هو الدكتور محمود لا الشيخ على ، فعلم منها أن إبرهيم مريض وأنه مصاب بالبنيمونيا وأن له ثلاثة أمتا ، ووصفت له الحالة ونظام العلاج بأدق ماتستطيع ، ولم تستطع

هى — من ناحيتها — أن تعرف أكثر من أنه الدكتور محمود، وأنه سيكون فى الأقصر بعد غد .

ولم يسألها من هى ، ولعله ظنها ممرضة ، وكان واضحاً من لهجته ولهفته، ومن إعلانه إليها انتواءه الحضور إلى الأقصر أن له بإبرهيم صلة وثيقة ، ورجحت أن يكون من ذوى قرابته الأدنين، فعادت وهى تحس أن مسئوليتها قد خفت ، وأن لها الآن أن تطمئن من ناحية الاتصال بأهله .

الفصل السابع

(من هو جاهل فليمل إلى هنا)

نقر الخادم على باب الشيخ على ودعاه أن يوافى الدكتور محمود فى حجرة المطالعة. وكانت الساعة لم تتجاوز السابعة، فوقف يتمطى ويلعن الدكتور ويتسخط منه هذا النشاط، وكانا قد وصلا إلى الأقصر قبيل منتصف الليل، فطلب الدكتور محمود من عامل الفندق أن ينبىء « السيدة » التى تتولى أمر إبرهيم أنه قدم وأنه يريد أن يراه أول شىء فى الصباح.

ودخل الشيخ على غرفة المطالعة فلم يجد بها أحداً، وكان جائعاً وقلقاً فلم يستطع أن يستقر فى مكان، وجعل يروح ويجىء وهو يغمغم ويتمتم، وإنه لفى إحدى هذه الروحات والغدوات وظهره إلى الباب، وإذا بصوت ناعم حلو يقول :

— بونجور يا دكتور.

وذكر بالصوت صوتاً آخر يشبهه. فهم أن يلتفت إلى مصدره ولكنه تردد فإن الخطاب ليس موجهاً إليه وإن كان يعلم أن ليس فى الغرفة سواه، فهل دخل غيره وهو لا يشعر؟ وخطا خطوة وهو يتوقع أن يسمع رد الدكتور على التحية، ولكنه لم يسمع شيئاً فعجب ووقف ودار على عقبيه وإذا به يرى الفتاة التى أسمعته ما يكره فى عيادة طبيب الأسنان فى الأسكندرية، وكانت مقبلة عليه وعلى ثغرها إبتسامة وضيئة، ويدها كأنها تتهيأ للمصافحة، ولم يكد يراها حتى جمد فى مكانه وند عن صدره صوت لا يحسن وقعه فى أذن فتاة ولو كانت دميمة بغيضة. ولم تكد هى تراه حتى

كأنما صدها جدار ، وغاضت الابتسامة ، وامتقع وجهها ، وارتفعت يدها إلى خدها .

ولكن الشيخ على ضبط نفسه بسرعة فابتسم وهو يقول :

— معذرة فإنى لم أنس العلقة ، ولم أكن أتوقع أن نلتقى بهذه السرعة .

فابتسمت بجهد واضح ، وتلفتت يميناً وشمالا ، وفى عينيها كل أمارات الحيرة والتردد والدهشة ، ولحظ الشيخ على هذا ، فرده إلى ما كان بينهما من التنابذ ، وسره ارتباكها وما توهمه من خجلها لما كان من تطاولها عليه ، وأراد أن يسرى عنها فقال وهو يدنو منها :

— لا تخافى فإنى وديع كالهرة وإن كنت ضخماً كالفيل . وما تحملت مشقة السفر لآخذ بثأرى بل لأعود مريضاً . وقد كانت بيننا حرب فليكن بيننا صلح .

ولم يصدق الشيخ على أنه هو الذى قال ذلك ، ورضى عن نفسه لما قاله ، فلج فى الابتسام واجترأ فمد يده الكبيرة .

ولم يخالج ليلى شك حين سمعت هذا الكلام منه أنه هو الدكتور قريب إبرهيم ، فلم يبق لها مفر من أن تنىء إلى المحاسنة وأن ترد نفسها عما همت به من المخاشنة ، وأحست أن كونه قريب إبرهيم من شأنه أن يرفع الكلفة فناولته كفها البضة وقالت وقد عاد وجهها يرف :

— إنى مسرورة بلقائك . وأؤكد لك أن وجودك هنا من أكبر دواعى ارتياحى واطمئنانى .

وضحكت وهى تضيف إلى ذلك : « لقد صدق المثل مرة أخرى : اللى أوله خصام آخره صلح . أليس كذلك ؟ »

فدارت الأرض بالشيخ على ، ولم يعد يدرى أواقف هو على رأسه أم

على قدميه ، وشاعت السعادة فى جسمه وفشت فيه الغبطة طولا وعرضاً ، واهتز كيانه كله وهو يضغط كفها الدقيقة اللينة ويرفعها إلى شفتيه وينحنى عليها ويطبع فوقها قبلة صامتة طويلة .

فاضطرم وجه ليلى واضطربت ، وأسرعت فجذبت يدها وقد أرتج عليها فلم تعد تدرى ماذا تقول ، وأذهلها هذا السلوك الجرىء وتنازعتها عوامل شتى متضاربة ، وكبر فى ظنها أن هذا رجل مستهتر . وأرعبتها نظرته الناطقة باشتهاء المطمئن إلى تحقيق رغبته الواثق من وقوعه على فريسته .

وبينما كان الشيخ على يميل كالجبل ليلثم كف ليلى ، وعينه معانقة بعينيها وعلى وجهه آيات الافتتان ، كان الدكتور مقبلا ، فلما هم أن يدخل أخذت عينه هذا المنظر فكاد يجمد فى مكانه ، فما رأى قريبه قط فى مثل هذا الموقف ، ولا كان يجرى له فى وهم أن للشيخ على عهداً بذلك ، ومنعه احترامه لقريبه أن يقدم على مفاجأته أو يجترىء على مقاطعته ، فارتد على عقبيه وذهب من حيث جاء ، وقد نسى إبرهيم لحظة وانصرف تفكيره إلى تصابى الشيخ على ومنظره وهو كالفيل يحنو على غزال ، فضحك وقال : « ولكن من عسى أن تكون الفتاة ؟ »

وخطر له أن لعلها ممرضة ابرهيم ، فما كان يظن أن التى كلمته فى التليفون إلا ممرضة ، وله العذر ، ومن أين يعرف حقيقة الصلة التى بينها وبين إبرهيم ؟ وقال لنفسه إن هذه الفتاة لا بد أن تكون الممرضة ، فما يعقل أن يستطيع الشيخ على أن يصل بمثل هذه السرعة إلى لثم الأكف إذا كانت الفتاة أجنبية أى إحدى النازلات فى الفندق . ولكن ماذا يمنع أن تكون صاحبة له التقى بها هنا مصادفة ؟ وما دام أن الشيخ على يعرف كيف ينحنى ويقبل أيدى الغوانى فلماذا لا تكون له صلات مجهولة بنساء أخريات ؟

وحار الدكتور ماذا يصنع ، وليتصاب الشيخ على كما يشاء وليغازل من

يحب فإن هذا لا يكاد يعنيه ، وفى وسعه — أى الدكتور — أن يدعه وما اختار لنفسه ، والمهم عنده هو أن يقابل الممرضة ليعود إبرهيم من غير أن يزعجه أو يحدث له اضطرابا أو يثير فى نفسه المخاوف من جراء مرضه ، ولا بد لذلك من الاتفاق مع الممرضة قبل العيادة لتقوم بما يلزم من التمهيد ، فكيف يلقاها ؟ إن موعده معها ـ ونظر إلى ساعته فألفاها قد جاوزت الوقت الذى عينه ـ فى حجرة المطالعة . وحجرة المطالعة يشغلها هذا الدون جوان وصاحبته ، فما العمل ؟ أيبعث إليها بالخادم يدعوها ؟ إن معنى هذا يكون أنه سينيب عنه الخادم فى مفاجأة قريبه ومقاطعته إذا كانت الفتاة هى الممرضة ، وابتسم وهو يحدث نفسه بأن مقاطعة الخادم لهذا الفصل الغرامى لن يسوء وقعها فى نفس قريبه أولا ، لأن الشيخ على لن يخجل على الأرجح من خادم غريب ، وثانيا لأن الخدم ـ على الأرجح أيضاً ـ أقدر على انقاذ الموقف .

واستقر رأيه على ذلك

* * *

ولم تكن ليلى أقل اضطرابا وحيرة ، فإن عليها أن تحتمل ـ من أجل إبرهيم ـ جرأة من توهمته طبيبا وقريباً لإبرهيم ، ثم لا بد لها من صده وإلزامه حدود الأدب فملكت نفسها بجهد وقالت :

« ألا تجلس ؟ »

فمال الشيخ على إلى كرسى وانحط عليه ، وقد نسى أنه على موعد مع الدكتور محمود فى هذه الحجرة بعينها وأنه قد يدخل عليهما فى أية لحظة ، ودار فى نفسه أن ما تحدث عنه وهو يمزح من خطف هذه الفتاة التى أوجعته فى عيادة طبيب الأسنان ، يوشك أن يتحقق ، فابتسم ابتسامة عريضة وقال

— قلما تصدق الأحلام ، ولكن حلمى فى هذه المرة صادق . ولعل هذا لأنه من أحلام اليقظة .

فلم تفهم ليلى ، وخافت أن يكون هذا الكلام مقدمة لما تكره ، فقالت:

— أرجو أن تنتظر لحظة . لن أغيب طويلا . .

فنهض وهو يقول بلهفة

— ولكن لماذا تذهبين وتتركيني بهذه السرعه ؟

فعجبت لسؤاله ولكنها لم تر بأساً من الشرح فقالت :

— دقائق . فإن الواجب يقضى باتخاذ الحيطة اتقاء لعواقب المفاجأة . أليس كذلك؟

ومضت عنه وهو يقول معجباً بها:

— يا عصفورى البديعٌ !

ولما اختفت زاد على ذلك :

— لقد كدت والله آ كلك!

وراح يتمشى .

ومن عجائب النفس الإنسانية أن الحالة التى تكون مستولية عليها هى التى تكسب المعانى ألوانها ، بل هى التى تعين للألفاظ معانيها .

ولم تكد ليلى تسير خطوات حتى قابلها خادم وقال لها باحترام :

— إن الدكتور محمود ينتظرك ياسيدتى فى الصالون .

فوقفت وسألته مستغربة :

— الدكتور محمود ؟ من عسى أن يكون ؟ .

فقال الخادم:

— الذى وصل أمس ياسيدتى .

فدهشت ليلى وقالت :

ولكنى كنت معه الآن . منذ نصف ثانية ، وقد تركته هنا .

وأشارت إلى غرفة المطالعة . فقال الخادم مصرا:

— كلا يا سيدتى . إن الدكتور محمود فى الصالون وأنا آت من عنده الآن .

فتلفتت ليلى كالحائرة ثم قالت :

— إذن من الرجل الآخر الذى هنا ؟ .

فقال الخادم : « لاأدرى ياسيدتى » .

فأيقنت ليلى أنها كانت مخطئة حين توهمت أن هذا الرجل الذى كانت معه هو الدكتور ، وثارت نفسها سخطاً عليه لأنه تركها تظنه طبيباً ، وتحدثه بلا كلفة ، ومع أن الشيخ على لاذنب له فى هذا الخطأ ، ومع أنها هى المسئولة عما توهمت ، فقد راحت تنحى على الشيخ على وتتهمه وتلعنه ، وأحست أن كفها التى قبلها قد اتقدت فيها نار ، وقفلت راجعة وهى لاتعى ماتفعل ، واندفعت داخلة إلى غرفةالمطالعة، وما كادت عينها تقع عليه حتى صاحت به :

— أيها الوحش ! كيف تجرؤ ؟ .

وكان الشيخ على يبتسم حين رآها مقبلة ويهم أن يفتح لها ذراعيه ، فأحس حين سمعها كأنما وقع على يافوخه جبل . وتنكرت الابتسامة على ثغره فصار وجهه مشوهاً ، ولم يستطع أن ينطق بأكثر من « إيه ؟ » بصوت مبحوح متهدج .

فصاحت به مرة أخرى .

— وحش . نعم . وثور أيضاً . هذا أنت ويجب أن تعلمه .

ودارت خارجة وخلفته واقفاً كالتمثال .

— ٣ —

سلم الدكتور محمود على ليلى سلام طبيب على ممرضة ، بأدب وبابتسامة المتواضع ، وأشار إلى كرسى وقال بلا تمهيد :

ـــ كيف مريضك الآن ؟ .

فلم يعجبها هذا منه ، وكانت أعصابها لا تزال متوترة مما وقع بينها وبين الشيخ على ، فتجاهلت سؤاله وقالت بلهجة جافية :

ـــ لقد انتظرتك فى غرفة المطالعة . هناك كان موعدنا .

فرمى إليها الدكتور نظرة فيها من العجب والسخر معان ، وقال وفى ظنه أنه سيردها إلى مستواها الذى يجب ألا تعدوه :

ـــ معذرة . ذهبت ثم تراجعت .

وكان يحسب أن هذه الاشارة كافية ، فقالت ليلى بإلحاح ولكن بفتور

ـــ لماذا تراجعت ؟

فزاد عجب الدكتور واعتدل فى كرسيه قبل أن يجيب وقد خطر له أنه ربما كان مخطئاً ، ولعل الفتاة التى رآها مع قريبة غير هذه :

ـــ رأيت فى الغرفة ناسا .

واقتصر متردداً ، فتجهم وجهها وقالت وقد انتوت أن تعلن الحرب :

ـــ أتستطيع أن تفسر لى هذا الكلام ؟

فلفت وجهه إليها بسرعة وسألها :

ـــ أى كلام ؟

فقالت وهى تسدد إليه نظرها :

ـــ كون وجود الناس يردك عن مقابلتى ؟

ومع اعتقاده أنها ممرضة وإن كانت فى ثياب غالية ، كان فى لهجتها من العنف وفى نظرتها من القوة وفى هيئتها من السمت ما أكرهه على احترامها ، ففرك كفيه وطأطأ رأسه وهو حائر لا يفهم وقال :

ـــ أرجو المعذرة إذا كنت لم أفهم ماتقصدين إليه .

فقالت بلهجة الاصرار

— هل كان موعدنا على خلوة ؟

فرفع رأسه لجأة وقال : « سيدتى ! »

ولكنها لم تهتز وألحت عليه :

— أجب من فضلك !

فدار حتى واجهها وقال :

— أرجو المعذرة مرة أخرى ، ولكنى لا أفهم عن أى شىء تتكلمين .

فظلت ثابتة الحلاق لا تحول نظرها وهى تقول :

— أريد أن أفهم لماذا منعك وجود الناس أن تقابلنى هناك بدلا من أن تدعونى إلى هنا ؟

فأحس كأنه أمام محقق وقال متهرباً :

— هل كنت هناك ؟

فلم تدعه يتحول بها عن الميدان الذى اختارته للمنازلة وقالت :

— أجبنى أولا من فضلك .

فأطاعها وهو لا يدرى لماذا يطيعها وقال :

— أعتذر للمرة الثالثة ولكنى حين هممت بالدخول أحسست أن وجودى غير مناسب . . . أعنى . . .

فزادت شداً عليه وسألته مقاطعة :

— ماذا تعنى ؟ لماذا أحسست بهذا !

فتلعثم وقال : « ألا تعفينى يا سيدتى ؟» .

فقالت : « كلا . بل يجب أن تقول فإن الأمر يعنينى »

فرأى الدكتور فرصة سانحة للتخلص وسألها :

— هو كنت أنت الواقفة مع الشيخ على ؟

فقالت : « لا أدرى مع من كنت واقفة ، ولكن الذى أدريه أنه وحش قليل الأدب » .

فكأنما شكته بسيخ محمى فوثب إلى قدميه وهو يقول :

— سيدتى !

فقالت : « أيعنيك أمره ؟ »

فقال وهو يعود إلى الجلوس :

— إنه قريبى يا سيدتى .

فلم تنهزم وقالت :

— إن كونه قريبك لايمنع أن يكون كما أصفه ، وحشاً قليل الأدب .

فتمتم : « ولكن .. ولكن »

فقالت « قد عرفت ماذا هو فى رأيى ، وأظنك رأيت منه معى ما يكفى لاقتناعك بأنى لا أظلمه . ألست تقول إنك ارتددت فلماذا ؟ ؟ لقد تركنى أتوهم أنه هو الدكتور وأرفع الكلفة بينى وبينه من أجل إبرهيم فجراه الخطأ الذى أوقعنى فيه على تقبيل يدى ومغازلتى.والآن دعنى منه، وقل لى بماذا تشير قبل أن تعود ابرهيم ؟

ولكن الدكتور لم يستطع أن يتابعها على نقل الموضوع بهـــذه السرعة ، واستغرب أن تذكر إبرهيم باسمه مجردا من كل تلقيب ، وشك لأول مرة فى أنها ممرضة ، بل أيقن أنها ليست كذلك ، فمن عساها تكون ؟ أيسألها ؟ نعم هذا واجب اتقاء لكل سوء تفاهم يحدث بعد ذلك . فقال

— حسن ، فهل تسمحين لى بتعريفى بنفسك ؟

فقالت بفتور « أوه ! يمكنك أن تدعونى ليلى ، لا بأس » .

« لا بأس ؟ » ماذا تراها تعنى ؟ وبدأ يقول :

— هل أفهم أنك . . . .

فقاطعته قائلة « لاتفهم شيئاً من فضلك . إن مافعله قريبك يكفينى فى يومى هذا »

فعاد الدكتور يعتذر ، ونفض يده وهو يائس من محاولة الفهم ، واتفقا على أن ليلى تتولى مصارحة إبرهيم بحقيقة السبب فى حضور الدكتور والشيخ على ، وذلك لأن ليلى أصرت على أن الحقيقة أولى وأخف ضرراً ، وقامت ليلى لتمضى ما اتفقا عليه .

— ٣ —

ولم تكد تمضى حتى خف الدكتور إلى الشيخ على فى غرفة المطالعة فلم يجده ، فراح يسأل عنه ويبحث حتى وجده يتناول طعام الإفطار فقعد أمامه وقال بلا مقدمة :

— ما هذا الذى فعلته ؟

فرفع الشيخ على وجهه الكبير وقال وهو مقطب :

— أهى مطاردة ؟ أم مؤامرة ؟ كل وأنت ساكت وإلا فلست والله مسئولا عما يصيبك .

فابتسم الدكتور وقال :

— سمعاً وطاعة ، ولكنى إنما أردت أن أنبهك إلى أنها ليست مرضة.

فصاح به الشيخ على :

— أتريد أن أقطع لك لسانك بهذه السكين ؟

فضحك الدكتور وقال :

— وتأكله مسلوقاً أم محمراً ؟

فلم يجبه الشيخ على وأقبل على الطعام يلتهم منه ما لا يحسب الحاسب ، ولما فرغ اضطجع فى كرسيه وقال :

— هل عند هؤلاء الناس قهوة ؟ أعنى الكفاية من القهوة ؟

فأمر بها الدكتور ثم قال وهو ينظر إلى الساعة :

— سأدعك لأرى ماذا صنعت ليلى .

فاعتدل الشيخ على وسأله :

— ليلى ؟ من تكون هذه أيضاً ؟

فقال الدكتور وهو يرد الكرسى إلى الوراء وينهض :

— ليس المسئول بأعلم من السائل ، كل ما أعرفه أنها ليست ممرضة . وحتى هذا عرفته استنتاجا .

فعاد الشيخ على إلى الاضطجاع وقال :

— قد عرفت على الأقل اسمها . وسنرى .

فقال الدكتور وهو يبتسم :

— أرجو أن تحذر فإنها ليست فتاة عادية . ثم إننا لانعرف من أمرها شيئاً ، أعنى علاقتها بإبرهيم . إن فى المسألة ، على ما يبدو لى ، لغزاً .

فقال الشيخ على متهكما : « وأنت الذى ستحله ؟ هيه ؟ أهنئك مقدما ! »

ثم قال بلهجة الجد : « متى أرى إبرهيم ؟ إنى لم أجىء لأحل ألغازاً بل لأراه ، ومتى رأيته واطمأنت نفسى فإن الوقت يتسع لحل ألغازك . . . »

فقال الدكتور « سأخبرك بعد أن أقابل ليلى » .

فقال الشيخ على : « ما أسرع ما صرت تتكلم عنها كأنها أختك ! لا بأس ، وأنا ماذا أصنع بنفسى بين هؤلاء الناس إلى أن يجيئنى الإذن ؟ »

فقال الدكتور : « يمكنك أن تتمشى فى الحديقة قليلا ، أو تنتظر فى الصالون . إنها مسألة دقائق أو نصف ساعة . »

فنهض الشيخ على وهو يدمدم ويقول :

— أتمشى . أنتظر . أنفلق . ماذا يهم ؟ ألست وحشا ؟ ثور أنا ؟ أليس كذلك ؟ ولى خوار أيضاً ؟ هيه ؟

وخرج يدب ويرج الأرض .

الفصل العاشر

« ولا يعلم أن الاخيلة هناك وأن فى أعماق الهاوية ضيوفها »

— ١ —

— ورأيت هذا الفيل الطيب القلب ؟

وابتسم ، وبوده لو يستطيع أن يضحك ، ولكنه كان أضعف من أن يحاول ذلك أو ينجح لو أنه حاوله ، وكان — وهو ينظر إلى سقف غرفته — يتصور الشيخ على يميل على ليلى ويرفع كفها الرخصة ليقبلها فيهتز كيانه كله من فرط السرور بهذا المنظر ، وقال وهو يحول وجهه إلى ليلى :

— لو التف عليك خرطومه يا ليلى لما أفلت أبداً . أتعرفين أنه بعد أن قص علينا مافعلت به فى الأسكندرية ، أنذرنا جميعاً — ولا سيما زوجته — أن يخطفك ؟

فضحكت ليلى ، ووسعها الآن أن تضحك بعد أن روت لإبرهيم ما حدث بينها وبين الشيخ على فى الأقصر والأسكندرية جميعاً ، وعرفت ما حفل به الموقف من عناصر الخطأ المضحك وقالت :

— لقد غفرت له ، فاغفر له أنت أيضاً . . .

فقال إبرهيم مقاطعاً « ماذا ؟ »

قالت « تقبيله يدى . أتغفر هذا ؟ »

فابتسم إبرهيم وقال وكأنه لم يسمع :

— ولا يزال فيلنا هائجا ، لجهله حقيقة الموقف ، وأحسبه الآن يصب غضبه على رأس الدكتور محمود المسكين . إنى أعرف الشيخ على وأكاد

أكون على يقين مما يفعله بالدكتور الآن ..

فقالت ليلى وهى تنهض وتمسح لإبرهيم جبينه :

— يحسن إذن أن أدعوهما الآن فقد بدأت أخشى أن يحيق بالدكتور سوء .

فقال إبرهيم « لالالا . إن غضبه لا يضر أحدا . ألم أقل لك إنه فيل طيب القلب ؟ »

* * *

وقال إبرهيم وهو يمد كفه ويصافح الدكتور محمود والشيخ علي،وعلى فمه طيف ابتسامة :

— أشكركما جدا . تفضلا . أحسب زوجتى قد أخبرتكما بكل شيء . تفضل هنا يا دكتور . إلى جانبى .

قال ذلك بصوت عادى متزن النبرات لا أثر فيه للاضطراب ، وإن كان ضعيفاً خافتاً بسبب المرض ، ومن غير أن ينظر إلى ليلى أو الشيخ على. فأما الدكتور فاستغرب أن يكون إبرهيم قد تزوج فى هذه الفترة القصيرة ، ولكن الخبر لم يصدمه ، لأنه لم يكن يعرف شيئاً يجعل زواج إبرهيم من أية فتاة أمراً موجباً للدهشة ، وشعر بأن عليه أن يعتذر لليلى من توهمه أنها ممرضة، ومما أدى إليه ذلك من استخفافه بها حين التقى بها فى الصالون فالتفت إلى ليلى وقال قبل أن يجلس :

— لقد كنت سيء الأدب فألتمس الصفح .

وعجب لليلى التى كانت تطفر إلى جانبهما وهى تدعوهما إلى غرفة إبرهيم . ماذا أصابها فجأة ، فقد كان وجهها ممتقعاً وجبينها مقطباً ، وفى نظرتها سهوم وشرود ، ولاحظ أن ابتسامها له وهى تقبل اعتذاره ، متكلف ، فعجب ، وقال لنفسه: لم أعدأفهم شيئاً ، فإن هذه الألغاز أكثر وأشد تعقيدا من أنه

أقوى على حلها . حسن! إن واجبي الأول هو نحو هذا المريض . وبعد ذلك يتسع الوقت لحل الألغاز إن كان لحلها سبيل . وجلس .

وأما الشيخ على فقد وجم ، ودارت به الأرض ، وكاد يعثر وهو يقعد على الكرسى . وكان كرسياً من القش له ذراعان ، فلما هبط عليه ألفاه لا يتسع له ، فنهض عنه ليتخذ سواه ، ولكنه كان قد انحشر فيه فظل الكرسى عالقا به ومرتفعاً عن الأرض وراءه ، فثارت ثائرته ونسى أنه فى حجرة مريض وانتزعه بعنف ثم تناوله ورماه بقوة . وصاح بهم جميعاً :

— إن لم تحطموا هذا الكرسى حالا . .

وأمسك ، وقد تذكر أين هو ، فسار إلى الكنبة واحط عليها فأنّت متوجعة ، وأغمض عينيه وراح يفكر فى إبرهيم وعناده وكبره ، وفى هذا الخلق الوعر الذى دفعه إلى الزواج من فتاة غير شوشو التى يحبها وتحبه. نعم يحبها ، فما كانت ذرة من الشك تخالج الشيخ على فى أن إبرهيم لا يزال وسيظل يحب شوشو كأحر ما أحبها ، بل كان الشيخ على واثقاً أن مرض إبرهيم ليس البنيمونيا فإن هذا هراء أطباء سخفاء ، وإنما الذى به هو من أثر الصراع الهائل بينه وبين نفسه . وليس هو بالشيخ على إذا لم يكن ظنه صائباً ، بل هو لا يعرف إبرهيم إذا لم يكن الأمر كما يتصوره . وكر الفكر به إلى شوشو المسكينة التى لم يكن ينقصها أن تهوى على أم رأسها هذه الضربة ، شوشو التى اضطره سفره أن يعيدها إلى الأسكندرية . . إلى مكايدة سميحة وغباء نجية وكثافتها ، ولقد صار واجبه الآن نحو هذه الفتاة أقسى وأفدح فماذا يصنع ؟؟ أليس الأولى به أن يطير راجعاً إلى الأسكندرية ؟ ماذا يصنع هنا فى الأقصر ؟ إنه ليس بطبيب ، وقد خرج الأمر من يديه فيما يتعلق بإبرهيم ، وهو هنا لا تنقصه العناية . له طبيب يعالجه وهذا طبيب آخر معه . وثم هذه الفتاة المجنونة ترعاه وتسهر عليه ، فليس إبرهيم هو الذى يحتاج إلى

العناية بل شوشو . وتوجع الشيخ على وهو قاعد على الكنبة وجعل ينفخ ويتلوى غير شاعر بمن حوله أوعابىء بهم . وكانت عيونهم لم تتحول عنه مذ رمى الكرسي وأضحكهم بثورته ، ولم يلبثوا أن رأوا وجومه وشروده وتململه فغاض الابتسام، وإن كان لم يفطن أحد إلى مافى رأس الشيخ على غير إبرهيم ، ولم ينقذ الموقف غير الدكتور فقد التفت إلى ليلى وقال :

— هل تسمحين بأخذ الشيخ على إلى مكان آخر ريثما أفحص الأستاذ ؟

فقالت ليلى وهى تدنو من الشيخ على :

— تفضل معى . دقائق ثم نعود .

فانتبه الشيخ على ووثب ، وهو يقول أو يصيح على الأصح :

— معك ؟ .

فلم يسعها إلا أن تبتسم وقالت :

— نعم . وثق أنى سأكون وديعة جداً .

— ٢ —

وتقدمته ليلى إلى غرفتها وأوصدت الباب وراءه وقالت وهى تسير الى الكنبة :

— هل أدهشك أنى زوجة إبرهيم ؟

ولم يكن يتوقع أن تفاجئه بهذا السؤال ، وخاف أن يكون تمهيداً لهجوم جديد فعلقة ثالثة ، غير أن ليلى كانت تبتسم ، ولابتسامتها سحرها ، فقال:

— لاتؤاخذينى . إنى لم أفق بعد . ماذا كنت تقولين ؟

فقالت ليلى ، ممضية عزمها على الوصول إلى غرضها من أوجز طريق.

— أقول إن فى وسعى أن أؤكد لك أنك تستطيع أن تعتمد على . . .

فتذكر العلقتين ، وقال :

— لاشك . لاشك . وهل هذا أول عهدى بك ؟ .

فجلست إلى جانبه وهى تكتم الضحك وقالت :

— دع هذا الآن ، وقل لى هل تعرف شوشو ؟ .

فغام وجهه بل أربد ، ونسى التى بجانبه وهو يقول :

— أعرفها ؟ لاحول ولا قوة إلا بالله ! مسكينة . مسكينة .

فقالت ليلى :

— أعرف ذلك . أعنى أنها مسكينة . ولكن هذا كل ما أعرفه ، فزدنى بها علما . حدثنى عنها .

وكان فى لهجتها من الحنو ، وفى وجهها من آيات العطف ما بهت له ، وطاف برأسه كخطف البرق أن لعل إبرهيم - إيثاراً منه للصراحة والاستقامة - قد ذكر لها طرفا من علاقته بها ، وخاف إذا هو أجابها إلى ما تطلب وحدثها عن شوشو ، أن يجاوز القدر الذى رأى إبرهيم أن الحزم يقضى بالاكتفاء به ، والصراحة لاتستوجب أكثر منه ، فقال وهو يحاورها :

— إذا كنت تعرفين أنها مسكينة فقد عرفت كل شىء . فماذا تبغين ؟ .

وأدركت ليلى أنه متردد ، وفطنت إلى الباعث له على ذلك ، وشاورت نفسها بسرعة فاقتنعت بأنه معذور مادام يعتقد أنها زوجة إبرهيم ، وأيقنت أن من الإحراج القاسى أن تطالبه بالصراحة أو تدفعه أو تستدرجه إليها مادام أن هذا هو اعتقاده ، وقررت أن تخطو الخطوة الحاسمة وتهدم كل حائل دون الوقوف على الحقيقة فقالت :

— إذا كان كل ما يدعوك إلى التردد هو ظنك أنى زوجة إبرهيم . . .

فوثب إلى قدميه وقال :

— ظنى ؟ ظنى ؟ لست إذن . . .

فجذبته إلى الكنبة ورفعت أصبعها إلى فمها محذرة وقالت :

— لا ترفع صوتك لئلا يسمعا . كلا . لست زوجته . ولم أكن أتوقع أن يقدمنى إليكما على أنى زوجته . لقد فاجأنى بذلك كما فاجأك تماما . . . ولا شك أنه فعل ذلك مدفوعاً بمروءة نفسه . . . الشهامة هى التى ألجأته إلى وضعى فى هذا المركز . . . إلى رفعى هذا المقام .. أراد أن ينقذنى . . . أتفهم ؟ . أيمنعك الآن مانع أن تحدثنى عن شوشو ؟؟ لقد قرأت رسائلها إلى إبرهيم . . . رسائلها التى لم يفتحها هو ولم يقرأها . فتحتها أنا . . . وجدت نفسى مضطرة إلى ذلك . لأعرف هل له أهل فأبلغهم أنه مريض ... لاشك أنى ارتكبت ذنباً فظيعاً . . . ولكنه كان ذنباً لامفر من ارتكابه ، ولو كان أى إنسان آخر مكانى . . . لو أن مدير الفندق الذى لا يعنيه من أمر إبرهيم شىء ، كان مكانى لما اجترأ أن يسأله عن أهله وهو مصاب بهذا المرض المخيف . ولكنى مع الأسف لم أتبين من الرسائل شيئاً سوى أن من تدعى شوشو تقاسى مثل أهوال الجحيم . ؟

فقال الشيخ على ، والدمع يترقرق فى جفنيه :

— هل قلت إن إبرهيم لم يفتح هذه الرسائل ؟

فقالت : « نعم . وجدتها محفوظة فى ظرف كبير وليس بينها واحدة مفضوضة . حتى ولا رسائلك أنت »

فهز الشيخ على رأسه وقال :

— لم يكذب ظنى . فما أعمق الجرح الذى فى صدره !

ووضع يده على كتف ليلى وقال بصوت يفيض عطفاً ورقة :

— لقد كدت أصعق حين سمعت إبرهيم يقول إنك زوجته . معذرة . فليس لشوشو من يحنو عليها غيرى . لست أباها ولا أخاها — ولا هى لها أب أو أخ ولكنى ابن عمها ، وزوج أختها . غير أنها مع هذا أقرب إلى

قلبي من زوزو — زوزو بنتي . أتفهمين ؟ أحب إلىّ من بنتي ! فهل تعذرينني؟

فهزت رأسها أن نعم . أفهم وأعذر — ومضى هو فى كلامه فقال : ولكنى لم أفقد ثقتى بالله . كان شيء يهمس فى أذنى أن الله أكرم وأعدل من أن يرمى شوشو بقاصمة الظهر . إنهما حبيبان ، صدقينى. لا تصدقى إبرهيم. لا يخدعك ظاهره الساكن ، إنه بئر لاقرار لها . لاأعنى أنه كاذب أو غاش. ولكنما أعنى أن ما يدفنه فى صدره لا ينشر ، وهو قاس جداً . . . على نفسه . . مجنون إذا شئت ، ولكنه جنون رائع لأنه جنون الإرادة القوية »

وقص عليها الحكاية ثم حدق فى وجهها وهو يسألها :

« فهل لك فى حلفى ؟ إنى أتوسم فيك القدرة على ماعجزنا جميعاً عنه، وإن كنت لا أعرف مكانك من نفس إبرهيم على التحقيق ، ولكن حسب أى امرىء ما سمعنا منه الآن . . . »

فقالت ليلى مقاطعة :

— لقد كنا - أنا وإبرهيم - حبيبين أيضاً . . .

فقال الشيخ على / « كنا ؟ ماذا تعنين ؟ »

قالت : « نعم . كنا . أما الآن فإنى أخلى مكانى لشوشو »

ولم يكن يبدو عليها شيء من التمزيق الذى احتملته فى صدرها حتى استطاعت أن تنطق بهذه العبارة . وراع الشيخ ظاهرها الساكن الذى تكذبه نظرتها الميتة ، فلم يملك نفسه فجذب رأسها وطبع على شعرها قبلة أبوية وقال:

— لست امرأة ، إنك ملك . لم أكن أعرف أنكما . . . تالله ما أغبانى ! كلا ! لست أقوى أن أسلبك إبرهيم . إنك له . وأنت أيضاً أهل لذاك . »

وفى هذه اللحظة سمعا نقراً فنهضت ليلى خفيفة لتفتح الباب .

الفصل الحادى عشر

مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون

وضعت ليلى يدها على أكرة الباب الموارب بين الغرفتين ووقفت منصتة لا تنظر . فقد كان السكون المخيم فى غرفة إبرهيم رائعاً : ولعل القارىء يعرف ذلك السكون الذى يسود النفس فكأنه يدخل الجسم وينفذ إلى القلب ثم يذهب يغرد ويشدو بمدح لا شىء . . أو لعله جرب ذلك الشعور العميق الذى يستولى على النفس فجأة ويشيع فيها ويفشو . والذى لا سبيل إلى العبارة عنه — ذلك الإحساس الذى يخيل للإنسان أنه دودة تضطرب فى أحشاء الزمن . أو أنه راقد بوجه من الخشب وهو يعجب لنفسه ولما حوله ويقول فى أعماق سريرته « ما هذا ؟ ما معناه ؟ من أين جاءنى هذا الخشب الخشن ؟ وما هو معنى أن يكون الإنسان حياً ؟ » وما أظن إلا أن كل إنسان قد جرب ذلك السكون الذى يجعله يتوهم أنه يحلم بنفسه وأن حياته وجسمه وكل شىء — كل أولئك ليس سوى حلم يتراءى له ، وأن كل ما يبدو لعينه ويجده قلبه ويجنه صدره ويقع له — هذا كله قد حدث من قبل فى مكان آخر ووقت غير هذا .

ومضت ليلى خفيفة إلى السرير ففتح إبرهيم عينيه ببطء على سواد الليل — فقد كان النوم لا يؤاتيه فى النور — وقال :

— من أين جاء هذا العرق كله ؟ لكأنى فى مغطس .

ولم يكن الكلام موجها إلى أحد بعينه ، ولعله لم يكن يحسب أن فى الغرفة سواه ! ولكن ليلى حنت عليه ودست يدها تحت الملاءة البيضاء ثم قالت

وقد أشرق وجهها وتهللت أساريره وإن كانت الظلمة قد حالت بين إبرهيم وبين الرؤية :

— مبروك . مبروك .

فرفع إليها عينا فيها من الدهشة والسرور الغامض معان وقال :

— مبروك؟ ماذا تعنين ؟

فقالت وهى تربت له على خده بكفها الغضة :

— إنها آية الشفاء . ألم تكن تعلم ؟

فقال « كلا » .

فقالت وهى تضحك « نعم ، وقد كنت جالسة أنتظر . فقد أنبأنى الدكتور محمود — ما أصدق فراسته — أنه يتوقع أن تكون الليلة هى الفاصلة فإما أن يشتد المرض ويتفاقم الحال ، وإما أن تهبط درجة الحرارة ويكثر تصبب العرق ويبدأ التماثل للشفاء ، وهذا هو الأرجح فيما رأى ، وقد حقق الله ظنه ، ألا تحس أن الحمى قد خفت كثيرا ؟ »

فلم يجبها إبرهيم ، ولم تلح عليه ليلى فى الإجابة ، لأنها كانت أعرف به من أن تثقل عليه ، ثم لأنه كان عليها أن تغير له ثيابه وتلبسه أخرى جافة . وذهب هو يفكر فى هذا العرق الشافى لذى أنبأته ليلى أنه بشير التعافي ، وقال لنفسه إذا كان هذا كذلك فإن أول ما يجب عليه هو أن يعصر نفسه حتى لا تبقى فى بدنه قطرة من الماء ، كأنما كان هذا شيئاً تنفع فيه الإرادة .

والتفت إبرهيم لليلى — على نور الكهرباء — وقال :

— والآن ماذا يجب على أن أصنع ؟

قالت « تنام وتعرق ولا تجهد نفسك بالتفكير . وبرغمى أقول ذلك فإنى فرحة » .

قال « سمعاً وطاعة . أطفئ النور إذن واذهبي إلى غرفتك فما أظنك اغتمض لك جفن فى ليلتك هذه — ليلة الفصل . هيه ؟ »

فابتسم له قلبها فى عينها، ولثمته ومضت عنه فى صمت .

* * *

ولكنها لم تنم ، فقد تمثلت لها شوشو - لا على حقيقتها بل فى صورة أفتن من الحقيقة وأروع وأبعث على العطف - وتعاقبت على ذهنها صور من الجمال والشقاء والكمد لم تطق معها الاستقرار وودت لو أنها عرفت شوشو أو أن عندها منها صورة ، وتذكرت مادار بينها وبين الشيخ على ، وعجبت له ولنفسها كيف تصارحا بسرعة على ما كان بينهما من الجفوة وفساد الحال ، وأحست أن قلبها يغمره الإكبار للشيخ على الذى وسع قلبه كل هذا العطف والإخلاص ، حتى لقد أفاض عليها من مروءته وأعداها بكرم النفس فبذلت له الوعد بالتضحية فى سبيل شوشو ، وإن كان حبها لإبرهيم واسعاً عظيما ، وجرها ذلك إلى التفكير فى إبرهيم . أتراه يحبها ويحب شوشو فى آن معاً ؟ أما أنه يحب شوشو فهذا مالامجاز للشك فيه بعد الذى سمعته من الشيخ على ، وإن فى صمت إبرهيم فى الأحيان الكثيرة وشرود ذهنه واكتئابه وتلقيه ماتجىء به الأيام باستخفاف من لم يعد يحفل ماذا يكون غدا - لدليلا على أنه يطوى أضالعه على هم مخامر ، وأى هم هناك غير حبه الخائب؟ ولكن لماذا خاب هذا الحب ولم يؤت ثمرته؟ إنه متبادل إذا صح ماسمعته من الشيخ على ، ومع ذلك يأبى إبرهيم أن يفض كتب شوشو إليه وإن كان يدخرها ولا يلقى بها فى النار أو يمزقها ، فكأن إبرهيم يقاوم حبه لشوشو لسبب ما . ولكن بقية من الرقة أو الضعف أو الحنين الذى لم يغلب تغريه بالتحفظ بهذه الكتب . فما أقواه وأضعفه . وأقساه وأرقه . ومن أولى من ليلى أن

تستخلص من هذا كل ما يحفل به من دلائل الحب المكتوم والوجد المغالب والكبرياء العصية ؟

وأما أنه يحبها ـ أى ليلى ـ فهذا أيضاً لا يرتق إليه الشك ، فما تخى آيات الحب . وليست ليلى بالتى يلتبس عليها التصنع بالإخلاص فقد جربت الدنيا وخبرت الناس وطوفت فى الأرض وتعلمت كيف تميز بين الصحيح والزائف على صغر سنها . ولئن خدعها رجل فلن يخدعها رجل ثان . وإبرهيم ألم يقل لها إنها ستشقى بسببه ؟ ولكنها لم تشق بل سعدت . وإذا كانت قد وطنت نفسها على الحرمان وآلت أن تخنق حبها له من أجل شوشو فإن فى ذلك سعادة لا تعدلها سعادة الحب الرخى المطمئن . وهى التى قاست وتعذبت حقيقة أن يدركها العطف على أمثالها . وسيبقى لها حب إبرهيم تتعزى به . ولكن هل يبقى ؟ هل إذا اتصلت أسبابه بأسباب شوشو يظل تصبو إليها نفسه .

وجاهدت ليلى لتخمد ثورة الأنانية مخافة أن تطغى فتعفى على استعدادها للإيثار والتضحية، وتعصف بعزمها على إنكار ذاتها . وأرعبها أنها بدأت تحس أن هذه ليست أنانية وأن الإخلاص للنفس واجب مقدم على الإخلاص للغير . وأن الإنسان لا يطالب بالإيثار إذا تقاضاه محق النفس ، وأن هناك حداً معقولا يجب أن يوضع ويلتزم . وأن من الغباء أن تنزل عن سعادتها لتشقى ويسعد غيرها أولا يسعد ، وأن الدنيا لا تزيد بذلك فرداً سعيداً ولا تنقص واحداً شقياً . ثم أنها لم تكن لها يد فيما كان فليست عليها تبعته ولا يلزمها واجب من أجله . وماذا تصنع بنفسها بعد ذلك ؟ كيف تنتفع بالعيش بعد رد إبرهيم إلى شوشو ؟ وهل لو كانت شوشو مكانها أكانت تقدمها على نفسها وتؤثرها كما تنوى أن تفعل ؟ ثم ألا ينبغى أن يكون لإبرهيم رأى فى الموضوع ؟ أهى كل شىء وليس لإبرهيم وزن ؟ لماذا أعلن إبرهيم إلى قريبيه أن ليلى زوجته إذا كان يشتهى أن يرتد إلى شوشو ؟ أليس

فى هذا دليل قاطع على أنه أراد أن يحسم الموضوع ؟ ومثل إبرهيم لايرد خطأه ولا ينكص على عقبه، وإنه لمن ذلك الطراز الذى يهون عليه أن يمشى إلى الجحيم ولايهون عليه أن يتلفت أوأن يرى الناس فيه ضعفاً أو يحسوا منه الحنين إلى ما صرف نفسه عنه .

والشيخ على لاشك يعلم ذلك ، فإنها أبرز صفات إبرهيم ، وإن كان لا يتوقح بها بل لعله لا يفطن إليها أو يقدرها قدرها . كالشلال الذى يتحدر بقوته الراغية غير المحسة ، واستراحت ليلى إلى هذا التشبيه وإن لم تخف عليها المبالغة فيه ، وقالت لنفسها إذا كان فى وسع الشلال أن ينثنى راجعاً فى تدفقه ، فإن فى مقدور إبرهيم أن يكر إلى شوشو ، وقد يتلهف على هذه الكرة ، ولكنه لا يستطيع ، لالأنه لايريد بل لأن الكر ينافى طبيعته ، ولم يسر ليلى أن إبرهيم قد يشتاق شوشو ويتلفت إليها قلبه ولكنه لا يقدر أن يرجع. وأحست أن هذا لا يكون فوزاً لها بل امتهاناً لوجودها، وأنكرت من نفسها أن يخطر لها أنها قد تقبل هذا الموقف ثم جعلت تسائل نفسها .. ألا يمكن أن يكون هذا هو الواقع ؟

وراحت تتصور أن إبرهيم لايحبها ولكنه يتسلى بها ويتعزى ، وأن مزيتها عنده أنه كان حقيقا أن يحبها لولا أنه أحب شوشو ، وحز فى نفسها هذا وأوجعها ، وإن كانت قد جعلت تنفيه عن خاطرها وتطرده وترفض أن تصدقه ، وأبى لها احترامها لنفسها إلا أن تكر إلى الثقة بإخلاص إبرهيم وصدق سريرته فى حبه لها . ولكن هذا الخاطر المنفى كان من فضله مع ذلك أن شحذ عزمها على الوفاء بعهدها للشيخ على .

الفصل الثانى عشر

« وقالت سارة : قد صنع الله لى ضحكا »

حارت ليلى ماذا تصنع ، وكيف تفى بعهدها للشيخ على أن تكون عونا له فى سبيل شوشو ، وكثيراً ما كانت الوساوس والهواجس تساورها . وربما قالت لنفسها إن هذا عهد ليس فيه ذرة من العدل ، وإنه ما من امرأة يجوز أن تكلف مثله لفرط منافاته للطبيعة ، والواقع أن ليلى اندفعت وهى مضطربة إلى بذل هذا الوعد الشاذ ، وكانت ساعة فاض فيها كرم النفس ومروءة القلب ، وقد وسعها ـ وإبرهيم مريض ـ أن تحتفظ بهذا المستوى، فلما عوفى إبرهيم وعادت إليه الصحة واستغنى عن رعاية ليلى، بدأت الشكوك تخالجها والشبه تدور بنفسها . وساعدها على ذلك أن إبرهيم صار أكثر صمتا وأقل كلاما وأشد شرودا ، وأنها صارت تحس ، وهى معه كأنه يذودها عن نفسه ويمنعها أن تطلع على ما يطوف برأسه . ويشرع ـ بصمته وجهامته ـ مثل شوك القنفد ، فكانت تقول لنفسها : « مالى أنا ولشوشو ؟ لست أعرفها ولا أنا رأيت وجهها ، فليس لها فى حياتى وجود ، ولا لها فى ذاكرتى محل ، إن هى إلا اسم ـ لم تبلغ حتى أن تكون خيالا ـ أربعة حروف لا أكثر ـ أربعة حروف لا ترسم فى نفسى صورة ولا أجد لها فى ذهنى تخطيطا . ومع ذلك تشغل هذا الحيز كله وتسد فى وجهى فجاج الحياة وتسود فى عينى نور الضحى ، فلماذا ؟ أهى الغيرة ؟ وهل تكون الغيرة من اسم مجهول المسمى ؟ من وهم أنا خالقته ؟ أترانى أخشى أن يتلفت قلب إبرهيم وأن ترده الصبوة إلى شوشو ؟ كلا فقد عرفت خلقه الوعر . وإنه ليحبها . ما فى ذلك شك ـــ ولكن من أين جاءنى هذا اليقين ؟ أمن أجل أن الشيخ

على يزعم ذلك يكون هو الحق؟ وإن إبرهيم ليحبني أيضاً — أيضاً؟ أقول أيضاً؟ واضيعتاه إذن! بل هو يحبني وحدى. ولى قلبه كله — كل لفتة. كل صبوة. وكل حنة وخفقة. لى أنا وحدى. وكيف يمكن أن يشرك بى غيرى؟ لست مغرورة. ولقد فتحت الدنيا عينى جداً — فتحتهما حتى لا أغمض لها — فلو أن فى قلبه حباً لها — لشوشو — لأحسست التفاتة قلبه. للمحت طيف هذا الحب فى عينه. كلا. ليس على هذا العرش سواى...»

ومن متناقضات النفس الإنسانية أن ليلى ربما ساءها وكربها أنها وحدها التى تستوى على هذا العرش وأنها استطاعت أن تقنع نفسها بأن ليس لها مزاحم: فتعمد إلى غزلها فتنقضه لتثبت لنفسها أن لها شريكا، بل إنها هى التى تجاهد لتزحزح شوشو وتخلى لنفسها مكانا إلى جانبها. وتحس أن هذه القدرة على الغزل ثم النقض، وعلى الإثبات ثم النفى، قد أفادتها سروراً وإن لم تفدها راحة وسعادة.

ثم حدث ما قوى عزمها على ما يوافق طبيعتها ويلائم مزاجها.

ذلك أنها كانت عصر يوم فى غرفتها تفكر فى ثوب تلبسه. فلما أعياها الاختيار نادت إبرهيم ليعاونها. وكان الباب بينهما مواربا كالعادة. فأقبل عليها يسألها ما الخبر. وفى هذه اللحظة نقر الخادم على الباب فمضت إليه تفتحه فناولها خطابا فمدت يدها، ولكن يدها ظلت تدور حول الخطاب ولا تقع عليه. وتعلقت عينها برسم مستدير على الورق الذى يكسو الحائط وأحست كأن الغرفة تدور بها وتترجح أيضاً. ولمحت إبرهيم وهو مقبل عليها يسألها وفى وجهه آية الفزع:

— ماذا جرى ياليلى؟ اجلسى.

وسندها بذراعه وقال الخادم وقد تقدم لمعاونته:

— إن لونها ممتقع جدا ياسيدى:

وقعدت ليلى على الكرسى ثم تنهدت وقالت «كلا . لا شىء ! إن رسم الورق هو الذى أدار رأسى.

قالت ذلك كأنها تعتقد بإخلاص أن الرسم هو الذى أحدث لها هذا الدوار لسبب غير مفهوم وعلة ليست بالواضحة. وذهب الدوار بأسرع مما جاء فقالت باسمة :

— لقد انتهى كل شىء . أفقت تماماً .

فقال إبرهيم « ما أغرب هذا » وضحك .

وفتحت ليلى الخطاب فى سكون ، وكان من الشيخ على ، الذى واظب على الكتابة إليها كل بضعة أيام — وأحياناً كل يوم — بأسلوبه الموجز المضحك ، ثم مدت به أصبعين إلى ابرهيم فى صمت فقرأ فيه :

« متى أراك ؟ لا لشوق إليك فلا تغترى ! أما إبرهيم فلا أدرى لماذا جهد أن يشفى ؟ أو بعبارة أخرى لماذا تكلف أن يمرض مادام أنه لم يكن ينوى أن يموت ؟ سليه بالله لماذا يعيش ؟ وأجيبى أو لا تجيبى فإنك مثله أو شر منه »

وفى ذيل هذه الأسئلة التى لا تستحق طابع البريد . امضاؤه ،وهى أغرب من الاسئلة ، فقد كان لا يوقع باسمه كاملا ومجرداً بل بهاتين الكلمتين « الشيخ على » وإن كان كما عرف القارىء لم يحرص على زى الشيوخ .

ولم تقل لإبرهيم إن هذا ليس بأول كتاب منه ، ولعلها لم تطلعه عليه إلا لخلوه من كل إشارة إلى ما تآمرا عليه . ولم يجر لإبرهيم فى بال أن هذا الكتاب حلقة فى سلسلة طويلة بدأت بعد أوبة الشيخ على إلى بلدته ثم إلى الأسكندرية . فلما قرأه ضحك وضحكت ووقف الأمر عند هذا الحد.

— ٢ —

وشاءت المقادير أن تتلقى ليلى بعد بضعة أيام كتابا آخر من الشيخ على،

وكانت جالسة مع إبرهيم فى الشرفة المطلة على الحديقة الخلفية، وكانا قد طلبا الشاى وذهبا فى انتظاره يتحدثان، فتناولته بكف غير ثابتة وجعلت تنظر إلى الخط الواضح على الظرف وتتأمل اسمها مكتوباً بالخط الجليل على خلاف بقية العنوان، فخيل إليها انه ليس اسما بل اسم امرأة غيرها ولعله اسم فتاة غريرة حديثة عهد بالدنيا والحياة والحب والأنوثة الناضجة على الخصوص. وأحست أن رأسها يدور ويدور. ونظر إليها إبرهيم فأزعجه اصفرار وجهها واتساع عينيها وثبات حملاقها وأن حول جفونها مثل مدار الكهف.

واضطرب رأسها واختل توازنها وقالت لنفسها «هذا هو الدوار مرة أخرى! أترى سيغمى على هذه المرة؟»

وكانت تسمع بوضوح مدهش تنفس إبرهيم إلى جانبها، وتراه وهو يميل إليها وكأنه يتهيأ للوقوف! وتفلت الخطاب من أصابعها إلى الأرض فصوبت عينيها إليه وأتبعته نظرتها! وهى تظن أنها تفعل ذلك عامدة وبإرادتها، وكانت الأرض فيما يبدو لها تدور بسرعة فقالت لنفسها «أظننى سيغمى على هذه المرة. ولكن ينبغى ألا يحدث ذلك وعلى الخصوص أمام كل هؤلاء الناس. وإبرهيم لايزال ضعيفاً. فهل تراه يقوى على حملى؟»

واضطربت رجلاها وإن كانت جالسة. وشاع فى نفسها شعور جديد بعدم الاستقرار وبانتفاء كل اتزان فتمتمت فى ضعف «أوه!»

— ٣ —

قال الطبيب بصوت رقيق «لقد أغمى عليك. هذا كل ما حدث»

وتبين لها شيئاً فشيئاً أنها راقدة على سريرها فى غرفتها. وأن ليس معها سوى الطبيب — على كرسى إلى جانب السرير. فرفعت عينها إلى وجهه فألفته مشرقا وضاحاً ولكنه مع ذلك ناطق بالعطف عليها.

فقالت « ماذا ؟ »

فقال « ينبغى أن تكونى أشد عناية بنفسك . ولعله أولى بك أن تستريحى الليلة فى فراشك »

فقالت وهى تحس أن كل مقاومة من جانبها قد زالت . وأن استسلامها تام :

— أظن أنى حامل . و . . ويجب . . .

فقال الطبيب « آوه ! هذه هى المسألة إذن ؟ »

وعجبت لنفسها كيف وسعها أن تنطق بهذه العبارة فى بساطة ومن غير تردد . ولم تقل للطبيب أهى زوجة إبرهيم أم خليلته . بل لم تعبأ به ماذا عسى أن يظن . على أن الطبيب لم يعجب ولم يظن شيئاً ولم يعن إلا بالحالة التى أمامه ، فقال .

— حسن . سنرى . أظنك تستطيعين أن تجلسى الآن ؟ هيه ؟

وبعد نحو ساعة كان معها إبرهيم يحادثها ويؤنسها وهو جاهل بتلك الحقيقة الضخمة التى تنطوى عليها انطواء حقيقيا لا مجازيا ! لأنها لم تفض إليه بشىء مؤثرة أن تكتم الأمر حتى تفكر على مهل .

الفصل الثالث عشر

« فى وقت المساء، ذا رعب، قبل الصبح ليسوا هم »

يالجمال المرأة ! إنه فتنة الحياة كلها مختزلة فى كيانها الدقيق ، فما أعجب ألا يراه الناس كلهم رؤيته ويحسوه كما ينبغى أن يحسوا ! بل ما أغرب أن يكون فى الناس من يجنبه ! فهل يفعلون ذلك لفرط إحساسهم به ودقة إدراكهم له أو لعمى عنه وبلادة تفيهم وتحمى جلدهم أن يخترق ؟ وماذا ترى يعميهم ؟ أهى « العلوم » ؟ أم ترى الذى يضلهم هو « الفن » ؟ أم هى الفلسفة التى تغويهم وتميل بهم إلى الأرباب المزيفة ؟

لاندرى ولانظن أن هناك من يدرى ، وكل مانعلمه أن ليلى كانت راقدة إلى جانب إبرهيم وأنها كانت ترامقه من خلال أهدابها الطويلة السوداء ، وأنه كان يجتلى فى صقال عينيها تلك الفكاهة العميقة المجهولة التى لولاها لثقلت وطأة الكروب على كاهل هذه الحياة الأرضية .

ولثمها ، غير أنه أحس أن اللثمات عبث وباطل وأنها فراشات تتسامى إلى نار الجوع التى يحسها طاغية . ومع أن ليلى جهدت أن تسقيه حتى تغثيه ، وأن تعطيه حتى ترضيه . فقد كان يخيل إليه وهو مستلق إلى جانبها أنه يستطيع أن يرى السكون وأن يقدره ، مختزلا فى جسم جميل ، ولايستطيع أن يستحوذ عليه ولايدخل فى مقدوره أن يجعل استيلاءه عليه تاما كاملا . وكان هذا الشعور يكاد يجنه وكان يعنى نفسه بأن يسألها : « لماذا يعجز الإنسان عن الاستيلاء على جسم جميل واحد ؟ لماذا يشعر أن وراء ماينال ، شيئاً آخر يشتهى ويراغ ؟ شيئاً أفتن وأمتع ؟ » أهى طبيعة الحب الخبيثة الماكرة ؟

أم هذا سر المرأة وسحرها ؟ وتالله ماأضأل هذا الجسم الذى يشيع فى نفسى الرغبة ، علوا وسفلا ؟ وياليت من يمكّن يدى من طيف ذلك الحب الخادع الساحر ؟ »

واسودت نظرته ولمحت ذلك فسألته باسمة :

ـــ ماذا ؟ قل حالا !

فقال بلهجة اليائس « ليس لى حيلة . برغمى هذا »

فمدت ذراعها البضة العارية وجذبت إليه وجهه وقالت :

ـــ بل يجب أن تكون لك حيلة .

فقال وهو يبتسم ابتسامة فيها من الرضى والمرارة معان :

ـــ كل هذا حلم . لا أنت حقيقية ولا هذا . ليلى ! . .

فضمته إليها وهى تهمس فى أنه :

ـــ أوه ! أهذا كل شىء ؟

وأغرورقت عيناها بكرهها ، وإن كان ثغرها قد ظل يفتر ، وراءها ماتضمره لهذا القلب الذى يدق .

ـــ ويلى ما أحقرنى ! سامحينى .

وحنا على عروس أهوائه يقبلها ويرد الدموع عن مقلتيها ، وهى تتنهد ، وهو يشعر أن جوعه قد صعد إلى السماء وهبط إلى الظلال ، وحدث نفسه أن قد صدق من قال إن الحب قوامه التطلع .

ونظر إلى وجهها مرة أخرى فألفاه ساكناً : شعرها على الوسادة وعيناها مغمضتان وأهدابها مرسلة على خديها ، فأهوى على كتفها وجيدها يلثمهما فقالت :

ـــ هل تعرف فيما كنت أفكر ؟

ولم تنتظر جوابه فقالت وهى تضحك :

ـــ فى الشيخ على . هل تصدق ؟ أحسبنى سأتزوجه يوما ما .

فقال بلهجة ساكنة :

— بل ستتزوجيننى أنا يا فتاتى البلهاء .

وكان هذا ماتخشى أن تسمعه وإن كان ما تحب . فتكلفت البشر وقالت تعابثه وفى مرجوها أن تنأى به عن هذا الموضوع :

— صحيح ؟ بذمتك ؟

قال : « بذمتى : ! »

قالت ملحة : « أتعنى ما تقول ؟ »

قال : « نعم »

قالت : « وتتجشم متاعب الزواج ولا تكل ولا تمل ؟ »

قال : « أعدك »

قالت مسترسلة فى عبثها : « ياللحبيب الطيب القلب ، السخى النفس العريض الأمل ! وقريباً ؟ جداً ؟ »

قال : « ليلى ! هل تسخرين منى ؟ »

قالت : « كلا ! لست أسخر »

قال : « إن هذه اللحظة رهيبة فى حياتى . فأنصتى من فضلك . هل توافقين على الزواج منى ؟ »

فرقص قلبها ولكنه هبط أيضاً فى صدرها ، ثم ضبطت نفسها وقالت :

— ياحبيبى المسكين هل جننت ؟

فقال : « إذن كنت تسخرين منى ؟ »

قالت وقد غيرت خطتها بسرعة .

— هل أتزوجك ؟ أنا ؟ إنه يسألنى !

قال وهو حائر ماذا يفهم :

— ليلى !

فلم تمهله وقالت :

— هل تستطيع أن تتصور أن لا أتزوجك ؟

فابتسم وهو يقول :

— هل أستطيع ! ؟ كأنى كففت عن أن أتصور ذلك !

قالت : ياالغباء الحبيب ! وهو أديب أيضاً !

قال : أعيدى على مسمعى . . .

فأسرعت تقاطعه :

— إنى أحبك ؟ لاشك فى ذلك ! هذا قرار لارجوع فيه . فهل تحبنى أنت ؟

فاتكأ على ذراعه وقال :

— أبقى عينك مفتوحة فإنى أريد أن أنظر فيها .

قالت وهى تهز رأسها :

— لا أستطيع .

ولمعت عيناها ورقص الضحك فيهما وهى تقول :

— إبرهيم ! شفتاك . . . الأحمر !

فقبلها غير عابىء بما علق بشفتيه من الدهان فقالت :

— هذه قبلة ناقصة . لم تبلغ كمالها .

فسألها ضاحكا : « أتظنين هذا ! ولكن من أين علمك بكل هذا ؟ »

فشعرت أن سؤاله فتح لها باباً إلى إمضاء عزمها فقالت :

— لاتكن غبياً .

قال : أغبى أنا !

قالت : نعم ياحبيبى . هذا ماتعلمته فى السيارات وأنا عائدة إلى بيتى بعد السهرات .

قال : ليلى !

قالت : نعم ، ولكنه علم لاخير فيه . ليس فيه حياة . إنها لثمات لا تبعث الإحساس الجنسى .

فنأى عنها قليلا وهو يحدق فيها ليتبين أجادة هي أم هازلة . وأيقنت من وقع كلامها فمضت تقول :

— نعم لثمات فاترة ليس فيها حرارة أو قدرة على الإعداء . من رجال من كل صنف وطبقة : من كبار وصغار ـ من أقوياء وضعاف ـ من ظرفاء وثقلاء ـ من مؤمنين وملاحدة ـ من ضباط و و . . .

فصاح بها وقد عيل صبره : « ليلى ! لا أحتمل هذا ! »

فقالت بعناد : « كذلك هؤلاء لم يكونوا يحتملون . أظن جمالى كان يتركهم مبهوتين »

قال : « حسبك ! أمسكى ! »

قالت : « ياملاكى العزيز سأترفق بك . ولكن ماذا تصنع بوجهك ؟ أدره إلى »

فقال متكلفاً : « أحاول أن أنسى ماضيك هذا . ما أعطر شعرك ! »

فلم تدعه وقالت : « الماضى لاينسى : إنه أنا »

قال : « لايمكن أن يكون هذا صحيحاً »

فألقت إليه نظرة حافلة بالألغاز وقالت وقد اكتفت بإثارة شكوكه .

— يالك من غبي ، سأقبل جبينك .

ووثبت إلى الأرض وخلفته شارد الذهن موزع اللب ، يتصور هذا الماضى الذى أطلعته على فهرس كتابه ، ثم سمع صوت حرير فالتفت فرأى قميصها يزل عن جسمها إلى البساط وهى تتناول قميصاً غيره بأقل من مايتصور من الاحتفال أو العجلة ، فصاح بها :

— ليلى ! أقسمى !

فأحست أنها تنتزع أحشاءها وهى تقول :

— ألم أقل لك إنك غبي ؟ نعم أقسم بالله وكتابه .

— ٢ —

ثنى إبرهيم وجهه إلى الحائط وقد تنفس الصعداء ـ وهذا غريب ـ ثم ذهب يفكر وهى تحسبه قد أولاها ظهره ريثما ترتدى ثيابها ، فخيل إليه أن المرء لايستطيع أن ينظر إلى الحياة بإخلاص إلا بعين يمتزج فيها التشاؤم والتسامح ، وأن الدنيا حافلة بالسوء والمقابح ، وأن الحياة فنها ـ أقوى فنونها ـ التثبيط . وأن الإنسان يعيش سنين وسنين ، ويتصل بمن لا يحصى عددهم من الناس ولكن ما أقل الموافق منهم ، والذى يسعك أن يتوثق مابينك وبينه من غير أن يكون هناك مقدار من الملل أو الاحتقار أو الامتعاض أو الخجل. وأننا نعلم ذلك ونحن نسعى فى الدنيا ونبغى الناس ، وأن خاتمة كل حياة الآسف والندم ، هما جبل ينمو معنا طالعاً من تحت أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه فى صبانا ، وما أكثر ماتتوهمه جبلا رائعاً جليلا ، وإنه لرائع وجليل ولكنه مخيب للأمل ، ويعلو الجبل أمامنا ويتضخم ، ونحن نصعد فيه ونتوقل فرحين بالحياة مغتبطين بالعيش ، ثم لانلبث على الأيام أن نتمهل ونديرعيوننا فيما حولنا ونرجع البصر فيما خلفنا ووراءنا فتأخذ عيوننا شقوق الفضائح وفدافد اليأس وأودية السقوط ، ومع ذلك نظل نصعد فى جبل الندامة ، وماذا عسانا نصنع غير ذلك ؟ ويجىء يوم نهرم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف أنسجتنا ، ونعيي بالاصعاد فنقعد على قنة مريحة وننظر إلى جداول الحياة المتحدرة ، الحياة التى تظل تترقرق ويظل واديها خصيباً وإن جففنا نحن ونشفنا واحداً بعد واحد ، فنتعلل بذكرياتنا وتبدو لنا هذه الذكريات أجمل وأسى من الحوادث التى ولدتها .

— ٣ —

والمصادفة أصل كل حادث فى هذه الدنيا التى يخيل إلى المرء أن «الحياة» حدثت فيها بالمصادفة ، فإذا لم تكن هى الأصل — أو إذا كان هناك من

يشق عليه أن يعدها كذلك — فلا أقل من أن نعترف بأنه ما من حدث إلا لها فيه أصبع غليظ ، وإن كل تغيير أو انقلاب أو اتجاه جديد لا يخلو من بعض نواحيه من مصادفة كان لها فضل كبير فيه ، والواقع على كل حال أن المصادفة كان لها تأثير حاسم فى هذه الفترة من حياة إبرهيم ، فقد كان ، كما عرف القارىء ، يلهج بالزواج من ليلى . ولم يكن ذلك ليسترها أو يستر نفسه كما فعل حين عاده الدكتور محمود والشيخ على ، ولا ليصحح مركزها ، فما كان يجرى له فى وهم أن بمركزها حاجة إلى التصحيح ولا كانت هى أنبأته بالحياة الجديدة فى أحشائها ، وإنما كان يدفعه إلى ذلك حبه لها ونزوعه إلى الاستقرار من ناحية وإلى المكايدة والعناد من ناحية أخرى ، غير أنه بعد أن صارحته ليلى بما أوهمته أنه ماضيها الحالك ، تردد وأشفق ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى الواقع أو الإضراب عن التفكير فى المستقبل مقيساً إلى الماضى ، ومع تردده وإشفاقه كاد حبه لها يطغى على إحجامه ، وكادت معاودة التفكير الهادىء توسع فى عينيه ماضيقه العرف ، لولا أن ليلى مدت يدها فجأة فأنقذته .

وكان من المتفق عليه فيما بينهما أن الرحيل قد آن جدا ، فقد غاب عن أمه وابنه شهورا ، وعن عمله كذلك وإن كانت صلته به لم تنقطع إلا فى فترة المرض ، وكان المقرر أن تسبقه ليلى — إلى الاسكندرية موطنها — على أن توافيه بعد ذلك فى القاهرة . وفيما عدا ذلك لم تكن هناك خطة مرسومة ولا نهج واضح ، لأن ليلى كانت تتفلت وإبرهيم كان مضطربا .

وفى عصر اليوم الذى استعدت ليلى للسفر فى مسائه دخل إبرهيم غرفته فلمح خطابا ملقى بغير عناية على مخدة السرير ، وكان الظرف مقلوبا وحرفه غير ملصق ، فتناوله بغير احتفال ، ولم يكد يقلبه ويرى خطه حتى قعد على السرير وراح يقرأه وهو ذاهل وكان مما قرأ فيه :

— ... نعم ياصاحبى .. هذا آخر كل حب .. الملال .. الفتور .. ولست أكتمك أنى مللت وأنى أصبحت أشعر بالفتور حين يناديني قلبك المضطرم. المستقبل كما ترى لا أمل فيه ، وخير إلى ولك أن نقصر من الآن ومازالت فى القلب صبوة ...

«... ولو أن حبك لم يحجب نظرك .. أو أنك لم تسلم نفسك لعاطفتك واثقاً من استجابتى لها مطمئناً إلى ذلك لما استطعت أن أخدعك عن حقيقة ما أظهر ولكنت حقيقاً أن تفطن إلى تكلفى .. نعم كنت أتكلف .. أتصنع الذوبان بين ذراعيك وأنت تضمنى وتعصرنى .. . أتصنع أن أبدو لك كأن روحى كلها قد صارت على شفتى وأنت تمصها وتعضها، وأطلت من عينى وأنت تحدق فيها وتمسح لى شعرى .. هى صناعة أتقنتها يا صاحبى بالمرانة والتدرب فلا عجب أن أخدعك ... »

ولم يستطع أن يقرأ أكثر من ذلك فقد كانت الصدمة عنيفة وعلى غرة وكان الاشمئزاز أقوى ما أحس ،ودار رأسه واسودت الدنيا فى عينيه وخيل إليه أن هذه ليست خيبة أمل فحسب ، بل إنها جنازة كل أمل وكل حلم وكل خير — بل جنازة النفس الإنسانية.

وبعد عراك عنيف استطاع أن يصد نفسه عن الاسترسال فى هذه الخواطر المقنطة ، فوضع الخطاب فى ظرفه وألقى به على المخدة ، وشاءت المقادير أن يرتمى الظرف مقلوبا كما كان — أى أن تكون الكتابة إلى أسفل ، وأن يكون طرفه المفتوح إلى أعلى، ونهض ففتح النافذة واعتمد على حافتها وأخذ ينظر وكأنه يعالج أن يرسل لحظه إلى قاع هاوية ، ولبث كذلك لا يدرى كم ، وإذا بالباب يفتح فى خفة وهو لاه بخواطره لا يشعر بما حوله ، ودخلت ليلى على أطراف أصابعها ، ورمت إلى السرير نظرة وإلى ابرهيم أخرى فوقع من نفسها جموده وذهوله ، و مضت خفيفة إلى السرير فتناولت

خطابها ودسته فى صدرها وهى تحسب — لأنها وجدته كما تركته — أن ابراهيم لم يلتفت إليه .

ودنت منه وسألته فى رقة « مالك ؟ »

فسرت فى بدنه رعدة منها وقال ببطء وبجهد واضح :

— لاشىء ! صداع بسيط .

ثم ابتسم سخراً من نفسه واحتقاراً للدنيا كلها ، فلولا عمق شعوره فى هذه اللحظة بهوان الحياة ، لصفعها أو ركلها أو بصق فى وجهها .

— ٤ —

لما صارت ليلى فى بيتها على شاطىء البحر فى الرمل قالت للشيخ على فى أولى زياراته لها :

— لقد نجوت ولما أكد . كان هذا الخطاب قسوة شنيعة — عليه وعلى أيضاً ، فلما رأيته حيث وضعته لم تمسسه يد حمدت الله وتشهدت .

فقال الشيخ على :

— وماذا كتبت فى خطابك هذا ؟ .

فقرأت عليه فقرات منه حتى بلغت قولها « ولو أن حبك لم يحجب نظرك . الخ » فاندلعت النار فى وجهها الأسمر وطوت الخطاب وهى تقول :

— كلا . لا أستطيع . ولست أدرى كيف اجترأت أن أكتب هذا الكلام ؟

فزام الشيخ على ولم يقل شيئاً واضطجع على ظهر كرسيه وجعل يفرك جبينه العريض بأطراف أصابعه ثم التفت إليها فجأة وسألها :

— أواثقة أنت أنه لم يقرأ هذا الخطاب ؟ .

فأزعجها سؤاله ونفى الدم من وجهها وقالت تطمئن نفسها :

— كيف يمكن أن يكون قد قرأه وقد وجدت الخطاب كما تركته ؟ ثم أنه لم يشر إليه قط ! .

فهز الشيخ على رأسه وقال :

— لاأدرى فما كنت معه . ولكنى واثق أنه اطلع عليه .

فاقبلت عليه تسأله « هل كتب إليك ؟ هل فى خطاباته إشارة ولو خفية ؟ » .

فقهقه الشيخ على ثم قال :

— يا فتاتى البلهاء لقد عاشرت إبرهيم كم شهراً ؟ ومع ذلك لا تعرفينه . كتب إلى حقاً ؟ هو يكتب ؟ ؟ بل أجزم أنه قرأه . وأن صداعه كان تعمية .

ثم نهض وهو يقول :

— أخشى . . .

فسألته بلهفة « ماذا ؟ »

قال « أخشى أن اكون قد جلبت عليك احتقار إبرهيم . لا أبالى أن يكرهك ولكن الاحتقار ! الاحتقارا »

القسم الرابع

« قعدت ورأيت تحت الشمس أن السعى ليس للخفيف ، ولا الحرب للاقوياء ، ولا الخير للحكماء ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة لذوى المعرفة ، لأنه الوقت والعرض يلاقيانهم كافة » .

الفصل الأول

لأنه فى الباطل يجىء، وفى الظلام يذهب، واسمه يغطى بالظلام

— ١ —

الأيام فيما يزعم الناس، كفيلة بأن تعفى على كل شىء، ولكن إبرهيم يقول - مغرباً ملغزاً - إنها قلما تستطيع أن تعفى على شىء سوى عجزها عن حل المشاكل الحقيقية للحياة. ولا ندرى ماذا يعنى على التحقيق، ولكن الذى ندريه أنه بعد عام ونصف عام من أوبته من الأقصر، تلقى كتاباً طويلا من ليلى - هو الأول والآخر فيما نعلم - ولم يتلقه، بل وجده على مكتبه فى منتصف ليلة من ليالى اكتوبر، وكان قد عاد متأخراً. فخلع ثيابه وأكل تفاحة ثم أوى إلى مكتبته على عادته قبل النوم، فقضى بضع دقائق يتأمل طابعه السورى ويعجب للخط - خط من يكون؟ فإن الخط السورى على العموم أشبه بالفارسى - ولعل ذلك أثر من حكم الأتراك - وهذا أشبه بأن يكون خط امرأة، ثم إن عليه المسحة المصرية وكأنه يعرفه وإن كانت ذاكرته الخوانة لا تسعفه فمن عساها تكون هذه الكاتبة؟

ولم يشأ أن يسترسل فى الحدس والتخمين لأن ذلك لا يوائم طبيعته النزاعة إلى الحسم، فقعد وفض الكتاب فإذا هو ورقات عديدة مذيلة باسم «ليلى».

فقال يحدث نفسه بصوت مسموع:

— نعم هو خط ليلى. فما أسرع ما نسيناه! فماذا عساها تصنع فى سورية

وماذا تراها تقول ؟ » ولم يقرأ الكتاب من أوله بل تناوله من ختامه وهو يبتسم فقرأ فيه :

« . . . ولا تكتب إلىّ من فضلك . فإنى أستطيع أن أتصورك على أوضح مما تصف عبارتك وإن تكن الكاتب الذى يتلقف الناس آثاره ! على أنى أظنك مشغولا بالتأليف — أو هذا ما أرجو ، فإنه أحلى فى نفسى من أن أعرف أنك لا تصنع شيئاً . وهذا محتمل وإن لم يكن مرجحاً .

« . . . لقد كان فهمى للحياة مغلوطاً وسلوكى فيها مضطرباً . وإنى الآن لأدرك أن ضبط النفس — كبح القلب — هذا بمجرده أتم وأكمل ما يبلغه الإنسان ويقوى عليه . . »

ووضع الكتاب وأطل من زجاج النافذة على الليل الموحش والصحراء الجدبة التى أقام بيته فوق رمالها الخائنة . وأحس بالبرد فزرر المعطف وقال لنفسه وهو يعود إلى الجلوس :

« لقد سرقت ليلى النوم من جفونى لأول مرة ! فلنقرأ كتابها من أوله » فقرأ بعد سطور :

« إن ذلك الفزع الشريد قد وجد مغرسه واهتدى إلى منبته — نعم وجدت ليلى التربة التى ينبغى أن يتقرر عودها فى ثراها . وإنه لحلم ولا كالأحلام . وإن الحياة فى عينى لجميلة ساحرة . بل أجمل من أن أظن أنى أقدر على احتمالها وأنت بعيد عنى لا تشاطرنى التنعم بها ، فأنت ترى أنك ما زلت حيث أحللتك من نفسى فى الأقصر . ولكنك لا تستطيع أن تقدر سعادتى أو تجاريبى مخاصاً فى أحلامها . فإن كثرة التفكير قد أشابت نفسك . ثم أنك طماح ! وأظنك توافقنى على أن الطماح مضن للنفس متعب للعقل ، وسواء أكان أم لم يكن كما أعتقد ، فإنى أشعر أن الطماح لا محل له فى هذه البلاد الجميلة . فأرجو أن تكتب فى مذكرتك — إن كنت تفعل شيئاً من ذلك

فى العادة — إنى أمنعك ، أحرم عليك ، أن تلحق بى هنا ! فيا للغرور ! كأنك لم تنسنى ! كأنى لا أخشى — بل لا أعلم — أن سخطك علىّ قد محا صورتى من صدرك ! . . . »

وهنا هز إبرهيم رأسه وقال لنفسه :

— كلا ! لن تبرح ذهنى صورتك ، فإنك أقدر من خدعنى وغشنى . لا . لن أتم هذا الخطاب . وما الفائدة ؟ ؟ أما لو أنى عرفت خطها قبل أن أفتحه ! ولماذا تكتب إلىّ ؟ ألتقول إنها سعيدة منعمة ؟ ومالى أنا ؟ لا أرانى أشعر بفرح لها ولا أنا يسوءنى أن تكون كما تصف فلنطو كتابها ولنلق به . . أين ؟ ؟ أوه ! هنا فى هذا الدرج — فى أى مكان .

وطوى الكتاب ورمى به فى الدرج ، ولكنه لم ينم بل قعد يدخن سيجارة بعد أخرى وقد أحس أنه هرم جداً كالجبال . وجعل يقول لنفسه فى تعليل هذا الشعور ، إن كتاب ليلى ليس سوى صدى فاتر لتجربة قديمة ـ تجربة ميتة . والتجارب القديمة الميتة هى ذخر الشيخوخة وإحدى خصائصها .

ثم قال لنفسه : « إن كتاب ليلى هذا لا يحرك نفسى لأنى ما عرفتها قط تحرك ذلك الجانب الشرقى من نفسى . وإنما كانت دائماً فى نظرى رمزاً لذلك الظرف والرقة والشيطانية ـ وغير ذلك مما يفيده الصقل الغربى ، وما أظنها كما تصف نفسها سعيدة أو راضية ؛ فإن رضاها الذى تحدثنى عنه أشبه بأن يكون عاطفة فهو زائل » .

وظل يفكر على هذا النحو حتى مطلع الفجر وحتى شك فى حقيقة ما حوله من أثاث وكتب وراح يتوهمها بعض ما يتراءى له فى حلم سينسخه النهار ، ثم أخذه النوم وهو قاعد ، وجاءت الخادمة فى الصباح تكنس الحجرة ولكنها لم تكنسها ولم تجاوز عتبة الباب لأنها رأته ، ولعلها ظنته سكر البارحة فنام حيثما اتفق .

- ٢ -

بعد أن عادت ليلى من الأقصر إلى الأسكندرية اشتدت عليها متاعب الحمل المألوفة فى الشهور الأولى فكربها ذلك وأزعجها مشكله ، وأفزعتها فضيحته ، ولم تجرؤ أن تستشير أحداً من أهلها حتى ولا أختها وهى أصغر منها وتقيم معها ، وكان لابد من حل ، فإن القىء وحده كفيل بأن يفضح سرها ، وهبه لم يفضحه لأنه شىء كان يحدث لها فى الصباح أو الليل وهى بعيدة عن أعين الرقباء فإن السر سيظل يبرز على الأيام حتى لا يبقى سبيل إلى إخفائه ، وحدثتها نفسها فى بعض ساعات ضعفها وألمها وخوفها أن تكتب إلى إبرهيم بالحقيقة فإنه أولى من تكاشفه بها وأحق الناس بالحرص على سترها ، ولكنها خجلت وأحست أن هذه خليقة أن تعد إكراهاً أدبيا منها له على الزواج منها ، وهى قد هجرته عامدة على فرط حبها له ، وخطر لها أن تستشير الشيخ على فإنه أمين ناصح ، وقد توثقت بينهما الصداقة بعد عودتها إلى الأسكندرية ، ولكنها قدرت أن الشيخ على سيرى من واجبه - و من حقها هى - أن يبلغ إبرهيم وأن يدعوه إلى واجبه — وهذا ما تكره وتأنف منه .

ولما أعيتها الحيل وسدت فى وجهها المسالك مضت إلى طبيب تعرفه وكانت تذهب إليه أو تدعوه كلما أصابها برد أو زكام أو نحو ذلك مما لا يصبر عليه المترفون . وكان الوقت مساء ووقت العيادة قد أوشك أن ينتهى . فلم يطل انتظارها . وكان رجلا كيساً ظريفاً يشعرك مظهره أن فى وسعك أن تعتمد عليه ففاجأته بقولها :

— إنى حامل ولا بد من الإجهاض .

فلم يبد عليه أنه دهش . وعجبت هى من اجترائها . فأشار إليها أن تجلس وقال كأنما يتحدث عن الجو :

— هل لك أن تخبريني لماذا ترين الإجهاض أمراً لا بد منه إذا كنت حاملا ؟ .

فقالت « هذا سهل. لأن أباه ليس زوجاً لى ولا يمكن أن يكون زوجا لى»

فقال : « إنى آسف جداً . فلست أستطيع أن أجرى هذه العملية . لم أحاولها قط فى السنوات التسع التى اشتغلت فيها طبيباً . ثم إن أصول المهنة المرعية . . . »

فقاطعته قائلة : « إنى أعرف أصول هذه المهنة فقد كان أبى طبيباً كما تعلم . لا بأس . إذن دلنى على رجل آخر موثوق به يستطيع أن يفعل ذلك ، واذكر أنى لا أريد أن أقضى نحبى الآن وفى خلال هذا العلاج أو العملية » .

فقال باسما :

— اهدئى . فما أظن من المحتمل أن تموتى بذلك . إن الخطر إنما يكون من العدوى أو من الطبيب إذا كان من ذلك الطراز الذى يعيش من هذه العمليات ، وهذا الطراز يتفق غالباً أن يكون سكيراً وأن تكون يده غير متزنة . . . على كل حال لا تفزعى . كم عمرك الآن ؟

قالت : « ستة وعشرون عاماً » .

قال : « إنك تبدين أصغر بكثير . على كل حال أظن الأطباء الذين يجرون أمثال هذه العمليات يقولون فى العادة إنها ضرورية سواء أكانت كذلك أم لم تكن . فهل تسمحين لى بالكشف ؟ »

ثم قال « لا أرى أن تتلكأى . إن الحمل منذ ثلاثة شهور على الأرجح . وأعرف رجلا كان زميلا لى فى الدراسة ، وقد سمعت أن طريقته علمية مضبوطة . وقد لا يعجبك ولكنك تستطيعين أن تتصورى حال رجل لا يعالج إلا كل امرأة هستيرية ـ وهذا طبيعى فى مثل هذه الأحوال ، فإذا

شئت فإنى مستعد أن أصحبك . موافقة ؟ حسن إذن دق لى التليفون غداً مساء لعلى أكون تمكنت من الاتفاق معه . »

وكان يوم العملية السبت — صباحاً . فعنيت بارتداء أبهى ثيابها وكانت تقول لنفسها :

— من يدرى ؟ ربما صرت جثة بعد الظهر . فلأكن فى أحسن حلاى .

وتعطرت وانتقت من المناديل مايوائم ثوبها فلما دخل عليها الطبيب قال :

— إنك بارعة الشكل فلعلك غير خائفة .

وكانت تحس أنها ميتة ولكنها قالت :

— كلا يادكتور هل نمضى ؟

وقال لها وهما فى سيارته :

— لاتخشى أن تموتى فلن تموتى . فإنك من ذلك الطراز السليم الذى يحتمل أكثر من هذا بلا تأثير سيء . وسأكون قريباً منك ألاحظك وأعنى بك — وليس هذا من أصول المهنة فى شىء ولكنى فى سبيلك أصنعه .

فشكرته وقالت :

— قل لى ياذكتور هل يطول الأمر ؟ هل تستغرق المسأله زمناً طويلا ؟

فقال « على الأكثر عشرين دقيقة . وأنصح كطبيب بعدم التخدير إذا كنت تعرفين أنك تحتملين »

فقالت « كما تشاء يادكتور »

ثم قال « قد وصلنا . والآن فاذكرى أنى بجانبك . وأن المسألة كلها ستنتهى بعد نصف ساعة . »

ودخلا حجرة ليس فيها بعد الكراسى شيء يصرف المرء عن خواطره ، وكان الطبيب ممسكا يدها فى حنو ليشجعها ، ودخل فتى وفتاة كلاهما صغير جميل لايتجاوز أحدهما السادسة عشرة ، فنظرت إلى الفتى كأنه منقذها وكان يهوديا مشرق صفحة الوجه أزرق العينين ، وقالت للدكتور :

— يادكتور . إن هذه الفتاة طفلة !

فقال « نعم . لاحظت ذلك .آه هذا هو الدكتور افرايم — الآنسة ليلى » . ولم يرقها جمود وجه الدكتور افرايم ، ولكنها اطمأنت إلى يديه النظيفتين ، وقال الدكتور افرايم :

— تفضلى .

وبدأ كل شيء يعوم فى نظرها ، ولكنها استطاعت مع ذلك أن تذكر أن غرفة العملية نظيفة وأن الممرضه جميلة ، وأنها أعطتها جنيها وأن وجهها نضح بشرا لهذه العطية ، وقال الدكتور افرايم :

— لا تخافى يا سيدتى . لقد نصح طبيبك بعدم التبنيج وله الحق .

فقالت ليلى للممرضة « أتسمحين لى أن أمسك يدك »

فقالت الممرضة « بكل تأكيد . وهل أنا هنا إلا فى خدمتك ؟ » .

وقالت لنفسها إن هذه الفتاة طيبة فسأنفحها بعطية أخرى .

* * *

وقال الدكتور نبيه « هذا أنت قد انتهى كل شيء على ما يرام ، وسأحقنك الآن ، فنامى واستريحى ، وسأعود إليك بعد بضع ساعات لأرجعك إلى بيتك . لقد كنت شجاعة . فأهنئك » .

فابتسمت له ليلى شاكرة ، وقالت لنفسها « ليس بى ذرة من الشجاعة . وإنما أنفت أن أصرخ أمام ذلك الدكتور الثقيل الذى لم يترفع عن سماجة التنكيت على ثمن اللذة ! » .

وبعد برهة دخلت الفتاة — مساعدة الممرضة — بوجهها الصابح وقالت :

— أتحسين بألم ؟ سيزول كل شيء حالا .

وشرعت تخلع المريلة وتلبس صدرية صفراء جميلة ، وليلى تنظر إليها وتعجب بحسن قوامها ، وقالت الفتاة مباهية :

— لقد أهدانيها حايم .

فسألتها ليلى « ذلك الفتى الصغير ؟ »

قالت « نعم ، كم تظنين عمره ؟ »

ففكرت ليلى ثم قالت « هو طفل »

فقالت الفتاة ضاحكة « تسعة عشر عاما . وأنا أحبه ، وهو أيضاً يحبنى ، ولكن أمه . . أوه ، إنها من اليهود القرائين . فلولاها لتزوجنا . وهو لا يعبأ بفقرى ، ولكن . . أمه . . صعب » .

ولم يكن على وجهها ألم ، وهى تقص هذا ولا فى عينيها أسف ، فلم ترليلى أن من واجبها أن تحاول الترفيه عنها ، وأخذها النوم وهى تفكر فى إبرهيم وتسائل نفسها أتراه يذكرها الآن ؟ وماذا يصنع لو علم ؟

— ٣ —

قال إبرهيم لنفسه فى الصباح وهو ينهض عن المائدة ويقصد إلى غرفة المكتب حيث اعتاد أن يشرب القهوة :

— إن الليل عون للضعف . لأنه يغير وجه الأشياء ، ولكن النهار يجلوها ويبديها على حقيقتها ، فلا بأس الآن من العود إلى رسالة ليلى فما أظن أنها بعد عام ونصف عام تكتب إلى لتقول فقط إنها سعيدة ولتأمرنى بعدم اللحاق بها .

وكانت المرارة التى فى نفس إبرهيم من ذلك الضرب الأخرس الذى تعيى الإنسان العبارة عنه ، لا كتلك المرارة المضبوطة الحدود المحبوكة الأطراف ، الوضاءة كالماس ، وكان إبرهيم رجلا ينقصه التواضع وإن كان لا ينقصه الكبر أن يكون به كبر ، على حد تعبير أبى فراس الحمدانى ، وكانت لغته صورة من روحه ، وألفاظه كأنما تدرك أنها درر ولآلىء تلقى تحت عيون الخنازير ، وكان يرص العبارة فوق الأخرى ويكظها جميعاً بشخصيته حتى

لتحس أن ألفاظه ملأى بمعانيه هو ، ومثقلة بخوالجه هو ، وإنه لا سبيل لك إلى رأى أو إحساس فيما وراء هذا الكوم المكدس من الآراء والإحساسات ، وإن عليك أن تبتلع بلا تردد ولا مضغ .

وبهذه الروح انثنى إلى رسالة ليلى ، ولم يخطىء ظنه ، ولو أخطأ لاعتد ذلك من ذنوب ليلى ، وكانت الرسالة الطويلة وفيها خلاصة تاريخها مذ توفى والدها إلى أن رفعت عنها وعن أختها الوصايه ، وفيها تشرح كيف أغواها الوصى وعبث بعفتها ثم حاول أن يتزوجها ليستولى على ما لها بعد أن بدد منه جانباً ليس بالقليل ، ولكنها لم تشر إلى الجنين الذى أعانها الدكتور نبيه على انتزاعه من بين أحشائها قبل موعده . وما الداعى إلى ذلك وقد تزوجها الدكتور نبيه آخر الأمر ؟ إنه سر لا يعلمه سواه فيحسن ألا يتجاوزه إلى غيره ، ومادام أنه هو قد دفنه ولم يحفله بعد ذلك ! فما أولاها هى بأن تتناساه .

وقال إبرهيم لنفسه « يا لها من فاجرة تتزوج رجلا ثم تكتب إلى بلا مناسبة تقول إنها تحبنى ! ولكن هذا غير عجيب ممن علمتها السيارات تصنع الحرارة فى القبل والعناق » .

وزادت مرارته قطرة — إذا كان إلى هذا سبيل .

الفصل الثاني

فلنسمع ختام الأمر كله

هي مقدمة الربيع ، وكل شيء هادىء ، والشجر كأنه مستحي أن يظل متعرياً وحوله الخضرة مهتزة زابية ، وكأنما هو يبذل أقصى مافي وسعه ليكتسي ويخرج أوراقه النضيرة الرفافة التي ستحجب أشعة الشمس التي أعانتها على الوجود وغذتها وأنمتها ، وقد خيل لإبرهيم وهو يجيل عينه في خضرة الأرض ورونق السماء وصفاء الجو ، كأن بالأزهار دهشة لهذا الدفء الجديد في الدنيا ، فهي لا تزال تبدو كالمترددة المشفقة أن تبرز في حفل من زينة جمالها مخافة أن يكون الشتاء إنما يخادعها ويغالطها في حقيقة الزمن ، حتى إذا اطمأنت عاد فحمل عليها بقره وصره .

وكان إبرهيم قد عاد إلى ماري بقلب مثقل وعين نقادة ونفس غير مرتاحة إلى اعتياض الذي هو أدنى من الذي هو أعلى ، وكانت شوشو قد زوجت الدكتور محمود ونقل هذا عيادته إلى الإسكندرية واستطاع أن يوطد مركزه فيها وأن يوسع دائرة عمله . وعلم إبرهيم أن شوشو راضية شاكرة وأنها وامقة مومو قة ، كذلك حدثته أمه في صبيحة ذلك اليوم في مستهل الربيع وزادت على هذا بعد أن قصت عليه ما اتصل بها :

« لقد كنت أفكر فيها لك » .

فلولا خلو ذهنها من الحكاية كلها للاحظت سهومه وتحجر نظرته وكفه بعد ذلك عن الكلام ، ولكنها لم تكن تعلم شيئاً مما عاني ابنها ، ولم تر موجباً

للإلحاح فى أمر لا جدوى فيه ولا طائل تحته ، وأوهمها صمت إبرهيم أنه لا يزال يكره أن يقترح عليه الزواج ، كعهده منذ ماتت زوجته .

ولم يستغرب إبرهيم أن يتزوج الدكتور محمود من شوشو ، ولم يخطر له أن يسأل كيف رضيت نجية أن يتخطى الدكتور أخته سميحة ، وإن كان هذا كله قد حز فى نفسه ، ولم يدهشه ما سمعه عن حب شوشو للدكتور . وقال لنفسه لعل هذا الحب الذى يصفون أكذوبة راضت شوشو نفسها على مقتضياتها . أو لعله حب صادق جاء كرد الفعل . أو لعله كان كامناً فى زاوية من زوايا نفسها وهى لا تدرى ، وقد كان هو — إبرهيم — يحب ثلاثاً من النساء فى وقت معاً وهو مدرك لهذا التثليث ، فلا عجب أن تحب شوشو اثنين وهى غير مدركة لذاك . فيكون أحد حبيها طافياً على اللجة ويكون الآخر راسباً فى قاعها . وعسى أن يكون الراسب أرسخ وأقوى .

على أن إبرهيم رجح عنده أن حب شوشو له هو ، لم يكن حباً لشخصه وإنما كان عاطفة جنسية قائمة بذاتها ومستقلة عن كل شخص معين ومتعلقة بالرجولة بمعناها الواسع ، ومدلولها الأشمل . فمن السهل أن تتحول من شخص معين إلى شخص آخر معين مادام أن كلا منهما موافق صالح . لأن العاطفة فى هذه الحالة لا تكون حباً لفلان بالذات ، بل فورة نضج أنثوى تبغى الرجولة والسلام . وبدا لإبرهيم أن هذا التعليل أصح وأسد . فإن الحياة المصرية وتقاليدها تعين على هذا النوع من الحب القابل للتحول — إذا صح هذا التعبير — والفتاة المصرية — فى الأغلب والأعم — تذهب إلى الزوج وهى لا تحمل له حباً ، وإنما تحمل له نضجاً جنسياً قابلا لأن يتعلق بشخصه إذا ساعفته الظروف وأحسن هو سياسته واستطاع أن يوجهه إلى نفسه . وما أكثر ما يبدأ الزواج فى مصر بلا حب . وليس بالنادر أن يبدأ بمقدار من الكره

الخفيف . ثم لا تلبث المعاشرة والإحساس بالواجب — إحساساً درج كل من الزوجين على توطين النفس عليه — أن يفضيا إلى ما يشبه الحب المتبادل وإن كان من العسير أن يسمى حباً لانتفاء امتحان الوسط وإغرائه. وذلك أن المرأة الغربية يقبل عليها الرجال ويهجمون عليها ، وفى مرجو كل واحد أن يفوز بها . وهذا امتحان لها وإغراء . ثم ينتهى الأمر بإيثارها أحدهم بعد أن تنخل عواطفها وخوالجها ، وتعرف أن هذا الأحد الذى تؤثره هو الذى تصبو إليه وتتمثل فيه معانى الرجولة التى تطلبها أنوثتها .

وقد تخطىء فى الغربلة أو يدفعها ظرف غير الحب إلى التحيز ، ولكنها تجوز الامتحان على كل حال ، فإذا أحبت كان حبها لا شك فى أنه لشخص معين ، أما أختها المصرية فقلما تتاح لها فرصة هذا الامتحان . والاختيار عندها فى أضيق دائرة . وقد لا يكون ثم اختيار بتاتاً ، فحبها للرجل شبيه بالحب الذى صهره الامتحان ومركزه الإغراء ، ولكنه ليس به ، ومن هنا كان إيمان إبرهيم بحب ليلى قوياً وخيبة أمله فيه عظيمة .

على أنه ما عتم أن انصرف عن مارى أيضاً — انصرف عنها بسبب لا يصرف سواه لفرط ما انطوى عليه من الشذوذ ، ذلك أنه قصد إلى دارها عصر يوم — بعد أن اتصل به زواج شوشو بأيام ، فقالت له الخادمة إنها مستلقية على سريرها فليدخل عليها إذا شاء ، فألفاها نائمة . هذا هو السبب ، والقارىء معذور إذا استغربه ولكن أعصاب إبرهيم كانت مضطربة مرتبكة . فخرج وهو يقول لنفسه :

— إنه ليس ثم أبشع من منظر الإنسان وهو نائم — فإن النوم حالة ذهول ينبغى أن لا يطلع عليها أحد ، — ذهول عن الدنيا القائمة القاعدة ، وبلادة حيال حركتها الدائمة ، ولقد حاولت أن لا أنظر إلى مارى ولكنى كنت أسمع أنفاسها ولا أستطيع أن أحول عينى عن وجهها المتعب المكدود ،

وقد كان هذا حقيقاً أن يدفعنى إلى العطف عليها، ولكنى أحسست بعد برهة أن معين عطفى قد نضب . وأنى لم أعد أعبأ أنائمة هى أم ميتة .

ولم يخبرها إبرهيم ولا حاول أن يلقاها ليشرح لها هذا ، لأنه خشى أن لا تفهم فيبغضها ، وهو يكره أن يضطر أن يكره الناس .

— ٢ —

وقالت له أمه ليلة بعد أن ظلت برهة مطرقة تنظر إلى سبحتها وتخالسه النظر :

— يابنى ألم تفكر فى الاستقرار ؟

ولم تزد . كأنما كان هذا سؤالا أخطره ببالها منظر حبات السبحة وهى تتداولها بأصابعها، فنهض إبرهيم وقال وهو يتمشى وكأنه يناجى نفسه :

— الاستقرار ؟ إن البيوت الثابتة إنما اخترعت لأن الإنسان اشتهى السلامة وطلب الأمن ، وأراد أن يكون مطمئنا إلى مايتوقع ، فإن الخيال لعنة — أو هو كذلك فى اعتبار أكثر الناس أو فى تجاربهم، وقل من يشعر بالراحة مع الخيال ، لأنه مزعج مقلقل . والحياة تظل تجربة حتى يكون للإنسان بيت . ويشعر أنه له ويصبح هو ملكا لهذا البيت مشدوداً إليه مقيداً به . والناس فى العادة يرتاحون إلى هذا الشعور ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رءوسهم كل ليلة . وأن هناك امرأة يسمونها الزوجة ترقد إلى جانبهم . نعم فإن الإنسان إنما يطلب البيت لأنه يطلب الزوجة ، وهو يطلب الزوجة لأنه يريد أن يريح نفسه من متاعب الإحساس الجنسى . كأنما هو يريد أن يفرغ من الأمر مرة واحدة وفى لحظة . . هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون أو يساعد على التقدم . . .

فنهضت وهى تتمتم بالدعاء له .

وكتب إبرهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك :

« هى ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحرائى أعدى ؟ صحرائى التى لا يلقط الطير فيها حباً ولا يجاوب فى خرابها قلب قلباً . ولا يغيرها صيف أو شتاء ، ولا يدوم عليها إلا العفاء ؟ — كذلك كانت قديماً وكذلك أبقاها الله . . . لى ! ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها ، وأطوف فى فيافيها ، وجهاً مستعاراً يبدو فيه « الوجه الأعظم » متقنعاً ! ولكم وقفت أدق رملها بقدمى وأفحص فيه بعصاى وأدمدم كالذى يريد أن يرقيها بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضرب عليها وألزمها المحل . ولقد أعجب فى الليالى القمراء كيف لا تحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز للقمر الذى يناجيها ضوءه وينام على صدرها المتموج — فى مثل وشى الرياض تنفح روحاً وريحاناً ، ويتداعى الطير على أيكها إعلاناً ، وتتهدل أغصانها فتسمو « وتمس الأرض أحياناً » .

وقالت الرمال لى وأنا أقتلع منها رجلى اقتلاعاً إذ أخبط فى الصحراء . والريح تجذب أطراف الرداء :

« بودى لو تماسكت حباتى . وثبتت ذراتى . ولانت مواطئى لقدميك . ولكنى مثلك لا حيلة لى فيما قضى به »

وهتف بى هاتف من جانب سمائها التى عفت الظلمة آى الهدى منها :

« ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك . وأنير لك الطريق الذى تغوص فيه قدماك . وأريك غايتك قبل مذهبك . ولكن لنا آييناً[١] لا نملك خلافه . وقانوناً لا نستطيع تأويله واعتسافه . وما نحن وأنت إلا سواء . وهل تراك تملك من أمرك كثيراً أو قليلا ؟ »

* * *

(١) الآيين : القانون

وهبت الريح بي كالمجنونة . فعدت وكأني أمشي على ماء لجي يعلو ويهبط. وسفت الرمال في وجهي حيثما أدرته كأنما أرادت الحياة أن ترجمني ، وتسابقت زمامها إلى أذني فوقفت مكاني لا أريمه . وقلت لنفسي « ماذا يصنع العود النابت في الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو يتقصف ! »

فملت إلى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة . وجعلت أفكر في هذه الحياة الغريبة التي يمتزج فيها الصراخ بالغناء . ويختلط بها الألم والطرب . وأقول لاشك أن الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيهة لترى هذا الخليط من الحسن والقبح والخير والشر ! وياليت من يدري ماذا تصنع إذن ؟ أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شيء وتمحوه ؟ أم تأخذ في إصلاحه وعلاجه في صبر وأناة ؟ أما لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاي من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذررته لهذه الرياح ! فهمست في أذني الرياح :

« ما الحسن وما القبح ؟ وما الحزن والسرور ؟ وما الخير والشر وما الإحساس والعقل ؟ والخصب والجدب . والصحة والسقم . واليأس والأمل ؟ والبكاء والضحك ؟ »

فرفعت رأسي حائراً . وأدرت عيني واجمـــاً . ثم أطرقت مفحماً ثم نهضت أمشي !

ودلفت بي رجلاي إلى المقابر فتخللتها إلى جدث فيه شطر من ماضي ، وقعدت وأسندت ظهري إلى حجارته . وأنا أقول لنفسي :

« الموت على الأقل راحة . فليت الحادي يعجل بنا ! فقد سئمت الحياة ومللت النظر إلى وجهها الملطخ وثوبهـــا المرقع . واشتقت أن أرقد هنا إلى جانب .... »

فخلص إليّ صوت من جانب القبر أن « لا » .

قلت « كيف لا ؟ »

واستدرت حتى واجهت أضواء القبر .

قال الصوت « لا . على التحقيق . إن لى هنا سنوات لا أعلم عددها . ولعلها أقل مما توهمني وحشة الوحدة التى تطيل أيامى التى صارت كلها ليالى . أو لعلها كثيرة فما أدرى وقد حجبت عنى الدنيا ، ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك صدقت ؟ ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من الأحياء ويشتمل عليه الفناء شيئاً فشيئاً ، وأنت على الأقل تذكرنى فأبقى بذكراك . فلا تسلمنى إلى العفاء بموتك ! ولسنا نألم الرقاد هنا . وإن كانت ظهورنا توجعنا أحيانا من طوله . ولكنا نألم فتور الذكرى عنا وإشفاءنا على التلف الأخير . وههنا فى قبرى — فى حجرة أخرى — جد أعلى لى . مسكين مسكين قد استوفى ميتاته جميعاً ولم يبق منه شيء ! . . وليت اذكاريه ينفعه ! إذن لرددت إليه بعض الوجود . ولكن هيهات ! إنما يجدى الذكر من فوقها دون من هم فى جوفها مثلى » .

قلت « ولكن إذا تعلقت بالحياة فلا معدى عن إجابة دواعيها ، أفلا يسوءك ذلك ؟ » .

قال الصوت « كلا ! سيان عندى أن تفى لى ولا تفى ، ومن العبث أن تتكلف لى الحفاظ فإنى بعد أن مت ، لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره . ولا ألتفت إلى وفائك أو غدرك ، وإنى لأدرى فوق هذا أنك لا تذكرنى لذاتى بل لما طابت به نفسك فافعل ما بدا لك . ولا تعن نفسك بى من هذه الناحية . ولكن أبق لى رقعة صغيرة فى زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء »

قلت « فإذا نسيتك كغيرى ؟ » .

قال الصوت « إذا نسيت ؟ آه ! ولكن مالنا وما لم يقع ؟ دع هذا إلى أوانه . وعسى أن يكون بعيداً »

قلت « حسن . سأحيا من أجلك . وأتى إلمهالك إكراما لك وضناً بك أن تلحق الأموات جداً ! »

قال الصوت « اتفقنا . فإلى الملتقى ! »

فسرت فى بدنى رعدة خفيفة ولم يسرنى أن تقول « إلى الملتقى ! » ونهضت عن القبر ممتلئا رغبة فى الحياة . وضناً بها وحرصاً عليها ، وعدت أدراجى إلى دارى خفيفاً كأنما حططت عن كاهلى وقراً . وجعلت أقول فى الطريق

— نعم سأحيا من أجلها !

ولما أدرت المفتاح فى الباب همس فى أذنى الشيطان اللعين:

— تقول من أجل من؟

وقهقه !

فغاظنى ذلك وأخجلنى أيضا . فأشحت بوجهى وأسرعت فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه !»

الثمن ٢٥ قرشاً